

رحلة إلى المغرب

أندري شوفريون

ترجمة : د. فريد الزاهي

أندري شوفريون

رحلة إلى المغرب

ترجمة

د. فريد الزاهي

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

Chevrillon, André, 1864 - 1957
[Crépuscule d'Islam]
رحلة إلى المغرب / أندري شوفريون ؛ ترجمة فريد الزاهي. - ط 1 - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2010.
ص. ؛ سم.
ت د م ك 978-9948-01-690-8
ترجمة كتاب: Un Crépuscule d'Islam : au Maroc en 1905
1 - المغرب - وصف ورحلات. أ- زاهي، فريد.
DT310.2 .C4712 2010



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م

هذا الكتاب ترجمة لـ:
André Chevrillon
Un crépuscule d'Islam
Au Maroc en 1905
Ed. Hachette, Paris, 1906

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380، هاتف: 300 6215 2 971+

publication@adach.ae
www.adach.ae

رحلة إلى المغرب

في الطريق إلى مدينة فاس

-1-

فاتح أبريل - 2 أبريل/ نيسان، في عرض البحر. الطريق جنوب مدينة طنجة ليست آمنة، على الأقل حتى مدينة القصر الكبير. ولكي نتوجه إلى فاس علينا المرور حتما بمدينة العرائش.

ركبنا سفينةً عتيقة من مائة وخمسين طنّا كانت تُنهي هنا أيامها؛ ولأنها لم تعرف النظافة منذ زمن، فقد أصبحت سفينةً عربيةً. ومائة من العرب واليهود والريفيين[1] كان عددا كافيا ليعمَّها الزحام. كانوا مسترخين على ظهر السفينة أو على الجسر الفوقي أو في المعبر، على طنافس من القطيفة الوسخة للصالون، متلفّعين ببرانسهم[2] وجلابيبهم أو عباءاتهم اليهودية السوداء، متأهبين لتلقي دُوار البحر. والشّاطرون الأقوياء من بين المغاربة كانوا مقرفصين في حلقة يعدّون الشاي، وأحدهم يعزف على قيثارته ذات الوتر الأوحد بعض النغمات الخفيضة، كما كان أحد اليهود يمطط ويغلق أكورديونا أوروبياً بئيساً. لكن، عند إقلاع السفينة على الساعة التاسعة والنصف صباحاً، في بحر ينعكس فيه الهدوء وزرقة السماء، قام أغلبهم ببسط زرابيهم وتمدَّدوا عليها؛ أغمضوا أعينهم نصف إغماضة، وصار كل واحد منهم يدندن مغلقاً فاه، متجاهلا من حوله نُتفاً من لحن عربي غريب الإيقاع، بفواصله المتكررة.

ياله من إحساس بأن هؤلاء البشر وهذه الإيقاعات وهذه السفينة لها جوهر مُتباين، بما أن السفينة منتوج حضارة أجنبية عنهم. ثمة، من جهة، مداخن الباخرة العابقة بخاراً، والسلالم والكُوى الحديدية، والمعبرْ الذي يتمشى فيه بحار إنجليزي، الوحيد من نوعه على ظهر الباخرة، الذي يصدر أوامره الصارمة للرجل ذي الجلباب الذي يدير الدفَّة؛ باختصار، كل ما لا يزال يذكّر بعمل ونباهة أعراقنا الأوروبية على هذه السفينة الشائخة، ومن جهة أخرى هذه الوضعيات الواهنة، والعيون التي لا بصر لها لدى المغاربة، ومآقي اليهود الكبيرة وعيونهم السائلة ووجوههم الواهنة والمحلوقة بشكل سيء، وأحذيتهم... يا

(1) المقصود بهم هنا الأمازيغيون سكان جبال الريف بشمال المغرب.

(2) البرنُس عبارة عن معطف ذي عُبّ لصيق به.

له من نشاز! ففي وسط هذه الأشياء الأوروبية، لا يحس الأوروبي أنه في بلده كما هو الحال عموما بالمشرق، بمجرد أن يدير الظهر لخليّة النمل التي يشكلها الأهالي، ويضع رجله على سلم الباخرة. وعلى هذه السفينة التي تبدو لنا أنها سفينتنا بشكل خاص، نحن لا نختلف في الجوهر عن هؤلاء الريفيين المتوحِّشين ذوي الطابع الصبياني الذين يسافرون ببنادقهم وحمالات خراطيشهم المليئة، وخناجرهم الرومنسية في الخصر. وفي قاعة الأكل، على الكنبات المهترئة تتراكم الرزم التي تذكّرنا بالقوافل أو بالأكواخ. ثمة سلال مغطاة بستائر غريبة أو مزينة بحمالات من السّوحَر، يبدو أنها تحمل المؤن والكسكُس، ومكاحل مسوَّرة بالنحاس ذات ماسورات منقوشة، وبنادق الريمنغتون والونشيستر، وصناديق من أزمنة غابرة ذات مسامير كبيرة ومغلفة بالقطيفة الخضراء. وثمة رزم كبرى من الأثواب لا يبدو عليها للوهلة الأولى أي حياة. وفي قمة هذه الكُوَم ذات الشكل الهرمي تلمع عيون نسوية من خلال شق الثوب. كان أفراد العائلات اليهودية أكثر عددا ومتكومين على أنفسهم، أجدادا وآباء وصبيانا، بحيث لا يفترقون بعضهم عن بعض في هذه السفينة كما في الحياة قيد أُنملة. والنساء منهم، بوجوههن الوديعة الذكية، الشاحبة تحت خمار الكتفين ذي الألوان الفاقعة، يمنحن أثداءهن ليرَقانات مُهَمهِمة.

كفَّ أقصى شمال إفريقيا عن المرور أمام أعيننا؛ فقد خرجنا من المضيق الكبير الذي يفصله عن أقصى الطرف الجنوبي لأوروبا. هنا نحس أننا أمام أحد النقط الرائعة في العالم. وأنا لم أرَ أبداً ممرا بحريا بهذا الامتداد تحيط به شوائط بهذه الرّوعة. وعلى بعد ثلاثين ميلا منا، تمتد الجبال الأندلسية الشاهقة، ومن بعيد إلى أبعد تظهرقمَمها الحادة الأكثر علوا. إنها عبارة عن شحوب خالص في الشفق الخافت، حيث يتبدى ضربٌ من البياض الصافي والبخاري كأنه الألماس. وعلى يسار السفينة وقريباً منا، يسحق سواري السفينة الصغيرة الجدار الذي يشكله حاجز «سبارطيل» الجبلي. إنه أنف جبل ممتد في البحر لا شبيه له في البحر المتوسط؛ وهو عبارة عن جرف ساحلي لا يماثله غير رأس السرّ في الصومال، الذي يرسم في الجانب الآخر من القارة المتوحشة منعطفا كبيراً للعالم. وخلفنا يمتد خط لانهائي بين الجبال الحجرية الرائعة (ذات اللون الرمادي الشاحب في البخار الألماسي) التي تشكل أعمدة هرقل والحاجز الصغير البعيد لجبل طارق. إنها فراغات البحر المتوسط التي تبدأ من هناك في التوسع باتجاه

فرنسا وإيطاليا. وأمامنا مياه المحيط الأطلسي التي تتسع أكثر فأكثر. وكما في الممر المائي الشاسع، هنا باتجاه الأفق، نعيش سكون البحر نفسه، والروعة المتماوجة التي يخفف منها الضباب اللامرئي، والوحدة الزرقاء، ومعها الطمأنينة المؤقتة والرائعة لجزء من العالم واقع تحت خدر النور.

لا شراع لمراكب صيادين في الأفُق، فباخرتنا وحيدة في هذه الفضاءات، في اللحظة التي تقوم فيها بنصف دورة لتتوجَّه نحو الجنوب. تجاوزنا في وقت وجيز رأس سبّارطيل الذي يرسم إحدى الصور الأساسية لكوكبنا، والتي أتصوَّر أن بالإمكان رؤيتها من القمر وهي تسم الكرة الأرضية الزرقاء بلطخة كثيفة وضبابية. وفي أقصى الجنوب تمتد الكثبان الحارقة لساحل رملي موحش يجاور الصحراء ثم السينغال والعالم الأسود، ويمتد دائماً في النور مقابل المحيط الأطلسي المتوهِّج. وداعا للمنارة الصغيرة البيضاء، التي تسهر على صيانتها بلدان أوروبا، في سفح رأس سبارطيل، هي الحارس الأكثر تقدماً من هذه المناطق المتحضِّرة، والمنارة الوحيدة للمغرب التي تربط طنجة بالطريق الوحيدة المفضية لهذا البلد.

انصعنا لإيقاع البحر المتباعد والعميق، وأبحرنا بموازاة مع الكثبان المستقيمة المغبرَّة. لا شيء غير الكآبة المشرقة، كأصفر الرمال وزرقة الأمواج الصاخبة، التي ترجرجنا كل واحدة منها كي تفرَّ في صمت وتجري نحو نهايتها في عنف. وهناك، في الحد الفاصل بين الساحل والبحر تبدو ألسنة لهب بيضاء طائرة. إننا نراها تمر مرتعشةً، منفصلةً عن الشاطئ والبحر، لتعود ببريق متشنِّج. كان يلزمنا بعض الوقت لنفهم الأمر. هو من دون شك سراب ركام الزَّبَد المتدفق على الساحل غير أنه بعيد جداً كي يصلنا طنينه. وبما أن الزَّبد ينحرف في الطبقة الهوائية الدنيا الحارة التي تبدو كزيت متماوج على الرمال، فإنه لم يعد غير توهُّج شبحيٍّ مفاجئ.

ونحو الثانية مساء تراءى لنا مربع أبيض صغير على الكثبان المغلَّفة بحرارة متوحشة. إنها مدينة أصيلة، الصامتة في وسط أسوارها المربعة. وهو مربع بلون جيري ضائع في الوحدة التي تتبدى حتى الجذر المتساقط لسورها. ولا علامة حياة، ولا حركة أو دخان في هذا المكان الذي نعرف أنه آهل والذي ينحو شحوبه نحو الرمادي تحت وطأة الشمس. نعم، إنه يبدو

مكاناً مهجوراً من زمان، غير أنه لا يزال ماثلا على ساحل محيط ساخن، وعلى شاطئ لا نهاية لامتداده حيث تطير ألسنة لهب عجيبة...

وبعد ساعتين من ذلك بلغنا مدينة العرائش، التي بدت لنا غير شاحبة وكئيبة كأصيلة وإنما بيضاء بياضاً ثلجياً وهي تنحدر من جرف نحو مصب النهر الأزرق. وكلما اقتربنا منها كانت تنكشف لنا أسوارها المسنَّنة البيضاء أيضاً التي تغلفها بكاملها بحيث تخفيها عن ناظرنا، كما لو كان ذلك غلاف عش إنساني موضوعا هناك ومربوطاً إلى هذا الشاطئ القفر. وفي داخلها من دون شك ضجيج وصخب دفين كما الزنابير المتجمعة في كيس لصيق بالصخر. ومن الجهة الأخرى، وبدءا من جذر السور، ثمة الوحدة والبحر والبادية المشرقة الخالية إلى ما لا نهاية.

رست السفينة عند مدخل المرفأ قرب السياج البدائي. يا له من منظر بسيط وشاسع! لا وجود للأشجار ولا للتفاصيل. فقط الزرقة الرائعة للنهر، والمنعطف الكبير الخالص بشطّيه عبر السهل، والمرعى الطويل اللانهائي الذي تقوده التلال المحاذية نحو الشرق، والذي سوف نسير منه بعد غد نحو داخل البلاد.

وفي مدخل النهر، على كثبان رملية فاقعة، مجموعة من البدو ذوو طابع رعوي ينتظرون المركب الذي سيقودهم إلى المدينة المغلقة، صحبة حميرهم المحملة.

3 أبريل/ نيسان. ما كنت أتخيله خلف الأسوار هو الحياة الكثيفة المزدحمة. وفي الصباح عند الإفاقة من النوم، في غرفة صغيرة تطل على الزقاق الأكثر ازدحاما في السوق، أسمع جلجلة الدواب والعراك وأصوات سائسي الحمير: «بالاك، بالاك»[1]. أسمع الصياح بالعربية، وهمهمة الناس كما لو كانت دندنة هائجة للذباب على زجاج النوافذ. يا لها من حياة وقّادة في فوَرانها الباكر القريب من أذني. ينبعث منها تأثير حيوي، وهو ما يطرد عني شكوك الإفاقة من النوم، كما لو أن أشعة الشمس الإفريقية تشعل في الشَّمال النور الوهاج للظهيرة منذ الساعة الأولى من الصباح.

جاءني أول ضيف فرنسي (من مواليد الرباط)، وهو الفرنسي الوحيد المقيم هنا. وهذه الغرفة الضيقة التي أقيم بها ذات أثاث أوروبي، غير أن بها روائح وعطورا لطيفة ليست آتية من أوروبا. هل هي منبعثة من حوانيت السوق القريب؟ لا، لأنني أدركت أن آثار العطر قد تبقى هنا كما لو أنها ظل الغرفة، منذ أن وُجد هذا البيت.

إنها الروح العربية للدار المغربية التي تنبعث من عمق الحيطان، ورائحة الأخشاب النادرة، وربما كان ذلك خشب الأرز الذي استعمل في سقف الدار. يكفيني أن أشمه كي يستثير ذلك في نفسي الشرق: فقد تشبعت به في حوانيت دمشق والقاهرة، مخلوطا ببخور صمغ جاوة والألوة مع دفق الجمال الرائعة التي كانت تمر تحت الأقواس البخورية.

فتحت الستائر وأطللت من النافذة. لم تعد الشَّقشقة التي كانت تتسلَّل إلى نومي من قبل تثير في نفسي الدهشة. ففي السابعة صباحاً، كان سكان العرائش بكاملهم يتكدَّسون في هذا الزقاق الضيق. وهم بين أكياس الحبوب والقفف المقلوبة وركام الفضَّة والحمير الملتصقة بالحيطان عبارة عن زحام وخليط من اليهود بعباءتهم السوداء، والنساء المتلفِّعات مثل الرزم، والصبيان العراة، والبدو اللابسين الخرق، والبرجوازيين المغاربة. كل هذه الجمهرة من الناس التي تتعارك، وتساوم البضائع وهي تتضارب بالأكتاف وتجري في العتمة الخصبة

(1) أفسح الطريق، باللسان المغربي الدارج.

في قعر هذا السِّرداب.

وحين رفعت عينيَّ، كان علي للتوّ إغلاقهما للعديد من المرات قبل أن أتمكَّن من التعرف على البياض الناصع الذي يتراءى أمامي: سطوح ثلجية تحت نور الشمس، غير أنها مائلة إلى الزرقة بشكل خفي على الإدراك، كما لو أن ما تحت ذلك الثلج يكاد يلامس شفافية المرآة. وبعيداً من هناك، خلف خط من الألوان البيضاء المحزَّزة، تمتد الزرقة الباهرة والثقيلة للمحيط الأطلسي السَّديمي، وإذا ما أنا أدرت رأسي شيئاً ما نحو الشمال ثمة مصب نهر اللوكوس ذي الزرقة الملساء، حيث يمتد اللون الذهبي للرمل، ثم المجرى الأول للنهر وهو يتمدَّد بسعة في السهل.

يقال بأن هذه الحلقات الرائعة من بين أجمل أشجار البرتقال في العالم قد أوحت للقدماء بفكرة التِّنين، الذي كان يحرس فيها وراء أعمدة هرقل حدائق الهسبريد[1] المسحورة.

* * *

صعدنا إلى الهضبة الموحشة التي تشرف على البحر فوق العرائش، عبر الزقاق القذر الصاخب. روائح كريهة وعطور الشرق. وعلى كل منزل ثمة اللون الأبيض الناصع للجير. لكن عند عتبة الأبواب الموصدة هنالك دورٌ سوداء تحت القبب العتيقة لا تدخلها الشمس. والوحل يتجمع مع القاذورات في الماء الآسن في الأرضية المحفرة. الظل رطب وصقع؛ ويبدو لي أن المدينة تنتشر بها الحمى. يا له من انطباع غريب! ففي هذه المدن المغلقة والمكثَّفة للدفاع عن النفس، لا تدخل الشمس البيوت، بل تنتشر في البادية لتنعكس في الخارج على الأسوار والسطوح في شكل بياض باهر.

إنهم بشرٌ شاحبون وكئيبون، خاصة منهم اليهود المتلفعون بلباس الحداد، وبناتهم ذوات التنّورات القصيرة التي تبين عن أفخاذهن العارية، يمشين حفاة في الوحل، ويبدون أكثر شحوباً بالتّباين بين حجاب الكتفين الأحمر والأصفر على رؤوسهن، الأحزمة ذا ت الألوان العديدة. هذه البشرة البضَّة الشفافة (مع بعض الوردي الفاقع على الوجنتين) ستذوب بسرعة

(1) حدائق الهسبريد حدائق أسطورية يحدَّد موقعها بين مدينتي طنجة والعرائش بشمال المغرب. وتعيش بها الحوريات الأسطورية المسماة باسمها.

في هذه الأزقة الغريبة. البياض نفسه نلاحظه لدى المسلمين المدنيّين غير أنه أكثر رجولة. وهم يجلسون في عتبات بيوتهم أو يقعون في حوانيتهم. على العكس من ذلك، فالقرويون الذين يبيعون أعشابهم وبصلهم في قعر الزقاق ذوو جمال به مسحة من الفحولة. إنهم يجلسون وركبتهم قرب ذقنهم، متلفّعين ببُرنس في لون التراب لا يظهر منه غير وجههم، فيبدون كما لو نحتوا في قطعة من المرمر، مثل جِرار مصرية يبين غطاؤها عما يشبه الوجه البشري. والملامح كذلك ذات طابع مصري، إذ هي عريضةٌ وضخمةٌ بحيث لا يبدو منها شيء من الطابع المغربي الذي تكون علاماته دقيقة وحادة. وأتصور أنني الآن أمام الإفريقي الأبيض الحق، البدائي والأهلي، ذلك الذي عرفه الرومان.

تسلّقنا المنحدر متفادين الحمير الشعثاء التي تنحدر مهرولة، وعليها تركب بشكل جانبي رزم آدمية، تخرج منها رؤوس وقورة ومتوحّشة، وإحداها تصرخ فينا «بالاك، بالاك، بالاك»، في حين لامستنا قدمان حافيتان عند مرورهما بنا، فالزقاق كان مختنقاً بالناس.

وفي ما وراء ذلك، كان ينتظرنا شيء غير متوقَّع. في الزقاق منعطف تنبثق منه أمامنا ساحة شاسعة محاطة بأعمدة، وهو أمر مدهش في هذه المدينة البئيسة. ففي هذا الإطار العتيق يتزاحم الشعب الشبيه بالتماثيل المغبرة المتدثّرة. وفي الوهلة الأولى يبدو المكان كما لو أنه ركن من روما العاصمة، أو سوق في حي ترانستيفيري[1] transtevere. لكن الوجوه بالغة الوحشية، والبرانس إفريقية، والنساء نصف مقنّعات. ثمة عواجز متهالكات عند قدم الأعمدة وأثداؤهن متهدلة. إنهن جدّات جاءت بهن من دون شك عائلاتهن البدوية التي أتت لتعسكر عند مدخل مدينة العرائش. ثمة أيضاً شباب رائعون ذوو أجسام ممتلئة ووجوه هادئة، ولون قمحي يشبه لون الثّوب الصوفي المائل للرمادي الذي يرتدون. كفّوا عن الكلام وظلوا واقفين هناك من غير حراك، صامتين مثل حيوانات. هناك أيضاً «عرب» السهول وبرابرة الجبل، ومشعوذون سودانيون وخلاسيون. وجوه جلدية غامقة، بعضها بعين سوداء متحلّلة في قرنية صفراء؛ وجوه تلمع بالعرق، مثنيةٌ ومتشبّعةٌ بالجفاف من فرط الحرّ وقساوة الجنوب.

لكنني لم أكن أتجوّل في العرائش كراغب في التعرُّف على الأجناس البشرية. كان هدفي

(1) المركز التاريخي للعاصمة الإيطالية.

متواضعاً وواضحاً. كنت فقط بحاجة إلى حبل لكي أعقل حصاني في المخيَّم، حبلٍ حقيقي لا يكون من التبن المضفور. وخادمي الريفي الذي يعرف جيداً هذه الحوانيت تجوَّل طويلاً حول هذا السوق من غير أن نستطيع العثور على هذا الشيء النادر. وفي الأخير قادنا تاجر اهتمَّ بمسعانا نحو حانوت مغلق تحت القوس. فتح مصراعيه فكانت المفاجأة المشؤومة: رائحة عطنة تزكم الأنف، فهذا المكان الضيق عبارة عن مدفن للجثث والعظام. ويبدو أنه حُفر في ركام كبير من النفايات، فثمة أوراق قديمة وجُرر عتيقة، بحيث تظهر الخرَق مع العظام والجلود الدامية على طول الجدران الثلاثة، ومن السقف تتدلى أخرى، كما ثمَّة أمعاء ناشفة ومئات الأشياء غيرها.

في هذه العتمَة الزائدة على عتمة الزُّقاق بدا لنا وجه غريب، إنه يهودي ذو عباءة طويلة، جاف المظهر، موغل في الشيخوخة وذو ملامح تشبه الكواسر. ظهر أمامنا ووقف نصف منحنٍ، رافعاً ذراعه في الوقت الذي عَلَقت فيه طاقيَّته بطريدة معلَّقة فوقه. تراجع محدقا فينا بعينيه الحادتين من الخوف أو الحذر. إنه يتراجع بشكل لاشعوري كما لو كان يريد العودة لمدفَنه، بحيث نخاله طيراً طريدةً أو عنكبوتا بدأ يهرع في شبكته نحو ذبابة ميتة، لكن ما أن يقترب منها أحد حتى تتجمَّد في مكانها.

لكنَّ هذا اليهودي العجوز ما لبث أنِ اطمأَّن لنا وأدرك ما نبتغيه منه. ومن غير أن ينبس ببنت شفة، انهمك في زاوية من مزبلته، وأخرج منها حبلا كان هناك بين السيور الجلدية. لم يضِع وقتا في البحث، إذ كان يعرف كل ممتلكاته؛ فثمة نظام لا ندركه نحن يعمُّ في مطرح النفايات هذا. وبصوت خافت لم يغمغِم إلا بكلمة يتيمة: «واحد بسيطة»[1]. إنها قطعة من حبل قديم منتوف تبدو أغلى مما كنا نتصور.

وعند إحدى زوايا هذا السوق، اجتزنا باب السِّر[2] لنجد أنفسنا في فضاء مفتوح، إزاء الهضاب الشاسعة الخضراء المشرفة على مدينة العرائش والتي تنتهي بأجراف قرب البحر. وهناك تمتد الهضبة موحشة حتى المنتهى، لكن الجوانب القفراء للأسوار مليئة بالمعسكرات، وهي عبارة عن خيام بدوٍ قصدوا المدينة لبيع أعشابهم ودوابهم. ثمة فوضى بئيسة على

(1) وحدة نقدية إسبانية كانت مستعملة بشمال المغرب.

(2) باب خلفية مخفية في القلاع تستعمل للنجاة في حالات الحصار.

الأرض المصفرَّة المحاذية للأسوار العتيقة: نساءٌ بالأسمال، صبيان وكلاب، ماعز وشياه، حُمُر ترتَع بين الحُزم والطناجر الكبرى. وهناك كانت تعسكر أيضاً القوافل التي تحمل إلى فاس صناديق الشاي والسكر والشمع التي جاءت بها للعرائش بواخر أوروبية. البغال مربوطة، وأسراب الجمال قاعِية في حلقة بدائية حول كوم التّبن. إنها تأكل وبطونها إلى الأرض، بحيث نرى أسناما متصلبة خشنة، وأفخاذا مرفوعة ومثنية كما أفخاذ الجراد، وفيما وراء ذلك على طرف العنق المطاطي، تغفو الرؤوس أو تهمهم، ثم الشفاه الغليظة من حيث يتدلى العشب.

هذا الخليط البئيس، وهذه الخيام، وهؤلاء الناس والدواب، وهذه النيران والدخان المنبعث منها، والبادية الفارغة في الأفق، والبحر غير البعيد، كل هذا يجعلنا نفكّر في جمهرة من الناس في العصور الوسطى، تعيش ألوان التّيه والعذاب. ثمة عمران عسكري يهيمن عليها ويمنحها طابعا ملحميا. إنها قلعة مغربية إسلامية كانت فيما مضى تواجه المسيحيين وتحمي في ثغر العرائش قراصنة بلاد المغرب. واليوم، وهي تعيش الهجران وغزتها الأعشاب، لا تزال تشهد أمامنا بكبرياء الماضي العظيم للمغاربة. القلعة أعلى من أسوار المدينة، ومن تسنُّناتها تنبثق دعامةٌ مستويةٌ وحادةٌ مثل سارية السفينة، تمنحها لفضاء البحر. وحدها اللقالق الكبيرة تعيش فيها، واقفةً على حافتها كأشباحٍ قدرية في الفضاء. وما أن ابتعدتُ عن جمهرة الناس حتى سمعت الأصوات الرتيبة التي تقوم بها وهي تصفق بمناقيرها: طاك، طاك، طاك...

ومن جهة البحر، في الأسفل على المنحدر الذي يصعد من الساحل الرملي، ثمة حصن من القرن السابع عشر، مرتفع وبئيس لا تظهر منه سوى القبَب المثلومة لأبراجه...

***

تركتُ ورائي كل هذه الجمهرة المغربية في ما وراء الحصن. لم يعد يوجد أثر لإنسان، ولا أحد يتراءى لي على مرمى البصر. ليس ثمة ما يحدِّد المنظر الطبيعي ويمنحه انتهاء، إذ قد يتعلق الأمر بهضبة خضراء في فرنسا على شاطئ البحر اللامتناهي. بيد أن هذا النور هو نور المناطق الساخنة من الأرض، ولذلك فهو أكثر ليونة وأكثرغنى برطوبة المحيط الأطلسي. وهو يغلف هذه الأزهار التي يحبها أناس الشمال في فصل الربيع.

يكون الربيع أكثر تأثيرا في النفس على جرفٍ مطلٍّ على المحيط؛ فقرب المياه الخالدة حيث

كل فصل لا يفعل سوى أن يعكس جناحيه، لا يمكن للمرء إلا أن يعشق بانطلاقة أكثر حيوية هذه المعجزة التي لا تدوم أكثر من بضعة أسابيع، إذ ثمة الكثير من الهشاشة المنتشرة، وبريق من اللطافة والسرعة البالغة. لكن هنالك نور ساطع ينضاف لهذا التأثير بحيث إن البهاء لا يبرز فيه إلا لكي يندثر. وتحت الأفق الثابت الذي تتخلَّله أشعة الصيف، سوف تنبعث للتوِّ الطاقة الرَّطبة والمبكرة. ثم، هنالك الأقلُّ من المرح في سعادة الأرض هذه، والكثير من النشوة المنهكة.

الهواء شبيه بمياهٍ ربانية، فهو يسيح ويسيل ويغلف كل شيء ببلسمه الدافئ. وروح الأزهار تنبعث من كل مكان، تمتصها الشمس الحارقة، ومن كل الجوانب تنطلق أيضاً النوارس المغرّدة.

أزهار من كل نوع ولون. ومنها حقا تتدفق الحياة أمواجا، في نكهة دافئة وقوية العَبَق. وهنا وهناك، تذكرني شجرة صبار هائلة بلونها المائل للزرقة بالإكسير الإفريقي لهذه الأرض، خلال صيف ذي ستة أشهر سيحرق كل شيء سوى هذه الأضلاف المكتنزة التي ستستفيد منه على الدوام.

توقفتُ عند مقبرة صغيرة، بحيث يلزم الاقتراب منها كثيراً لاكتشاف وجودها. وحينها نتعرَّف في الأعشاب المتعالية، وتحت الزهور البرية نقف على تلك الرّبوات الصغيرة التي تتكرر فيها أشكال تنمحي من تحت. قبورٌ لا شاهد لها ولا كتابة عليها. قبور غامضة ومجهولٌ صاحبها، ولا أثر إنساني في هذه العزلة الرائعة.

هناك يبدأ المنحدر الذي ينتهي بجرفٍ حادٍّ على رمال الشاطئ. وهناك يعلق الحقل الميت شعب زهوره. وهناك في الأسفل بركٌ تركها جزر البحر، وحقول الطحالب التي تمتزج رائحتها البحرية بعطور التبن واللقاح. بدا لي بعض المغاربة البيض بعيدين معلَّقين على صخرة يصطادون السمك. مشهدُ الرمل والمحيط الأطلسي، ووجوه مغاربة ببرانسهم، تلك الصور الشرقية والغربية كانت منفصلة بعضها عن بعض في ذهني، بحيث إن رؤيتها مجتمعةً تبدو لي مفارقةً مستحيلةً كي يحلم بها المرء.

إنه الهدوءُ الكئيبُ لهذا البحر المحيط الذي لا شراع فيه، والذي يظل لدى البشرية العتيقة

لهذا البلد الحدَّ الذي لا يمكن تجاوزه. تنعرج المساحات المتموجة الراكدة حتى الأفق المبيضّ، كما نراها من علوِّنا تتكون في الصيف، حين أصبح هدوء البحر مطلقاً منذ عدة أيام، لكي تعيش فتورها في عزِّ النور.

في هذه اللحظة أصبح نور الهاجرة خارقا بدفقاته وفيضه، وغدا الفضاء يتمدَّد كما عيوننا في هذه الحرارة المفرطة. والطاقة ترقد في زرقة المياه وتشعُّ؛ والمنبسطُ ليست غير عطور وروائح عبقة، وألوان تنبعث بإرادة الربيع في طراوته. وعلى كل شيء يعمُّ هذا السكون العارم....

في قمة ذلك الجرف، غير بعيد عن المقبرة التي يكاد رُفاتها لا يظهر تحت الزهور، كنت مع الأموات في عمق القوى الخالدة، في قلب العناصر؛ وفي هذه الهاوية لم أكن أشعر إلا بالسكينة والنظام والنشاط الحماسي، يرافقني النور دوماً ومُويجاته كلها حياةٌ تنمحي وتنبعث في الآن نفسه.

في بلدان النور والموت هذه، لا يكفُّ الموت عن التجرُّد من طابعه المرعب!...

***

عند العودة إلى العرائش وقت الظهر، صادفت القافلة التي ستقودنا إلى فاس قد وصلت لتوِّها من طنجة عبر البرّ. في الزقاق ثمانية عشر بغلا وفرَسان، وسائسو البغال وخدمٌ من الأهالي، أي كل ما يصهل ويغمغم ويصرخ، ويتدافع مع الحمولة، ويسدُّ الممرَّ الضيق، ويسبِّب الاضطراب والهياج في المدينة. وخلف المحَلَّة فيالق خيالة القائد ماك لين[1] Mac Lean الذي كان يعود مباشرة إلى فاس، استطاعوا لحسن الحظ المرور من المنطقة الخطيرة جنوب طنجة.

في المساء سوف يعسكرون هناك فوق، في الأرض العمومية التي يخيِّمُ فيها البدو والقوافل جنب البحر، قرب القلعة القديمة التي تعشِّش فيها اللقالق.

وغداً سنلتحق بهم عند الفجر كي نأخذ الطريق وسط المراعي.

(1) ماك لين ضابط بريطاني دخل في خدمة السلطان مولاي الحسن في أواخر القرن 19، وأشرف على تدريب جنوده المشاة. كان أيضاً مستشاراً لابنه السلطان مولاي عبد العزيز الذي كان يحكم البلاد خلال زيارة شوفريون للمغرب.

4 أبريل/ نيسان. كوَّنا موكبا طويلاً يسير الهوينى عبر البلاد المغربية، هذا البلد الشاسع بلا طرقات، حيث لا شيء غير امتداد الأراضي الذي لا يتغير، بدائيةً دائماً كما البحر وخاليةً مثله من كل شيء. والسير هكذا، من أفق لأفق آخر، بعيدين عن العالم الذي كوَّنه لأنفسهم المتحضّرون، بعيدين عن حاضرنا وعن واقعنا، عبارةٌ عن متعة من قبيل عبور ذلك الامتداد البحري حيث لا علائم استدلال غير النجوم، والخطوط المثالية للدرجات. هكذا كان يسافر الناس في ما مضى من الأزمنة، ناس الخرافات القديمة؛ وهكذا كان يسافر ملوك الماجي[1] rois mages، وغير بعيد عن بدايات العالم، يعقوب أو الأب إبراهيم، بين نهري دجلة والفرات. وعبر السهل الربيعي، وبين الزهور، وتحت تغريد النوارس التي تتحلَّل في النور، صار موكبنا يتمدَّد ويتمدَّد، ويتفتت على طول نصف فرسخ. كانت الدَّواب المحمَّلة تسير بكوكبات متوالية وعيونها نصف مغمضة، ظهورها ترزح تحت سُللٍ هائلة ذات خطوط حمراء وسوداء، ولا تظهر منها سوى آذان مترنِّحة، ورؤوسها مستسلمة وأقدامها الضَّامرة تتحرك بصعوبة. وأمام كل كوكبة يسير سُوّاسُها على الأرجل مثنى وثلاث، متماسكين بالأيدي، بوجوه صارمة وجميلة تعبر عن كبرياء الرُّحّل. وبينما كان خدمنا، راكبين على مطاياهم بين الأغطية والسلال، يتبادلون المزاح الماجن أو يغفون، كان هؤلاء يسيرون بخطوات متوافقة وقويَّة، رؤوسهم عالية، مستسلمين للصمت كأناس يقضون حياتهم مع الدواب، جائلين البلدان الساكنة، تحت حرّ الشمس أو تحت لمعان النجوم. لقد عادوا مؤخراً من مراكش، وبعد أيام من الانتظار بمدينة طنجة، هاهم ينطلقون باتجاه بادية جديدة، بحزم البحارة الذين يمتطون سفينتهم ويعودون لتأمل البحر. وهم وحدهم يؤدون بدقةٍ الصلواتِ الإسلامية ركوعاً وسجوداً.

إنهم عرب، لا يرتدون أبداً الجلباب الداكن البربري، وإنما يتزيَّون بالأبيض، وهو أبيض

(1) Magi Kings وفقاً لما ورد في إنجيل متّى هم ثلاثة حكماء أو ثلاثة ملوك من الشرق قيل أنهم جاءوا لزيارة المسيح ليلة مولده حاملين الهدايا. واسم الماجي يعود لقبيلة من الميديين كانت تختص بإقامة الشعائر الدينية لشعوب إيران القدماء. (المحرر).

أضحى رماديا، كما أحذيتهم التي كانت فيما مضى صفراء وأعقابها أرجلهم المغبرَّة.

أما رئيسهم، الفقير مثلهم، وخادم الرجل الذي أكرى لنا البغال بطنجة، فله هيئة أمير أو إمام. إنه ذو شحوب أرستقراطي، وشوارب تمتد فوق الشفة، ووجه بيضاوي متناسق، تحيط بوجنتيه من هذه الجهة وتلك لحية أشبه بالطوق. وحين يمشي ينعزل بنفسه، لا ينبس ببنت شفة ولا بضحكة عارضة، وهو يبتسم أحياناً ببسمة هادئة ومستعلية. يظل جامدا بلا حراك، مستقيم القامة، ينصت للأوامر، في وضعية متَّسمة بالفحولة والأدب جعلتها الصلوات أليفة لديه، لا يجيب إلا ب«إيّا» صارمة وصائتة، أو بحركة من يده التي ترتفع في مستوى المعصم. إن له فعلاً هيئة وحركات إمام.

كان هذا الرجل في ما مضى من الزمن غنيا ببغاله، غير أنها أصيبت بوباء فماتت عن آخرها. وبما أن الله حرمه من كل شيء فقد أضحى خادما للآخرين، ووجهه حين يقود دوابَّ ليس في ملكه، يبدو كما لو أنه لم يعرف الضَّنى كما عرف البهجة. لكنه يحترم الفلوس، أي المال الذي يمنُّ به عليه الله. وبما أن سيده كان على سفر، فقد كان علي أن أقدم له هُو عربون الرحلة عند انطلاقها. جلس أمامي على أعقابه في وضعية المتعَبِّد. جمع كلتا يديه حتى تتساقط في راحتيهما نقود العربون. كانت قطع النقود الحسنية[1] تتساقط، وحين بلغ العدد أربعة أفرج ما بين يديه فانزلقت على حجره، فيما كان يعلن بصوتٍ خافتٍ وبشكل مُتوالٍ عن عدد الدورويات[2]: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. كان ذلك أشبه بمراسيم احتفالية. وحين انتهت المراسيم، سار ليقعي قرب إحدى الأبواب وضرب قطع النقود واحدة واحدة على عتبتها الحجرية[3].

سائسو الدّواب العرب هؤلاء يقدّرون الماء مقدار تقديرهم للمال. فحين نبلغ شط نهر، لا يتوانون عن النزول إلى وسط الغدير، وهناك عند الحصى الذي تهرب منه السلاحف، يرفعون بأناة أكمامهم، وبتعبُّد ينثرون بعض الماء أمامهم، كما لو كانوا يهبونه لشخص غير مرئي. حينها فقط، يأخذون السائل المصفر في قعر أيديهم ويبدؤون في عبِّ الماء بتؤدة روحانية، من غير أن ينسوا صفق لسانهم.

---

(1) نسبة إلى السلطان مولاي الحسن (1873-1894). وهو آخر من سكَّ نقودا ذهبية بالمغرب.

(2) جمع «دورو»، وهو وحدة نقدية كانت متداولة بالمغرب في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

(3) حتى يتأكد الرجل من أنها فضة وأنها نقود غير مزيفة.

وضعوا بضائع لهم فوق أمتعتنا، ينتظرون منها أن تدرَّ عليهم بعض الربح بمدينة فاس. وهي من الخفَّة بحيث لا تزيد في حمولة البغال شيئاً يذكر. إنها طيور التُّرُنجي التي يبدو أن قيمتها في المدن الداخلية كبيرة، بحيث إن التأنق البالغ للظرفاء هناك يتمثل، على ما يبدو، في أن يحملوا بطرف أصابعهم قفصاً بسجينه الرائع، كي يروحوا مساء إلى البساتين والمقابر للترويح عن النفس. كان بصحبتنا أربعة من هذه الطيور في أقفاصها. وكل واحد منها يتوِّج حَمولة دابّة. وقد تم تغطيتها بقماش درءا لها من حرارة الشمس، بحيث تبدو كأنها خيمة مصغَّرة. لكننا نبصر من الأسفل بالمسافر الصغير ينقر الحبوب ويغرِّد بمرح في رطوبة الصباح، مطمئنا في هذا المقام المترنّح على إيقاع خطوات البغلة.

وهناك الجيلالي الدليل، وهو شخصية متعجرفة، والرئيس الفعلي للقافلة، الذي تتبدّى نخوته في ساعديه الأصفرين، وقبعته الهائلة المصنوعة من الحلفاء، وفي الخاتم الذي يضعه على بنصره. وهو ينسلخ عن المجموعة وينهض واقفا بتصنُّع حين يصدر أوامره. إنه شاب تلمساني رائع، يكره بدائيي المغرب، مهذار، له لحية ذات مسحة آشورية، وإحدى شفتيه كثيرة الاكتناز، ولونه قمحي غامق. يبدو أن أبويه كانا يحبان الزِّنجيات، وهو بنفسه أسرَّ لنا أنه لن يحرم نفسه منهن في فاس حيث يُعتبرن ترفا رئيسيا للرجال الموسِرين، وزينة الحياة المرغوب فيها. ثم افترَّت شفتاه عن ابتسامة تعبر عن بهجته بهذه الرحلة.

وهنالك عسكرينا، الذي اكترينا خدماته من السلطات المغربية، بثمن تسعة بسّيطات لليوم. إنه يمثل المخزن[1] المغربي ويوفر لنا الحماية المعنوية. لكن، ليست البذلة العسكرية هي ما يصنع حظوته. فشاراته تختزل في طربوش لا يظهر من تحت عُبّه وسيفٍ أقل ضخامة من خناجر خدمنا. والبرنس من الجوخ الأسود الذي لا ينزعه أبداً يمنحه هيئة راهب؛ لكن، تحت العُبّ الأسود ذي الشكل المخروطي، ثمة جبين حاد الملامح والسيف في الخاصرة. وهو يبدو، بوجهه الذي لا عمر له ذي المسحة الخلاسية حيث تبدو آثار الجدري، وبعيونه اللامعة ولحيته الصغيرة، كما لو كان ساحرا مُناجيا للأرواح نصفُه زنجي والنصفُ الآخر يهودي. إنه يسافر أيضاً، كما النساء، على مطيّته العسكرية، وهو حمار قصير القامة يكاد زغبه الكثيف الأشعث يتحول إلى فرو، وعلى فخذيه المتدلّيين لباس داخلي اتسخ من وقت طويل،

(1) هو الاسم الذي ظلت تحمله الإدارة المغربية.

يتجاوز الطرف القذر لجبتّه؛ وفردتا خُفِّه، اللتان بالكاد يمسك بهما بطرفي رجليه العاريتين تتمرّغان في العشب. ولا كلام. فقط بالكاد غمغمةٌ بشوشة لحظة الرحيل كانت بمثابة تحية، فهذا الخلاسي الرائع لا يهتم بمظاهر اللياقة العربية. لهذا فإن اجترار مضغة التبغ على الطريق منعته من الكلام. وهكذا بدا أشبه بسحنةِ ساحرةٍ ملتحيةٍ منه بساحر، بما أن الجنس يغدو ملتبسا في هذه المفارقات من القُبح.

كان الخدم والسائسون يشيرون إليه بالبَنان وهم يتضاحكون، وفي الساعة الأولى من الرحلة، قاموا بإضحاكه بمزحة شرقية ماجنة، مهنئين أحدهم بأنه كان رفيقا حقا لتلك الشخصية. يا لها من ضحكات رائعة تنطلق مجلجلةً من أفواه الرجال البرابرة وهم على بغالهم. كم يرنُّ ذلك بقوة في فرحة الفجر. كان صوت النوارس لا يزال يتعالى بمرح في السماء. ووسط الندى كنا نمرُّ من فرشة لأزهار شقائق النعمان والآذريون إلى فرشة أخرى من شقائق النعمان والآذريون. والخمرة اليافعة للربيع والصباح التي تخدّر حواسنا، بحيث تتخدَّر معها خيولنا أيضاً، فمرآى المراعي الممتدة على مدى البصر يثير هياجها. لذا فإنها تقوم لنا برقصات جامحة أكثر فأكثر بحيث ننتهي بالانصياع لهياجها. آه، يا له من من انطلاق للرحلة كرمية السهم. وفجأة بدا أن الأرض ترتفع وتقترب منا. ولم نعد سوى تحليق، وريح وسرعةٍ. التحقنا بكوكبات القافلة المتباعدة كما لو أنها لم تكن تتحرك، ومعها أهل الريف، والعسكري والدليل والأمتعة. ثم أصبحنا وحيدين، كومةً صغيرة مرمية في الأفق، قريباً من العشب الذي يمر بخطوط مسرعة، لا نعرف شيئاً غير الفضاء، وفي الضجيج المستمر للريح في الأذنين على إيقاع الخطوات السريعة.

***

في هذا اليوم الأول من الرحلة، في السابعة صباحاً، بدأنا الغور في بلد إفريقي شاسع، مديرين ظهرنا لركود البحر المحيط. هناك أولا منطقة رملية، لا تنتشر فيها غير نباتات الصبّار المدهشة. إنها قطعة من الطبيعة مستقلّةٌ استقلالا تاما عن بني البشر، لا تبلغ منتهى حياتها وكامل شخصيتها إلا تحت الشرر اللاإنساني للظّهيرة. بلَغنا طرف هضبة، فحاذيناها ونحن نشرف عليها لنلج منبسطا شاسعا كان يتعالى منه دخان التراب الخصب. ونهر اللوكوس

الهادئ ظل يستولي عليه كاملا؛ ومن الأفق حتى المصب الأزرق بالعرائش تتمدَّد حلقاته كما لو كان زاحفا غافيا. وثمّةَ فرشات ذهبية رمى بها الربيع تتهادى في المرعى، والرائحة المرّة والخالصة لزهور الآذريون تعبق في أنوفنا، ومعها نفحات لزجة من التُّرمس.

وفي مقابلنا، فيما وراء النهر، كان خط من الجبال يمتدّ فوق الأفق بموازاة مع الهضبة التي نسير بمحاذاتها. وتلك المويجات تتجارى إلى ما لا نهاية، وتتمدَّد وتتطاول الواحدة تلو الأخرى، كما لو كانت ظهور كلاب صيد في عزِّ متابعة الطريدة. ومن تسابقها الرشيق، المنطلق في امتداد الفضاء والنور، تنبعث السعادة والحياة على الأرض، على المدى الخصيب طوال أشعة الصباح.

حوالي الثامنة كنا قد وطأنا المنبسط وقطعناه بشكل مائل كي نلتحق بشط نهر اللوكوس. هذا النهر البحري يخترقه نبض المحيطات. ظللت تحت تأثير الدهشة من هذا النور الإفريقي الساطع، ومن مناظر المصبّ هذه التي لا ترتبط في ذاكرتي سوى بالكآبة الكدرة لبروطانيا وبلاد الكورنواي[1] cornouaille ، وبمناظر إنجليزية أخرى تنبض بالحنين. كان ذلك المكان ساخناً، ومنه ينبعث بخار تتلفَّع به العديد من النباتات الوافرة، والستائر من النباتات العارشة، ذات أوراق من الطراوة بحيث تخالها زمرُّدا خارقا أكثر مما هي أوراق الصّفصاف الصغير.

أحسستُ بعبير طبيعةٍ بكرٍ تمارس حياتها الرائعة في صمت، لأجل نفسها، في ركن من الأرض قبل الغزو البشري. طيور مائية طويلة الساق تقف على رجل واحدة، كل واحد منها منعزل في خليج صغير أو على أنف الجبل المطل على النهر، تنعكس على الماء شخوصُها الشاحبة ولا تنزعج لمرآنا. وقطعان البقر والماعز والخيل والشّياه والخرفان تائهة على الشط المعشوشب. كان فرسي يقودني بخطى صامتة في العشب طوال الشطّ المتعرج، عبر هذه الأسر من المخلوقات الأخوية.

وثبت معزة فتيَّة على الطرف المنحدر الوعر من شاطئ من الوحل تركه المدُّ. لم تستطع الصعود؛ كانت تبكي وتشكو مثل صبية صغيرة، وظلت أمها قلقة تذرع المكان على المنحدر،

(1) بروطانيا منطقة توجد في الشمال الغربي من فرنسا ولها لسانها الخاص بها. وكورنواي بلدة من بلداتها.

مسائلةً إياها، محدثةً إياها بصوت معبّر يكاد يكون بشرياً.

ثم ها هو من جديد مدى المرعى حيث تسرح دواب المخزن، من غير أن يبدو لنا راعٍ لها، كما لو كانت لا تنتمي لشخص ما. كانت تنتشر في البعيد في المنبسط الرعوي قطعانا وقبائل. وخلف كل دابة ذات قرنين يوجد نوع من أبي منجل، يسميه المغاربة «طائر البقر»، يتبعها خطوةً خطوةً، بحيث يبدو هشّا ورقيقا ومرتبطا بحلف قديم بهذا الحيوان المجترّ الثقيل. وكانت تلك الحيوانات تقترب من دربنا الذي يكاد لا يرى لكي ترانا ونحن نمر. تتوقف العجول الصغيرة عن القفز، و«طيور البقر» تلوي أعناقها الرشيقة باتجاهنا، والثيران تمد لنا خطمها، والماعز تبعر، والمهور تتوقف مرة واحدة عن ركضها المتهّور ذي الإيقاع المتكسّر كي تبدأ في الصهيل تجاه دوابنا.

نور صباحي متجدِّد يمتح طراوته من العشب الأخضر، جمالُ عالم يبدو كما لو أنه وُلد للتَّو. وعلى البساط المبرنق بالزهور الذي ظهرت به البادية اللامتناهية، كانت كل هذه المخلوقات البريئة ترعى وتحرس نفسها بنفسها. فكرت في تلك الصورة الساذجة للجنَّة التي كنا نشاهدها في طفولتنا، أعني الأيام الأولى من الخلق، قبل حدوث الشرّ، ومجيء الخوف، وقبل الموت، حين كانت الحيوانات والدواب تتكاثر بسلام وطمأنينة على الأرض، وكان فيها الرّب يتصور لنا في السحاب، ويفتح يديه ليُباركها.

***

عند الظهر وصلنا عند إخواننا من بني البشر. إنهم عبارة عن ستة أكواخ من القصب قرب أحد مصبات النهر، الذي يعود مجراه المقعَّر من هناك إلى وسط السَّهل. كان ثمة رجال عجزةٌ بِلِحىً وقورة يحدّقون فينا ونحن نقترب بسكينة ووقار الحكماء. كادوا لا ينزاحون عن الدَّرب الذي يعبر دَوّارهم[1]، وكادت دوابنا وهي تسير متوالية تلامسهم من غير أن يبدو عليهم الهلع. كانت عباءاتهم فيما مضى بيضاء؛ وبهذه العلامة نعرف أنهم ليسوا بربرا، فسكان هذا المنبسط ينحدرون على ما يبدو من قبيلة عربية استقرت هنا منذ الفتح الإسلامي. كان الصبيان يتجارون، وهم لم يتعلموا بعد المشية البطيئة للمسلمين. ذكروني بصبيان مصر، عراةً

(1) الاسم الذي يطلق على القرية بالمغرب.

مصفَرّين، برؤوس حليقة عدا خصلات طويلة، وببطون منتفخة وعيون يأكلها الذباب، حيث الأهداب ملتصقة بفعل رَمَد العيون.

هناك أقمنا مخيَّمنا. المكان هادئ ورائع، وهذه الحاجيات المتوارثة التي تتطلبها إقامة المخيّم، والتي ظلت هي هي في كل الأزمنة: الأوتاد التي تُضرب بالمطارق الخشبية، والخيام التي تُرفع، والقرية القماشية المتواضعة التي تتعالى فوق العشب، والدواب التي تُصَفُّ بالحبل. ثم يتم إنزال الحمولات، ونزع سروج الخيول التي أصبحت بسيطة مثلها في ذلك مثل سروج البغال، والجمهرة الصّبورة التي تنزل إلى مجرى النهر نحو عين الماء.

حوالي الخامسة مساء اكفهرت السماء بالغيوم فجأة، وأصبح الجو أكثر رطوبة. ثم حل المساء بأثر شمالي، مع صحوات شفافة وصفراء، ليستمر حتى الليل البهيم، في الفاصل القصير بين الخميلة الرمادية الكبرى وألَق الأرض المدلهمَّة. إنه تأثير آت من الشمال، لكن فيما حولنا كان ثمة فقط الشساعة والبرية الموحشة والتناغم الرائع لمنظر طبيعي إفريقي.

هبَّ نسيم رطب (فالمحيط لا يزال قريباً) على العشب الكثيف والغامق للمنبَسط، حاملا إلينا تلك الرّعشة السحرية لليل. وبدت السماء تنغلق رويدا رويدا، وضبابها يتحرك بإيقاع متساوٍ لا يفتر. وأصبح كل شيء يغدو ضبابيا في البعيد. وحول المخيّم كانت الدواب تنتظر أن يسدل الليل سُتوره كي تتجمع بعد يوم من الحرية في المرعى الفسيح.

رأينا نساء يمرُرن وهن صاعدات من الوادي، حاملات الماء اللازم لأشغال المساء. كن يتتابعن في موكب غامض في الظل، وظهورهن منحنيةٌ تحت ثقل القُلل السائلة بالماء. كن يربطن حمولتهن بحبل يمر حول الرأس، ويجرُرنها بالجبين كدواب مسترقَّة.

ثم ظهر موسيقيون متجولون جاءونا من دوّار آخر ويتأهبون لقضاء الليل هنا. كانوا من الهُزال والفقر بحيث يرتدون خرقا مخيطةً قطعةً قطعةً، غير أنها تتدلى من على أكتافهم في انسدال نخوة العباءات الرفيعة. إنهم يعتاشون من الحليب والدقيق والمبالغ الضئيلة التي يجود عليهم بها الناس في القرى، مقابل شيء من عزفهم. ظلوا يرقبوننا عن بُعد بسحنتهم الخجولة؛ وكان علينا أن نطلق نحوهم إشارات ودودة كي يقرَّ عزمهم على التقرُّب منا. وعند هبوط الليل، وفي المدى البدائي الذي تضيع فيه الأصوات، بدأنا نسمع موسيقى خافتة، والنَّقر على الأوتار

والزعيق الضعيف لمزمار القربة، وفيها تحتها النبض المعاكس، والإيقاع الشرقي للطبلة. إنها الموسيقى الطبيعية لرجال هذه المراعي، كما هي موسيقى تصادي الجرادِ للجراد.

توقَّفوا عن العزف، وسلموا علينا وداعا وانصرفوا، فرحين بريال منحناهم إياه (ففلاحو المغرب يعدّون النقود بالريال كما في بروطانيا السفلى بفرنسا).

أضيئت الخيام من الداخل. وصار كل واحد ينهي تنظيم مأواه لهذه الليلة. وبين هذه الحيطان من القماش، وعلى ضوء الشمعة الحميم، نسيت شيئاً ما الفضاء البهيم والشاسع في الخارج. كنت أقرأ وأحرِّر الرسائل متمنيا أن نصادف في الغد البريد المتجه نحو أحد الموانئ. ولدى ساسة البغال كان ثمة صوت يحكي حكاية جميلة. والحراس الذين قدمهم لنا أهل الدوار يأخذون أماكنهم حول المخيَّم، ليجلسوا القرفصاء على العشب ويصبحوا نقطا باهتة تكاد تنمحي في سواد الليل، كل نقطة متوحدةً مع نفسها لا تُبدي حراكاً. وبباب خيمتي الهشّة، كنت أراقب في العتمة شجرة هائلة تنتفخ على هوى الرياح الليلية. إنها شجرة هائلة تغدو رائعة أكثر لأن ليس لها من رديف، وهي المرشد الأساس للطريق بين العرائش والقصر الكبير في رتابة المنبَسط. إنها شجرة حور رجراج يرتجف لأقل نسمة برد، ويطلق حفيفه الحزين عند كل هبَّة ريح تمر؛ كنا نخمن شحوبها، وقشعريرتها الفضية. هي غمرة الحزن في الليل تعبر عن نفسها بتنهُّدات مستدامة...

نباح الكلاب لم ينقطع حتى الصباح. نباح الكلاب الصغيرة الهزيلة التي تقوم في النهار بالسكون والاختباء وفي الليل بالحركة الصاخبة، بحيث تتجارى بين الخيام ملاحقة كيانات خفية، وأشباحَ كلاب أتخيل أن العيون البشرية لا تبصرها. هذا الهرج يشكل جزءا من الأشياء المعتادة، والناس يشجعونه لأنه يبعد السارقين وقطاع الطرق الذين لا نرى لهم أثرا في النهار أيضاً. كم هي غريبة الحياة في هذا السّهل الذي يكون في واضحة النهار الصورةَ الكاملة للسكينة والطمأنينة، وفي الليل مليئا بحركة الكلاب والأشباح والسارقين!

وحتى أغير من حال أرقي، رميت بنفسي خارج خيمتي حوالي الثالثة صباحاً. ليس ثمة من نجم في السماء، وكتلة السحاب لا تزال تغلف السماء فوقي، والظلام البَهيم يعمُّ كل شيء. خمَّنت سرب دوابنا الساكنة عند مرابطها؛ ثم توقف النباح. لا ريب في أن الكلاب

أحست بوجودي، فالعيون كانت تطلق بريقها من كل جانب، وخيالها الغامض يمرّ في العتمة ويلامس مثلّثات القماش. كم يكون عددها؟ ربما كان أكثر من عدد سكان القرية، وكلها كانت في حركة دائبة هذه الليلة مشغولة بلقاء مقدس وعجيب للكلاب.

وفي البعيد، خارج المخيّم، وقعتُ فجأة على شيء أبيض انبثق بشكل غامض من الظلمات.... وما أن خطوت خطوتين حتى وجدت نفسي أمام آدمي. إنه عربي مقرفص في برنسه، وهو أحد الحراس الليليين الذين يتباعدون الواحد عن الآخر بخمسين مترا ويشكلون حلقة حولنا. تراجعتُ إلى الوراء، وكلي تأثُّرٌ للعثور على هذا الكائن المختبئ في العشب، الذي قضى سحابة ليله هناك، والذي تركني أقترب منه من غير أن ينبس ببنت شفة أو يحرك ساكناً.

***

5 أبريل/ نيسان. أخذنا الطريق في السابعة صباحاً. وقطعنا عشرين كيلومتراً خطِّيَّة في العشب، عبر السهوب الشاسعة ذات الخضرة الخشنة القريبة من الشحوب، كما مراعي بلاد الفلاندر Flandres بفرنسا. كانت السماء لا تزال متلبدة بالغيوم، وطبقة البخار ممتدة في الأسفل بمحاذاة الأرض، مغطيةً المنبسط الذي يبدو من تحتنا ساكناً ومتخشّعًا أكثر كما لو كان يريد أن يُنهي في صمت لاتناهيَ حياته النباتية. لا انطلاق اليوم لأسراب النوارس المشقشقة، وإنما فقط سلاحف صغيرة تعبر الممرَّ الرملي ببطء النوم الذي يلائم هذه الصبيحة الغائمة الفاترة.

وعند الظهر كنا قد تجاوزنا نهر اللكوس. نزلنا عبر ممرّ منحدر من جرفه نحو مجراه العميق. ثم عبرنا الوادي بتؤدة، والماء الموحل يصل للدواب حتى البطن، والقفف التي تحملها البغال ابتلَّت أطرافها، بحيث كانت القافلة بكاملها أسيرةَ هذا الممرّ بين جدران الصّلصال. هذه الأرض الخصيبة، وهذا الحفرة المنحدرة، حيث حركتان مائيتان محمّلتان بالطمي تتسارعان بجموح، والأخضر الرائع، تحت أشعة الشمس التي انبثقت أخيراً، والأحراش التي علقت بالحافة، كل ما يشي بالبلد الموحش على الشطّ الآخر، تبدأ أصقاع جديدة. فنحن بدأنا نقترب من مدينة القصر الكبير والمرعى تحوَّل إلى حديقة جميلة، إذ كانت فيه أشجار باسقة، جذوعها منغمسة في الزهور المتعالية. وعلى المرء أن يحدق جيداً في شعرها المنسدل على طول تلك

الأوراق ذات اللون الفضي المائل إلى الرمادي، كي يتعرف فيها على أشجار الزيتون، طالما أنها هائلة ومكونَّة من أفنان متشابكة. إنها أشجار زيتون ذات طابقين، وهي الأعظم التي وقعت عليها عيناي من بين الأشجار الكئيبة في هذه الجنان. حينها تبدأ البساتين، تلك الجنان التي تبسط هدوءها وعطورها حول المدن العتيقة في بلاد الإسلام. منها تلك المنتشية بأشجار اللوز المزهرة، بجموع من التويجات لا أثر للخضرة فيها، خفيفة كتحليق تتعلَّق به الورود والفراشات المنيرة. وبساتين أشجار البرتقال، بأوراقها البسيطة اللامعة التي تشبه زهور شجيرات الدفلى، وزهورها البيضاء التي تكفن البادية القاسية بعذوبة لدنة.

وها نحن بمدخل مدينة القصر الكبير القديمة والمتداعية. انمحى العشب، وعلى أرض محدودبة تنتشر الأراضي القفراء، وتتعالى البقايا المتآكلة للأسوار؛ وثمة أقواس جبسية لضريح ولي، وقبب متآكلة، ثم بيوت مهجورة، كما أتخيل، من زمن بعيد، وقضبانُ نوافذها الصغيرة تتراكم عليها شبكات العناكب. وأخيراً قببٌ وصوامع متداعية. وكل ذلك من التراب اليابس، في شكل آجر عربي متراص بشكل متقاطع كما التواريق، وكم هو قديمٌ هذا الآجر ومنفصلٌ بعضه عن بعض! إنه ذو مرآى هشّ وليّن مثل آنية فخار تآكل برنقها؛ وكل ذلك مصنوع من المادة المقدسة نفسها وقد أعادت القرون طبخَها بلون الأجراف نفسه.

-4-

5-6 أبريل/ نيسان. إنها مدينة محتضرة من مدن الريف المغربي، وهي بقايا فاترة وجزئية من الماضي العربي العظيم. وأغلب أزقتها تعود للوقت الذي استقر فيه العرب في ضفتي البحر المتوسط فكانوا أيضاً أوروبيين. وبيوتهم الإفريقية كان لها جبهة مثل بيوت طليطلة وغرناطة. لم أكن أتوقع أن أجد في مدينة إسلامية كهذه، عوض السطوح الجيرة، هذه السطوح المثلثة من الآجر، الشبيهة بأقدم بيوت مدننا العتيقة بالجنوب الفرنسي كمدينة آرل Arles وإيغ مورط[1] Aigues-Mortes، لكنها سطوح ذابلة مثلها ومتمازجةٌ في منظر الغبار نفسه، ولها نفس اللون الوردي الجاف والشاحب الذي يغلف المدينة بكاملها بالقشرة نفسها التي أعدم الدهر طابعها المستوي.

واليوم أصبحت هذه المدينة مدينة اللّقالق بالأخص؛ ففي كل شتاء، تعود من البلدان النصرانية وتأتي هنا لتستحم بأمطار سماء إسلامية. ليس ثمة من واجهة بيت، ولا شقّ لم تُقِم فيه تلك الطيور الكبيرة عشها بعظمة وبهاء. ولا يمكننا أن نرفع أعيننا من غير أن تقعا على منقار طويل، وسيقانٍ وشبحٍ كبير ينعكس عالياً في الفضاء، أو عليها نائمةً لا يظهر منها إلا نصفها من وسط قفَّة كبيرة مِن الأحراش.

اللقالق هنا هي الكائنات الحية الوحيدة مقابل غفيان بني البشر وخمولهم. هذا الشعب المسكين الجامد يندثر في البؤس والتعفُّن وفقر الدم، والتطيُّر الوضيع، أي في حياة أجدبتها إدارة قاتلة، وإرادة أُعدِم فيها المجهود بالنّهب والسلب الذي يمارسه العمال والقواد، الذين لا يُنَصَّبون هناك إلا لذبح الآخرين. هذا الخمول لا تخطئه العين. والأزقة التي لا يوجد بها حتى بلاط الحجر العربي البدائي، عبارة عن دروب تتجول فيها ببطء مدهش أشكالٌ إنسانية مغلفةٌ بالعباءات. وهنا وهناك امرأة أكثر تَواريا من ميّت في كفنه، ورجل ذو مشية خاطفة بلا هدف، لينتهي إلى الارتخاء في الغبار. وفي كل مكان من هذا الغبار هناك مآثر الموت، وأضرحةٌ عتيقةٌ من الآجر والجبس المتشقّق، وكلها أماكن للصلاة والعبادة يزورها بعض المؤمنين؛ ذلك

(1) آرل وإيغ-مورط مدينتان تاريخيتان في جنوب فرنسا.

أن الإسلام هنا فقد حرارته وبساطته الأنوفة. لقد أصبح دينا شعبيا مليئا بالعبادات وأنواع الحج والزّوايا والكرامات. وموضوع التعبُّد لم يعد هو الخالق وإنما الولي الصالح الذي اتحد بربه، وهو عبارة عن شخص هستيري ومجذوب يكون صاحب كرامات ماهر يبيع كراماته ويترك لسلالته البركة التي يتاجر فيها هؤلاء بدورهم. وهكذا ينتشر التصوف في شكل سحر وطب إفريقي، هو الآتي من دون شك من الهند الوثنية عبر بلاد فارس والأسكندرية. وخلف سياجات الزوايا تسود الأمراض العصبية والتنويم المغناطيسي، التي تعالج بالجذبة والصراخ والموسيقى المهيِّجة، كما بالنشوة التي يوفرها الكيف[1]، وبكل ما يثير ويهيِّج ويخدر ويرمي بالإنسان خارج وعيه في النشوة الصوفية. وفي زقاق منعزل، حيث غامرت بنفسي، كان ثمة صخب متواتر يأتيني من وراء جدار ويثير فضولي. الأمر كان يتعلق بحفل شباط يهودي صاخب بالعزف والطبول. واجهتني باب من الخشب؛ كانت مغلقة، غير أنها من التآكل (كما كل شيء في القصر الكبير) بحيث استطعت أن أراقب من شقوقها ما يحدث في الداخل. أبصرت بباحة فسيحة، مكتظة بجمهرة من الرجال كانت تبدو عليها علامات اللَّعنة: شيوخ وشباب أغلبهم ضامر، متلفعون بعباءاتهم الداكنة المرتَّقة، وأيديهم في حركة دائبة، وعيونهم لامعة من الهذيان. كانوا يتزاحمون في حلقات ورؤوسهم كلها تهتز مجتمعة بشكل مدوِّخ، مطلقين أصواتا «هو هو» هائجة وجفّاء خلال غوغاء الآلات الموسيقية والطبول. وفي مركز الحلقة مجنونان يتمايلان في جذبة متشنِّجة.

لا شك أن قفزات من هذا القبيل تهدُّ الأعصاب وتنهكها. والعيون التي ألهبتها الحمى تخبو أكثر؛ فالحياة في هذه المدينة العليلة تختزل نفسها في هذه الهياج التناوبي الراقص أو الوجد الزنجي. والقصر الكبير مدينة لا تقدم لي سوى صور الانحطاط الأشدّ بؤساً. يا لها من وجوه، ويا له من سلوك متعب في عتمة السوق المتشبع بالروائح القديمة لخشب الأرز والمسك وماء الزهر، وتحت الأشعة الزرقاء للشمس، التي تصفّيها القبة المثقوبة! شحوبٌ خالٍ من الدم ليهود كئيبين، رخاوةُ وكسلُ المسلمين. وقرب القُفف، عقاقير بائعي العطور، وقطع الحديد البدائية للحدّادين، والمنتوجات الأكثر وضاعة لمصانع أوروربا كتلك التي يُتجوَّل بها في عربات باديتنا الفرنسية. وتباع في هذه الدكاكين أيضاً مواد السّحر، والإكسير

(1) نبتة تزرع بشمال المغرب وتنتج مادة تدخن بالغليون، كما تنتج أيضاً مخدّر الحشيش المعروف.

والطلاسم. وتوجد فيها عناصر الرعب الغامضة. وتحت أرضيتها، في ميزاب وضيع يمر من هناك، يسكن الجن من جميع الأصناف والأنواع. هناك الذكور منهم والإناث، ومنهم الصُّفر والبيض، بل هناك أيضاً الزنوج منهم واليهود. وهم يعرفون أسماء قبائلهم وسلاطينهم: أبو شامة، أبو يودي، سلطان الجن شمهروش. كما لهم أعيادهم والمعتقدون فيهم، وكناوة[1] الذين يطردون الجن من المرضى، ويكوّنون طوائف غريبة بمقدَّميها وأضرحتها، وأوليائها الصالحين. والجن اليهودي «سيبابوين» صعبُ المراس. وللتأثير فيه، يسكر الإخوة بماء الحياة ويتهيجون بالجذبة ثم يهجمون على القاذورات ويلتهمونها ملء أيديهم.

هذه الأمور البئيسة حكاها لنا الفرنسي الوحيد الذي يعيش بالقصر الكبير منذ خمسة عشر عاماً، وهو معرَّبٌ كلية، بل عربي بشكل أروع من العرب المساكين حوله، بوشاحه الناصع وصوته الجهوري، والحركة النادرة العربية لليد وهي ترتفع عارية خارج الأثواب الموصلية المسدلة. إنها يد تتبع التعاليم القرآنية، لا تحمل إلا خاتماً من الفضة. كان يفصح لنا عن تلك الإنسية العليلة والمنهوكة، وعن بؤسها العميق، والعهر المتفشي فيها بين النساء (اللواتي يستنبط الخليفة منهن حصته من المال)، والرعب الذي تثيره حملات قبائل الخُلطيّين، وبنادقهم في أيديهم، حين ينزلون من جبالهم لمحاصرة حارة من الحارات ونهب أموالها وسبي فتياتها. كان يفصح لنا عن عزلته، وخواء المحادثات مع الأهالي. ومع ما يمكن أن يتسم به هذا المقام من حزن، فقد اعترف أنه لن يستطيع أبداً العيش في أوروبا. أحياناً يحاول أن يمنح لنفسه عطلة، غير أن حنينا غريباً يعيده بسرعة إلى تلك المدينة المغربية الصّغيرة المحتضِرة.

ثمة جاذبية ممهورة بالسكينة والكآبة تنبعث من هذه الأشياء كلها في الحضارة الإسلامية التي تسير بهدوء نحو الموت والتي يغلفها الزمن بغباره البطيء، من هذه المساجد الصّماء التي تنحشر بين الصُّبار والزهور، ومن هذا الشعب الخامل في غفوته، بحيث تغمر الأوروبي بالبهجة؛ وهكذا يبدو المجهود الجبار لحضارتنا كله بلا جدوى. إنها حضارة تبدو كحلم منهك، ولعبة صبيان نافلة. تماماً كما لو كنا في حديقة مظلمة، نرى من وراء زجاج نافذة حركة راقصين على إيقاع موسيقى لا يصلنا منها شيء. أي حلم هم يلاحقون ويجعلهم في

(1) زاوية ذات أصول من بلدان غرب إفريقيا، أي ما كان يعرف بالسودان. وقد أفرزت موسيقى ورقصا يعرف بهذا الاسم لحد اليوم.

حركة؟ الحقيقة توجد خارج هذه الجمهرة من الناس وحركتهم الدائبة، في سكينة وهدوء هذا الفضاء الفسيح، خارج حلم المسرنمين هذا. ذلك هو الاقتراح الصامت والخادع لهذه البلدان الهادئة المشرقة، حيث إننا بين الناس الذين ليسوا سوى أشباه أحياء، نحسّ بالروابط اللازمة تنحلُّ، ومعهما كل ما يتَّصل بالمجهود. يا لها من رغبة لدى هؤلاء الناس في عدم قياس المدة الزمنية، وفي التَّيه في التوالي المتكرر للساعات، والخمول مع مجمل الأشياء في النور والسكون. هذه الصوامع المهجورة هنا وهناك في حقل من الزهور، وفي غبار مكانٍ خلاءٍ، وتلك القببُ المتداعية التي تتعالى شيخوختها في الأفق الطريّ، كل تلك الأشياء تتحدث إلينا، وتذكّرنا بحكمتها، المتمثلة في عدم المقاومة وفي الاستسلام، وترك الزمن يفعل فعله، هو الذي أوصلها إلى الشيخوخة حيث تبدو جميلة، وسيوصلها إلى الموت حيث ستحسُّ بنفسها أفضل. وهذا الأفق السماوي، ألن يكون ذا طابع أكثر ربّانية إذا هم لم يتحركوا؟ ففي الجمال الساكن للعالم، يكون الشباب الأبدي هو الفرحة الوحيدة المطلقة. وهذه الفرحة ستكون هي نحن إذا ما عرفنا كيف ننسى أنفسنا، وكيف نصمت ونتأمل. والحجر الشائخ لهذه الأسوار وتلك الأضرحة، انظر إليها كيف تتغلَّف وتخترقُها وضاحة الصّبيحة بعد كل فجر.

أحسست خلال مقام طويل في مصر، أرض الشمس والموت، أن الزمن يتوقَّف في النور. ففي مرتع الأبدية ذاك، وبشكل مخالف لما هو هنا، ينمحي الوهم المخصوص المركَّب الذي يثير الهواجس في نفسية الأوروبي، ذلك الحلم الذي لا علاقة له أبداً بلانهائية الصمت، حيث سندخل لتوّنا. لكن، في كل بلد من بلاد الإسلام ، يبدو الموت هيّنا وأخويا، ويُقدَّم لنا في قلب طبيعة ساحرةٍ مآثرُها وصورُها. ونكهة زهرة اللوتس التي نقطفُها هناك هي عبقها السحري. ولكي يكون للجاذبية الغريبة أثر، على المرء أن يكون وحيداً وينتظر كثيراً، وألا يغير مكانه. أما في مدينة القصر الكبير هذه، والتي أعبُرها فقط، ليس لي الوقت لتلقي تلك الجاذبية، ومع ذلك، خلف بؤس هذه المدينة الصغيرة التي تمثل الانحطاط المغربي وكل ما يقرَف من التجديد الأوروبي، أنا أتعرف جيداً على أماراتها. إنها تتمثل في الأزقة المتعرِّجة العميقة... والنساء اللواتي يمررن لصق الحائط أكثر تدثُّرا من الراهبات، وأشكالهن الغامضة تمتزج بجير الحيطان. والصوت المتهادي والمهدِّئ للمؤذن، الذي لم يتغير مع الزمن، يحلق فوق المدينة كنشيد للسلام الدائم. الإنسان ينشد كما في الحلم. والصوت لا يحمل شيئاً شخصيا، بحيث

نخاله غريباً عن المنشِد وأنه يأتي من بعيد. إنه في بطنه يخرج من ماضي الأجداد، بحيث يكلم الموتى الأحياء من خلاله لطمأنتهم وتنويمهم...

أصبح النهار باهتا ونحن نتوغّل في البساتين عبر مسلك من الغبار والوحدة. هنا يغلف السّكون والسكينة هذه البساتين المزهرة، بين قبب الأضرحة التي فقدت لونها. إنه مساء ذهبي، والأطلال، وروائح الأرض، والفرحة الغامرة العجيبة للربيع بخدره الرباني، وفي كل مكان ثمة رطوبة الرحيق المنبعث...

الحياة لا تنفك عن الحدوث، كما هي دوماً، في الحاضر الذي لا يمرُّ زمنُه. رجعتُ من مسلك الغبار والوحدة كما لو كنت أثيرا منيرا في الذَّبذبة العامة للَّهب، أي ما ينمحي في الموت ويتكرَّر في اللحظة نفسها. يا له من انطلاق مدهش لثلاث نخلات خلف جرف، في حقل الباذنجان البري، تنبثق من وراء صومعة مهجورة فقدت طلاءها! أي طاقة خارقة تنتظم إشعاع سعفاتها المزخرفة وتعلِّقها في الأعلى!

هذه الصومعةُ العتيقةُ لم تهُجر كليةً. فوقها يعشِّش لقلق، وفي قمتها ينبثق ويبدو عملاقا في شفافية الأصيل. وهناك أرى الكثير من تلك اللقالق التي تشبه شعباً خرافيا. والمدينة خلف البستان تتقطع على الأصيل الذهبي؛ وكل برج وكل قبة، وكل نقطة عالية تنتهي بشبح طائر كبير يقف على عشه الهائل. هذه اللقالق، وهذه الأعشاش، وهذا المساء الربيعي المحنَّط، أليس كل هذا حدثا من أحداث الماضي؟ هل حقا كل هذا شيء آخر غير الماضي والأمس؟

***

كنا نعسكر على منحدرات من الأعشاب الصغيرة في هذا الحي الآهل بالبساتين. لم أستطع النوم بسبب رائحة البرتقال التي كانت تلج الخيمة وتركِّز فيه عبَقها لتطردنا خارجا. وهكذا عشت تقريباً ليلة بكاملها يسهر عليها البدر والموسيقى. مرت ساعاتها، كل واحدة أكثر سرية من الأخرى، تعيد صياغة العالم بشكل أكثر إلغازاً.

كنا نستنشق بلذة أريجَ الهواء الذي تتناسل نسماته الخفيفة، والذي أصبح دافئا بفعل تقدم الربيع. أصبحت زرقة المدى منسابةً، وفي هذا البحر من الهدوء والسكون يوجد الهلال الغريب الذي لا تعرفه شعوب الشمال، هلال البلدان الإسلامية، ممتدا أفقيا في الفضاء

وطرفاه مرفوعان في المستوى نفسه كما لو كان زورقا من نور. وهذا البدر المختلف يجعل من الليل أكثر غرابة، فقد كنا نخال أننا نتأمل هذه الأشياء للمرة الأولى: السماء والأرض في الليل والليلة المقمرة. ومعناها بدا أكثر تأثيرا وربّانية.

لم تكن الأرض جامدةً. من حولنا في البساتين المحاذية كما بعيداً في الجبال والسهول كان البدر يحلم في زرقة الليل، ويطلق همساته وغناءه بالأصوات كلها. عددٌ لا نهائي من الحشرات يطلق صريره في شكل رنّات فضّية، فنميز جيداً القريب منها، كما لو كان قشعريرة خفيفة تتحرك شيئاً ما، ليقطعها صمتٌ قصيرٌ وتستعيد من جديد حركتها. لكن هناك في البعيد، كانت تتمازج الملايين من الأصوات، لتمتدَّ في مستوى صوتي واحد لامتناه، كما الصفحة، صفحة الأرض الحالمة والمنشدة.

وعلى هذه الخلفية التي نفقد في النهاية صداها، تبرز الموضوعات المختلفة للكائنات الحية الأخرى. كان ثمة النَّقيق المستمر الذي لا يحصى للضفادع والذي يتحول إلى نداء، وينتفخ كما لو أنه يقترب منا فجأة، حانقا من التَّضاعيف الجماعية للرَّغبة. وهذه الحرارة المفاجئة كانت ترجرج الليل حتى النخاع. لم تكن تلك الأصوات تأتي مرةً واحدةً من كل صوب كما صرير الحشرات، بحيث يميز فيها السامع بين شعبين مختلفين، يتوقف أحدهما لينصت للآخر. يا له من تأثير وجداني في هذه الجلجلة الليلية للشَّراغيف في هذا الربيع الساخن للبادية. إنه صوت الحب العنصري الذي يستفيق مرة كي ينشد شهوته العارمة والبسيطة في الحياة.

كانت هناك أيضاً النبرة الفريدة للضفدع البري، التي كانت صافية صفاء تاما، متحلِّلة بحيث تشبه نبرات الهارمونيكا: «أوت، أوت، أوت»، ودائماً هي هي، من لحظة لأخرى.

وفوق المخلوقات الزاحفة، كانت الموجودات العليا تتحسَّسُ الليل وتعلق على وقاره الصارم. وكانت الشحارير في الأفنان البخارية لأشجار اللوز تتصادى من بستان لآخر، بمحاورات تتخلَّلها الوقفات والخشوع. كان غناؤها المستمر القوي يعبر عن سيادة لا يبلغها هذا الطائر الجني في فرنسا إلا في منتصف مايو/ أيار بعد أن يكون قد مارس الدُّربة أسابيع كاملة.

7-14 أبريل/ نيسان. حين تركنا مدينة القصر الكبير التي وصلناها بسرعة، كان ذلك إحساسا حقيقياً بانطلاق السفر، سفر أعالي البحار الذي لم يقم حتى حينها سوى بمحاذاة الساحل ليأخذ جهة أعالي البحار.

باتت تفصلنا عن مدينة فاس ثماني مراحل أو محطات. مرت ثمانية أيام بسيطة كل البساطة وروتينية بحيث تكاد تختلط ذكرياتها. أغلب مراحل السفر كانت تمتد في منبسطات فسيحة ومتشابهة، مع أنها كانت أراضي مختلفة، كل واحدة منها بنهرها ويفصل بينها وبين ما يليها ارتفاع هام في الأرض. إنه تموُّج متوتِّر من الغرب نحو الشرق، قضينا في عبوره ثلاث أو أربع ساعات. وسواء كانت تلك الأراضي منبسطة كبركةٍ راكدة أو مرتفعةً، فقد كانت الأراضي نفسَها، رائعةَ الرطوبة والخضرة، بلا أشجار ومن غير ربيع سوى ربيع الحبوب والعشب المزهر، ومن غير عبَق غير العبق المرّ لزهور الآذريون، ذلك أن زهور اللؤلؤ والسَّوسن وشقائق النعمان الحارقة ليست متعة سوى للأعين. الربيع الحقيقي الذي يخدِّر الحواس تركناه وراءنا في بساتين القصر الكبير. لكن سعادة النورس لم تكف عن التدفّق في السماء. باتت غير مرئية، منصهرة في هاوية النور، فلم تعد غير روحٍ فقدت جسَدها، وغير بهجةِ الصباح المتذبذبة المليئة وجداً.

كل يوم كنا ننهض في الفجر، حين تبدِّد مياهه البيضاء الليل تدريجياً فتبدأ في تغليف النجوم. حينها يدخل خادمي رأسه تحت الخيمة لينادي‌ني، ثم يتسلَّل إلى الداخل بكامل جسده، ويبدأ بإشعال الفانوس. علينا بنظافة الصباح، وارتداء لباسنا على ضوء هذا اللَّهب وفي قشعريرة الفجر، وأرجلنا في العشب والزهور التي حبسناها معنا في الخيمة. والسّاسة يسرعون في تحميل البغال. وإذا ما أنا تأخرت، يبدؤون في نزع أوتاد الخيمة وجمعها. وها هي الخيمة في الأرض كشيء هُلامي، منبطحةً على العشب، تصطفِق وتطفو مع ريح الصّباح. إنه انطباع حزين ينتابني وأنا أفقد هذا المأوى المؤقت. أنهيت ارتداء ملابسي وأنا أقشعرّ تحت الشساعة الباردة للسماء التي لم تستنِر بعد إلا بنور حديدي. وها هي السّماء والمنبسط القفر

يخرجان من الليل البهيم: يا لها من شساعة لا يمكن للإنسان أن يتصوّرها! يحس المرء نفسه ضائعا وسط الأفق الدائري، في قلب فوضى المخيّم الذي تجمع خيامه: ثمة أقمشة منزوعة نصفيا تصطفق في الريح كأشرعة سفينة غارقة، وحقائب السفر مُشرَعةٌ في الأرض؛ وفي فوضى عارمة على العشب البلول يوجد الأثاث المتواضع المترحّل مع الكتب والدفاتر، أي كل ما نملكه في الدنيا في تلك اللحظة. لكن نظاماً جديداً سوف يأخذ مكان الفوضى الموحية بحالة من النهب والسّلب. لقد بدأ الدليل الرئيس، الفخور بخاتمه وسرواله الأصفر، يصرخ بأوامره العربية. والعسكري المشعوذ الرهيب حزم على جبهته حزام عُبّه الأسود؛ ظلّ يغمز بعينيه، واقفا أمامنا في عباءته، مُغمغما لنا بتحيَّته الصباحية. تلقت البغال حَمولتها الواحدة تلو الأخرى، وأسرج الريفيون الخيول. ها هم يشدُّون المهاميز ويغلّفون رؤوسهم في بياض «الرُّزَز»[1] التي سوف تصلح لهم فيما بعد لاتّقاء حرِّ الشمس. ثم جاء الشاي الساخن عزاءً لنا، فيما كان الفجر يتحوَّل إلى صباح مبكّر، وموجة من الحمرة القانية تنشر رعشة الحياة في الفضاء. وفي اللحظة التي قذفت فيها الشمس بأشعتها الأولى، غمرتنا الفرحة في القفز على مطايانا والإحساس بأفراسنا والقيام بخطواتنا الأولى باتجاه الأفق.

ولعلَّ الصباح الأول هو الأجمل من هذه الصباحات في دوّار خير الدين، في منتهى الجبال التي عبرناها أمس منذ القصر الكبير. كانت قريتنا القماشية تعتلي المنحدر الأخير من هذه الأعالي. وتحتنا منبسطٌ فسيح متقعّرٌ بعض الشيء، يمتدّ كما لو كان صحنا، وجوانبُه ترتفع تدريجياً نحو الأفق الدائري. وخلفنا على التلَّة سطوحٌ مقببةٌ من التّبن تنبثق من سياج الصّبار، وكل واحدة منها عليها عشٌّ من الأغصان يمتد فيه شبح لقلاق راقد. وفيما فوق هذه الأشياء الداكنة، دخان أزرق يتبخر في الهواء البارد الذي لا يصله بعد خدر أيّ شعاع شمس.

قرب المخيَّم كان يحدّق فينا أناس الدوار منكمشين في برانسهم الممزقة، وأذقانهم على ركباتهم، مصطفين وجامدين بلا حراك، بحيث نخالهم عصافير تصطفُّ في الشتاء على حبل تلغراف. إنهم يقشعرّون بردا، ويدهم الباردة ترمي من تحت، على الكتف، بعضا من الثوب البئيس الذي يمسكون به ممدودا على الفم، بحيث لا نرى سوى جزء شاحب من الوجه، وعيون تبدو لوحدها الشيء الحي في هذه المخلوقات، تراقب ما يجري حولها. ولا كلمة يُنبس

(1) جمع رُزَّة وهي سماطٌ من الثوب عبارة عن كوفية.

بها. إنها كائنات رمادية في صباح رمادي.

حولنا كانت القطعان تنتشر. وشيئاً فشيئاً تظهر مجموعاتها بعيداً في المنبسط، بمقدار ما يتقدَّم النهار، ويتجمع في الغرب لون وردي فاتح. إنها في كامل وضعياتها، جاثمة أو جامدة، تمتزج بمساحة المرعى الذي لا يزال من دون لون.

لكن، حين اقتربت لحظة بزوغ الشمس، وحين أحسسناها ترتفع في الأفق وينتشر النهار بموجاته، تستفيق الحياة على الأرض الخضراء وتتوالد. ثمة قُطعان متناثرة تطلق ثُغاءها وتبعَر وتهمهم، خاصة منها الثغاء الباكي لصغارها التي تضرب ضروع أمهاتها كي تتعلق بأثدائها. ومن منصة شجيرات الصبار خرجت أخرى كانت محبوسة هناك في الليل: قطيع كبير من الماعز الصغير كان يرغب في التوقُّف لينظر ويسائل ويصرح بما يفكّر فيه بصدد هؤلاء الأجانب الذين احتلوا مرعاها. لكن راعيا كان يدفعهم، كما لو كانوا صفّاً من الصبيان يتوجهون للمدرسة.

رجَّةٌ من النور في طرف المنبَسط البعيد، ثم رأس لهيب يقترب، وأخيراً ها هو الكوكب المتوهج الناعم ينبعث. وفي لحظة واحدة، انغمس العالم الشاسع حوالينا في أشعَّة الشمس. وطالت ظلالنا الشاحبة على أبسطة من الأفكار التي ترمي قلوبُها البليلة فجأة نيرانا من الماس. وبالسرعة نفسها بدأ الندى ينشف في شكل بخار. وتراخت القُطعان التائهة، وتداخلت أصواتها المتكاثفة، ثم ها هن نساء القرية يمررن في الضباب، في موكب يشبه حاملات القرابين في التّوراة. كنَّ الواحدة تلو الأخرى، وقلَلُهن الصّلصالية على الرأس مستقيمةٌ كما الثياب المتهدِّلة عليهن، رائحاتٍ للسَّقي من العين المجاورة.

كانت الخيام قد جُمعت، وبدأ الاستعداد لربط الحمولات، حين جاء رئيس هؤلاء الحراطين[1] وهو أحد محميي فرنسا[2]، يقدم لنا هدية فلاحية من الدجاج والسّمن ستنضاف لمؤونتنا. لقد كانت لدينا رسالة مبعوثة له تخص الاهتمام بنا؛ فالفرنسيون يجدون الكثير من أصدقائهم من بين هؤلاء الرعاة الذين يعانون من الفوضى المغربية ولا يستطيعون رعي

(1) العبيد المعتوقون.

(2) يعني المؤلف هنا الحماية التي كانت فرنسا تمنحها لبعض الشخصيات من التجار وغيرهم قبل عقد الحماية الفرنسية على البلاد سنة 1912.

قطعانهم في أمان وسلام. ونحن لا نمر أبداً من قرية لا يأتينا شيخها لزيارتنا زيارة لياقة ويمنحنا أحياناً خروفاً، ودائماً البيضَ والحليب. إنه عجوز ضالع في الشيخوخة ويكاد يكون أعمى. وهو بادي الوقار في ثيابه البيضاء الناصعة وببياض لحيته الكثَّة. بالأمس، ما أن أقمنا مخيمنا هناك، حتى خرج من الدوّار محفوفا بابنيه للسلام علينا والاحتفاء بمقدمنا: إنه أشبه بإسحاق مرتعشاً من فرط الشيخوخة يتبعه إشعياء ويعقوب. والأمر نفسه اليوم كما البارحة: تحيات رسمية شرقية، بحيث يحمل الرّجل يديه نحو قلبه وشفاهه، تتبع ذلك كلمات ورِعة، ومتمنيات بلاغية يتخلَّلها اسم الله الرحمن الرحيم.

***

إنه يوم سفر بطيء انتقلنا فيه من منبَسط لآخر، فوق الثنايا المتماوجة التي تفصل بينها، إلا هنا وهنالك، حلقة من شجيرات الصُّبار ذات الأشواك، حيث تتاورى أكواخ آدمية وضيعة وواطئة، وأعشاش كثيرة للقالق. البلاد هنا أقل هاجِرة من جنوب فرنسا. ليس ثمة من انبثاق للصخر في عزّ الانبساط المعشوشب، يمنح للطبيعة ملامح الرقة والقوة. إنها أشبه ببلاد نورمانديا الفرنسية لكنها أكثر شساعة، بتموجاتها ذات الإيقاع المركز وبانعدام الشجر فيها. وما يبقى هو أرض رخوة وممتلئةٌ، حيث ريح المحيط الأطلسي لا تسهر على الروائح العطرة كالزعتر والعرعار، وإنما على غطاء عشبي كثيف دائم الخضرة، وحقول قمح تنبت بسهولة، فهذا العشب ذو البريق اللامع لا يزال اليوم طرياً. إنه قمح يكاد يكون برّيا، بحيث يكفي الإنسان أن يخدش الأرض ويترك الحبوب تنفلت من يديه كي يكون الحصاد هنا مضمونا.

تمتدُّ تلك الحقول على مقربةٍ من القرى، تفصل بينها مناطق فارغة تسود فيها الزهور والنباتات العلفية. وثمة نبات اللّبلاب في كل مكان، والآذرون بفرشات ممتدة امتداد البصر، والأكوام الزرقاء أو الذهبية للتّرمس التي تطلق عبقها الدافئ، وشقائق النعمان الأكثر تواضعاً التي تحترق في خفاء تويجاتها النارية غير المتفتحة تماماً في بهائها الأخضر المسنَّن. أما فورة السَّوسن فقد انتهت، إذ يبدو أنها قد غلَّفت الأرض من أسابيع قليلة بغطاء بنفسجي راعش. وعلى ضفاف الوديان، في سفوح التلال، لا تزال سيقانها الواقفة تصفر، وبذورها انتهى ذبالها في شكل كوم من الحرير البنفسجي.

ظللنا نسير صباحات كاملة من غير أن نصادف طيف إنسان. وإذا ما لاقينا قافلة فذلك هو حدث اليوم. وهي تكون قادمة دائماً من مدينة فاس، وتسير باتجاه مدينة طنجة. تجارٌ عرب، وشخصيات محترمة تكون وجوههم الشاحبة محاطة بلحى سوداء. يمتطون بغالهم في سكينة، مرتدين جلابيب كستنائية مشمَّرة فتكشف عن سراويل ترفع حتى تدخل الأرجل في المهماز القصير. إنهم يبدون كقُسس المسيحيين في دوراتهم التّبشيرية. وهم يسافرون جماعةً من باب الحيطة والحذر، بحيث ينتظر البعض منهم البعض الآخر للرحلة جماعةً. وأحدهم رافقته زوجته، وهي عبارة عن رزمة بيضاء عجيبة، ذلك أن نساء البورجوازية الحضرية يتحجَّبن بشكل أكثر صرامة من البدويات[1].

مررنا أمام معسكر. في الصباح الباكر، كان ذاك المعسكر يبدو من بعيد على التلال وفي الأفق عبارة عن نُثار من النقط الشاحبة، ثم بدأنا نميز معالمها مع مرور الساعات وهي تكبر أمامنا. والآن، استطعنا التعرف على خيمتين مخزنيتين[2]، مزوَّقتين بمثلثات سوداء، وحولهما الخيام الصغيرة من القُماش حيث يأوي الخدم. يبدو أن قائداً[3] قد توقف هناك، ورئيس قبيلة يمر من قرية إلى قرية لجباية الضرائب للسلطان. إنها عملية محفوفة بالمخاطر، بحيث يحدث أن يسمع المرء طلقات البنادق، في الوقت نفسه الذي نرى الدخان يصعد وسط الخضرة الداكنة التي ترسمها شجيرات الصبار في أحد الدواوير على قمم التلال. ومن يؤدون الضرائب هم الذين يستقبلون الجابي. وعلى بعد فرسخين من هناك، سقط جريحان وقُتل حصان في القرية التي حططنا بها الرحال طيلة العشية، مما يعني أن هذا الدّوار لن يدفع الضرائب.

وفي أحد أيام السبت، صادفنا مجموعةً متواضعةً من اليهود معسكرة في جنان من أشجار الرّمان البري، لأنهم لا يسافرون يوم السبت (الشباط). ومن حينها رافقوا مجموعتنا الكبيرة، حتى يتمتعوا بالحماية التي نتمتع بها، حين سيكون علينا عبور البلاد الأقل أمنا الممتدة فيما

(1) هذا ما يؤكده قبله شارل دو فوكو Charles De Foucauld في رحلته، سنوات قليلة قبل ذلك، التي سماها: «التعرف على المغرب». وهو ما يعني أن المعلومات عن البلاد يستقيها الرحالة أيضاً من الكتب التي نشرت عن المغرب بالرغم من قلتها.

(2) تسمى الخيمة المخزنية لحد الآن بالخيمة القيادية نسبة إلى القائد، وهي ذات أعمدة عالية ومزخرفة من الداخل والخارج بالأقواس والتواريق، وتعتبر علامة على الرفعة والسلطة بحيث تستخدم اليوم لإيواء السياح.

(3) هم خلفاء السلطان في البوادي، ومنهم من راكم ثروات هائلة وصار يشكل خطرا على السلطان خاصة في فترة الاستعمار.

وراء نهر سبو. إنها لبركةٌ طيبة هي بركة الأوروبيين، فقطّاع الطرق لا يتهجّمون عليهم أبداً. ثمة ثلاثة صبيات يهوديات نبيهات وفطنات، مختلفات كل الاختلاف عن الصبيات المسلمات الكئيبات. تخوّفن منا بحيث فضَّلن السير قُدامنا مع خدمنا. لكن حين وصلنا إلى المخيم، أرسلن لنا ببسمات عذبة، ثم حاولن أن يقدمن لنا بعض الخدمات البسيطة، كالإمساك بفرس أو إحضار كوب ماء. إحداهن حسناء، ذات أجمل وجه يخرج من البرنس الكئيب التي اختارته لنفسها ذهبيا يكاد يكون مشعّا. يا لها من مفارقة بين الوجه الفتي الصافي واللباس الرسمي الذي تضيع فيه الفتاة الحسناء. في الصباح كنَّ الأوليات المتأهبات، فمتاعهن خفيف جداً. كانت حقائبنا نحن لا تزال مطروحة أرضاً في الوقت الذي كن فيه قد امتطين بغالهن، وينتظرننا من غير حراك مستقيمات الأجسام في العباءة الفضفاضة التي تغلفهن. ثلاثة أشباح رصينة نحيفة تنتهي رؤوسها بحدة القبّ. وها هن يأخذن الطريق خلف ساسة بغالنا، تلك الصبيات اللواتي كن البارحة فقط يغامرن وحيدات في البلاد القفراء، واللواتي يتعلقن اليوم بقافلتنا، كما في البحر تحطّ طيور بئيسة على حواف السفينة التي تبدو لها فلا تطير إلا بمعيَّتها.

وحتى ننسى بعض الشيء طول المسافة، كنا نحفز الرجال على الحديث، فهم يعرفون بعض الكلمات الفرنسية أو الإسبانية، ونحن نفهم بعض الكلمات العربية، غير أننا نستخدم بالأخص الإشارات.

بدأت أعرف خادمي، الشاب الريفي ذا الجبين الصغير الذي تخترقه التجاعيد، ربما منذ ولادته، الذي يشبه وجه القرود التي يذكرني بها أيضاً أنفه بلا نتوء، والعينان العسليتان اللتان لا ذكاء فيهما. رجلاه اليابستان تخرجان من الثوب البربري الخشن الذي تجعله التطريزات الكبيرة الصفراء بين الكتفين أقرب إلى لباس القسُس. من المستحيل التكهن بعمره، فهو نفسه لم يعرف ذلك أبداً. ولقد قال لي: «هنا، ليس الأمر كما لديكم. نحن لا نعد السنين». ها هو رجل مسلم يحدد الفرق الأساس بين عالم الإسلام وعالمنا. وهو، بفخر واعتزاز، يعتبر نفسه مواطنا من بلدي. ففي أحد الأيام، وقد كانت المجاعة مستشرية في قريته، عبر الحدود إلى الجزائر، وخدم في الجيش لدى الفرنسيين في منطقة وهران، مثله مثل أجداده الذين كانوا يشتغلون مرتزقة لدى الرومان والقرطاجنيين. وقد جاء من هناك بطلاسم تعتبر نادرة في بلاد المغرب وتسمى الهنجي (الكونجي: العطلة) يحملها تحت ملابسه، مغلفةً بالحرير وموضوعةً

في كيس من الجلد. سألني: «هل تريد رؤية طِلّسمي؟» ولكي يريني إياه حلَّ ثُنياته بحذر بالغ بحيث إن تجاعيده القردية بدأت تهتزُّ. ثم أبدى لي ميدالية عسكرية، وهي لم تكن بطلسم أقل فاعلية، مغلفة بإحكام كما الطلاسم.

إنه خادم أجلف وأليف، على الطريقة المؤثرة للعبيد؛ فقد حفظ عن ظهر قلب عدد الأشياء التي أملك وأشكالها الدقيقة. وهو يعرفها كما يعرف كلبُ الرعاة كل خروف من قطيعه. وإذا ما أضعت منها شيئاً ينهرني ويبحث عنه ويعثر عليه حتما ودائماً. وعدا هذه المهمة، فهو يتكفَّل بالحقائب التي يفتحها ويغلقها، ويعد لي سرير المعسكر، ويحزم بابي القماشي في الليل جيداً. وهو لا يفكر سوى في أن يأكل الرُزَّ ولحم الخروف بملء يديه وشدقيه، وأن يزعق هو ورفاقه في المخيّم بالمزحات البربرية الجافة، ثم الذهاب للشخير تحت خيمة الساسة.

رحت لأراه نائما هناك. وقبل أن يُسلم نفسه للنوم نزع عنه رزَّته، فظهر رأسه حليقا وعارياً وأملس فوق وجه أحرقته الشمس وغزته التجاعيد من فرط النظر في نور الشمس. وخلال نومه الذي لم ترتخ فيه تجاعيد الجبين، ظهر لي النموذج العرقي بشكل أفضل، وهذا الرفيق بدا بعيداً بشكل محزن وبوضع وغامض وقريب من الحيوانية.

ثمة خادم آخر لنا، هو ذلك الذي يقدم لنا وجبات الأكل. إنه رجل ابن الثلاثين عاماً، تبدو عليه ملامح السذاجة أكثر، يبدو دائم الدهشة والبلَه، وقد أخطرنا سيده السابق بطنجة أنه «ثعلب» الطريقة العيساوية[1] في تلك المدينة. حاولت أن أسأله عن وظائفه المقدسة، فأنكر أمامي كل شيء. لكن بما أنه يعرف عوائد عيساوة الثعالب، قال مشيرا إلى الخرفان هناك: «شوف (انظر)، خلال العيد، حين يلتقي الرجال الثعالب واحداً كهذا في الطريق، يجب أن يلتهموه حيا. نعم. أي أن يمزقوه إربا إربا بأيديهم وينتزعوا أحشاءه ويلتهموه. هكذا هو الرجل الثعلب! وهكذا على الإنسان أن يتعلم ما يقوم به مع عيساوة. بلا سكين. لا، القتل والتمزيق بالأصابع فقط. وأطلق ضحكة صغيرة بلهاء فيها الكثير من التقدير. وأنا أعلم (فقد رأيته وتبعته في إحدى المواكب الدموية لعيساوة) أنه قد عرف هذه الشخصيات

(1) العيساوية طريقة صوفية تعود إلى مؤسسها محمد بن عيسى المعروف بالشيخ الكامل (1465-1526). وتشتهر هذه الطريقة الصوفية بموسمها السنوي بمدينة مكناس وبموسيقاها وطقوسها التي تبدو بعض عناصرها غريبة وبدائية.

الماجنة، وأن الهذيان المقدس للطقوس العتيقة لا يزال تخترق هذا الرجل البريء الذي يحكي لي بهذا اللطف كله تلك الأشياء ويقوم بتفان بمهمته كخادم.

كان الريفيون يسخرون دوماً من ذَمامة العسكري المشعوذ ومن عوائده. إنهم يضحكون ملء نواجذهم، منقلبين على سند سروجهم، وهي بهجة قاسية يتردّد صداها بعيداً في المراعي.

لكن الأحداث الهامة كانت هي أحداث السماء. إنه الريح الذي بدأ يهب، والمجرى المائي الذي عبرنا، والمرور من منبسطٍ إلى أحد المرتفعات في البلد، حيث موجات الريح المتعاقبة تتجارى وتتداخل، كما على صفحة منفوخة بمياه عاتية تتنفس أحياناً على الجوانب العريضة للأرض...

وغالباً ما كانت السماء عبارة عن أفق أزرق، وعوض ظلال الغيوم الهاربة، كانت الرياح المفاجئة هي التي تقلب حقول الحبوب، بحيث يعمُّها ارتجاج مفاجئ من الأسفل إلى الأعلى.

وأحياناً في بداية المرحلة بالأخص، يأخذني فرسي الجموح عدوا حتى التلال التي تحدُّ السهل، بعيداً جداً بحيث يكون علي أن أترجَّل عنه حتى أنتظر الآخرين. وحينها أغدو وحيداً مع الأشياء الخضراء الأبدية. أسمع صمتها في النور؛ أراقب زهور اللؤلؤ وشقائق النعمان، والمساحات الممتدة في خضرتها؛ بلد بكامله صافٍ وقفر، حتى الأفق، عند الخطوط المتعرِّجة التي عبرناها بالأمس. وحيداً ألتزم السكون ولا أميس حراكاً، أمتزج بهذه الأرض شيئاً ما، وبهذه الزهور التي تعيش هنا بعيداً عن بني البشر والتي جئنا لمفاجأتها، فقد كانت للحظة سابقة غير موجودة لأي نظر.

يتقدّم صف الدواب والناس ببطء، بحركة لا نحسها، عبر هذه الفضاءات التي يتوحّد فيها النور بالسكون. وفي المرعى يتحرك نُثار البذار الطويل، كما لو كان صفا من النّمل يتهادى...

كل يوم تقريباً نلاقي بريداً من فاس نتقاطع معه أو يلحق بنا. إنه شخص راجل يكاد يكون عارياً، أسود ومشعّ تحت الشمس من العرق. وهو يمشي بخطى ممدودة، بصلابة وبإيقاع سريع آلي. ويبدو أننا لو رفعناه عن الأرض، لظلت رجلاه تتابعان حركاتهما كآلة تملأ بمفتاح.

حملة الرسائل هؤلاء يقطعون دفعة واحدة (فتوقفهم لا يكون إلا لبضع دقائق) الفراسخ الخمسة والثلاثين التي تفصل فاس عن القصر الكبير عبر الجبال. وأحياناً حين تكون إحدى رسائل المخزن مستعجلة، نراه يقطع مرة واحدة الستين فرسخا بين فاس وطنجة. وحينها نراه لا يتجاوز ثلاثين ساعة. علينا أن نذهب إلى اليابان لنجد عدائين مثل هؤلاء. وهم يقومون بمهنتهم هذه أبا عن جد، بحيث نحس بدربة وراثية لديهم وبهيئة خصوصية، فهم يتمتعون بنحافة حادة، ولهم الخطوات الثابتة والدقيقة للقديس يوحنا كما صوره النحات الفرنسي رودان Rodin .

أوقفنا الرجل وسلمناه رسائلنا ثم استعاد حركته التي علَّقها للحظة. وها هو الآن قد ابتعد عنا، جاهدا في مشيه بحيث يصغر شيئاً فشيئاً في الأرض الفسيحة الشاسعة الفارغة. يا له من مخلوق صغير شهم! إنه يثير فيّ الدهشة بالطريقة التي يمتح فيها من ذاته الشجاعة والقوة التي تقوده سريعا وطويلاً عبر لحظات العزلة المتوالية.

كانت الشمس في قبة السماء حين وصلنا إلى محطّ رحالنا. ومنذ ثلاث أو أربع ساعات ظلت حارقة رغم الحُجب التي وضعناها على رؤوسنا. قرب دوّار صغير هناك حقل، وهضبة صغيرة من العشب مخصَّصة منذ زمن طويل للمسافرين. هناك، علينا إقامة خيامنا تحت حماية الدّوار. قطع الرجال كوم الشوك (التي لا تزعج غير الأوروبيين) وأزاحوا الأحجار الكبرى، وفي الحال كان المخيم قد صار جاهزا؛ فقد مر الأمر بشكل أسرع من مشاغل الرحيل. تناولنا الغداء ثم قضينا العشيّة الطويلة تحت الخيمة حيث تتركز الحرارة وتتهادى تحت قوة الرياح.

حوالي الخامسة خفت حرارة الجو، فقمت ببعض الخطوات. كانت الأرض المخضرة تفعم العين باللطافة. وثمة رطوبة عطرة تأتي من البرسيم الطري. بدأنا ندرس طريق الغد بمنظار. قطفت زهرة ثم أخذت طريق الدَّوّار وتوقفت عند مدخل سور الصّبار. يا لها من حياة نشيطة انعزلت عن السهل لتلتجئ هناك في الليل. كانت الماعز والخرفان مزدحمة هناك بحيث لا تستطيع الحراك، والحمير مصطفة ومشدودة بالحبال، ومسافرون من الفقر بحيث لا يستطيعون استخدام حراس والنوم في الخارج، وجمال جاثمة تغمغم حول كومة من التبن. وثمة صبيان عراة، ونساء عند المداخل الداخنة للأكواخ، ودائماً على رأس تلك الأكواخ

الطيور الكبيرة القدرية، اللقالق الهائلة، واقفة على أعشاشها، تنعم بالسكينة في الطمأنينة الصافية للسماء، فوق الهرج الغامض المتحرك.

ثم حل وقت العشاء فتناولناه عند باب الخيمة، في الوقت الذي عادت فيه الألوان الوردية والذهبية لتغطي جهة الغرب، مستعيدة في هذا الوقت المظلم أجواء تشبه الفجر. ولم يغب النهار تماماً حتى كانت بعض النجوم قد لمعت في السماء. غمرت الظلمة الأرض، وآفاقُها انمحت فكانت تغيب في العدم.

وهكذا لم يعد ثمة من واقع غير قبة السماء حيث ترتعش الآن بأعداد هائلة النيران التي تمثل العوالم الأخرى. إنها حياة الكون، حياة متوحشة تبدو هنا كما لو أنها قريبة الحدوث، وتفزعنا أكثر بسكونها وبريقها...

الثامنة صباحاً. يبدو المخيم مقفرا، فليس هنالك من شخص بين الخيام. وكل خيمة تشعّ شيئاً ما بنورها الصغير الداخلي، كما يستنير غطاء مصباح. كانت تصل مسامعنا نبرات آلة ذات وتر وحيد. في كل ليلة يكون العزف نفسه ضعيفا وضائعا في عتمة الليل، وموسيقى عنيدة وحزينة يجد فيها أحد ساسة بغالنا، وهو رجل مرح وقوي، متعته الغريبة في وقت السكون. وتبقى الموسيقى إلى وقت متأخر من الليل؛ والآخرون لا يزعجونه، بل يصمتون لإصخاء السمع لنوتاته. يا له من عالم مجهول منا يعبِّر عنه ذلك البربري بهذا اللحن الدائم الذي يشبه صرير الحشرات.

جاء خادمي الريفي ليحزم باب خيمتي ثقبا ثقبا. كان جاثيا على ركبتيه، ورأسه منحنٍ حتى الشق الذي يفصل بين القماش والأرض. طلب مني الأوامر للصّباح وصرخ لي بأمسيةٍ سعيدة. ثم سمعت ضربات مطرقته الأخيرة على الأوتاد. صار أسفلُ الخيمة لصيقا بالعشب في الأرض وصارت الخيمة البسيطة محكمة الإغلاق. إنه إحساس وهمي بمأوى حقيقي. ثمة فانوس يملأ هذا المكان المغلق بالنور الحميم. أمسكتُ بكتاب وقرّبت الفانوس، وكنت سعيداً بأن أحس نفسي في بيتي الشخصي. لكن، عدا زربية صغيرة، كانت الأرضية من العشب وشقائق النعمان في المرعى، وحيطان الخيمة تتماوج عند كل نسمة في الليل. سكنت كل الأصوات في المعسكر، وفجأة سمعت صرخة بعيدة، كما لو كانت صرخة كلب يعوي

حتى الموت: إنه عواء الثعلب. كان بالكاد يصل إلى مسمعي، لكنه كافٍ كي تسري في جسمي رعشة خفيفة. وردت ثعالب أخرى، وتقارب العواء، كما لو أن شياطين الليل والمنبسط الموحش كانت تتجمع شيئاً فشيئاً في حلقة من حولنا.

النوم تحت الخيمة خفيف جداً غير أنه مريح. تأتيني الأحلام لكن من غير حركة. فلا شيء يحدث فيها ولا شيء ذو طابع شخصي يوجد فيها. نحن نحس أننا لا نزال مسافرين، لكن كم هو أمر بسيط ذلك، بحيث يختزل في ذكريات عضوية وأولية كالتأرجح الرتيب للجسم على الفرس، وتصلُّب الجسم إلى الوراء تأهبا للنزول في منحدر. لكني استعدت من جديد رؤية قطع مناظر طبيعية، وهندسة هادئة للسحاب في الأفق. وكل شيء يظل هناك، بحيث يتوقف عنده الذهن ويتلذذ به ويجد فيه طمأنينته. وتدريجياً تتحول صورة أمان إلى صورة أمان أخرى. حينها، يشارك المرء في السكينة الأبدية أكثر مما يقوم بذلك أمام منظر واقعي. إن تلك المناظر تدخل في عمق الكيان، وتراكم فيه ما استطاعت من البراءة والطراوة التي لا نعرفها إلا في لحظة النوم، حين ينمحي الإحساس وينكشف في صمت ما نحمله في النفس من قوة أو حزن.

ربما كان هذا الإحساس بالطمأنينة والطراوة يأتينا ببساطة من العودة إلى الحياة البدائية بحيث نعيش راحة النفس، والتعب المقدس للجسد المشبع والمطهر في الهواء الطلق.

في هذا الحلم الشفاف تمر بي أصوات الخارج: حصان يحمحم، نباح الكلاب التي تبدأ بعد الثعالب مجمعهم الرهيب، في انتظار رقاد بني البشر. وكذا نداء الحراس المقرفصين في حلقة حول المعسكر. وأحياناً (هل يسعى هؤلاء الحماة لحمايتنا؟) يأتون للجلوس بين خيامنا. حينها يبدأ النوم الخفيف يهجرنا تماماً. وعليَّ آنذاك أن انهض للتفاوض معهم في الأمر. أخرج رأسي من أسفل الخيمة فيصفعني الريح البارد الذي يرشَح برائحة العشب، وفي الخارج ثمَّة الليل اللانهائي البهيم، وكوكبة نجوم تميل إلى الأسفل الآن في الأفق. أنتهي من التسلّل إلى الخارج، أنهض، وعلى مبعدة خطوتين ها أنا أجد نفسي أمام الأشخاص المزعجين: هناك شكلان شاحبان ملتصقان بالأرض لاذا بالصمت ما أن بدا لهما شبحي وظلا هناك جامدين بلا حراك.

وفي الشمّاخة (وهي المحطّة التي تلي القصر الكبير) كان الريح هو الذي منعنا من النوم. إنها الريح العاتية الآتية من المحيط، تلك التي تهبُّ عادة على غرب فرنسا والتي تعرفت جيداً على صخبها الجبار. أحسست من خيمتي، قبل أن أنهض، بآثارها الخاصة وحمّاها الساخنة التي تزرع الاضطراب في الإنسان وفي السماء، وفتورها الرطب الذي يدعو إلى الارتخاء، وخاصة هوجها المثير وتقلباتها الغاضبة...

وحين تهب هذه الريح، تغدو الخيمة عنصرا بسيطا في مهبِّها. هكذا يصطفق القماش في الخارج كما الشراع في العاصفة، وأوتادها الداخلية تكاد تنتزع: فهل ستنقلب الخيمة حالا لتتخاطفها الريح كخرقة بالية؟ لكن رجالنا يهرعون إليها، ويحلّقون حولها من جميع الجوانب بحبل واحد يحزمونه حولها بما أوتوا من قوة ويربطونها إلى أوتاد جديدة.

وفي الصباح، كانت الريح لا تزال تتابع هبوبها لكن من غير عاصفة، فقد انحلت الأزمة بهطول الأمطار. كانت تسقط بهدوء، على مد البصر، أمطار البلدان الساحلية الدافئة غير القوية التي يبدو كما لو أنها ستدوم لأيام قبل أن تأتي على ما في السماء من بخار رمادي.

وفي السادسة قررنا الانتظار، وظللنا بخمول نائمين حتى السابعة صباحاً. وبلذة غريبة، أحسست بالخدر وأنا أتنصّت لنقات القطرات الدائمة للمطر على الخيمة، والسيلان المنتظم في الداخل لقطرة كبيرة تتكون ببطء دائماً في الثُّنية نفسها من سقف الخيمة، وتنفصل عنه لتسقط وتسقط كما لتحسب لي الدقائق.

وفي الثامنة توقف الهطول، وانحسرت الغيوم التي غلفت البادية كأنها كُنست كنسا، وهربت في شكل خرق شاحبة في رعب العاصفة. لكن الأفق لم يزرقَّ بعد، فقد ظهرت قبة كبيرة بلون رمادي أكثر نصاعة ممهورة بمناطق كستنائية. وكان هذا البساط الطويل بكامله يمتدّ بحركة واحدة ويبدو بطيئا لأنه كان بعيداً جداً.

حينها تجولنا ببطء في الأعالي التي تشرف على الدوار. عثرنا هناك على بساتين، وهي الأولى التي صادفناها منذ ارتحالنا عن مدينة القصر الكبير. أشجار زيتون تنتفخ وتبيضّ، يداعبها الريح العاصف، وأشجار تين وأسيجة من الألَوة الزرقاء، رائعة بصفائحها العالية كقامة رجل، ومسنَّنة بالشوك الحاد المتواتر.

وتحتنا كانت هناك أراض فسيحة خضراء متماوجة: موجات خلف موجات، وآخرها يرتفع إلى السماء حتى يكاد يحجب عنا الأفق الحقيقي. كل ذلك تترامى فيه حقول القمح الأخضر. وثمة العشب الطويل في كل مكان، ببريق آسر ورطوبة أكيدة، العشب اليافع المغذي، بفرشات متوالية وحقول متمايزة. وعلى هذا البحر النباتي، كما على الآخر، كنا نرى خطوات الريح العريضة بإيقاع متوالٍ وتموُّجات كبرى.

لكن هذه التموُّجات سرعان ما غدت أبطأ، فالريح خفتت ولم تعد غير نسيم رخو. حبست نفسها تحت قبة السماء الغائمة (التي غدت الآن جامدة تماماً) مثلها مثل هذه الأراضي الشاسعة التي أزعجتها. كان الفضاء مغلقاً ودافئا وحميا، والنور محجوبا، وهذا اللغز وتلك النعومة كانت تبدو أكثر ملاءمة لتكون الأرض في عمقه ولُزوجته.

***

ثلاثون كيلومتراً بعد ذلك، في منطقة «الرّدّات»، ظل ناس الدوار طوال الليل في هرج ومرج. حمى وَطيس العراكات المغربية. دام ذلك ساعات من غير سبب، مثله في ذلك مثل عراك الكلاب الذي لا يفتر لأن كل واحد منها يعود للنباح لأنه سمع نباح الآخر. إنه سأم الترحال بالمغرب، المتمثل في ضرورة حط الرحال تحت حماية القرى. يا للأسف لأننا لا نستطيع اختيار مكان مخيماتنا ، فقط بالنظر إلى هدوء المكان وجماله، كما كنا نفعل ذلك بسوريا.

وفي الصباح سألت الدليل عن ذلك الضجيج فأجاب: مرّ أحد أهل فاس وأخبر الناس هنا أن السلطان قد مات. يا لهم من أشرار.

هذا ما في الأمر. إنهم أشرار وأشقياء مثل تلك الكلاب التي يثير سعارَها صوت واحد في الليل. فأن يعلموا أن السلطان مات أمر يثيرهم ويثير العراك بينهم ويدعوهم للتكشير عن أنيابهم.

وفي الحقيقة فإن هذا الهرج له أسباب وجوده العميقة. إن هذه القبائل، من بين العديد من القبائل المستقلة المتمردة والسائبة والنهّابة، لا تزال وفية لبيعة السلطان. ولا السلطان ولا المخزن، يقدمان لها الخدمات التي يدين بها الحاكمون للمحكومين. من جهة أخرى، فإن هذا المخزن سيقع في الغلط لو ألح على جباية الضرائب حين يرغب في تجنيد الرجال، أو

استعادة السلاح الذي حمله معهم الهاربون من الجيش. هذه الرابطة المهترئة، الوحيدة التي تجمع مع ذلك القبائل، سوف تنقطع إذا ما توفي السلطان. فحين تغيب السلطة الوحيدة المرئية، تصبح كل قرية معزولة. هل ستعمد إلى مهاجمة جيرانها في الغد؟ وهل ستتمكن من إخراج قطعانها من حظيرة الصبار؟ إنني أتفهم الهياج المفاجئ، الذي يشبه هياج عش زنابير يائسة، والعراكات الصاخبة، خاصة وأنها تكون في البلاد العربية عامة هي المعركة كلها، فالمنتصر هو من زعق وصرخ أكثر.

هل تمَّ تكذيب النبأ؟ كان الهدوء التام يعم المكان عند الصبيحة. وهاهم الناس لا ينبسون ببنت شفة. وهم في ذلك شبيهون بإخوانهم كلاب الدوار التي تبدو بريئة من هرجها في الأمس. إنهم هنا على العشب، يجلسون على مؤخرة أقدامهم على حافة الطريق، مصطفّين في خط كما أناس القرى الأخرى، يشبهون دائماً صف العصافير المقشعرة من البرد على سلك تلغراف. إننا نخال أن هؤلاء المشاغبين لم يوجدوا أبداً إلا في الحلم، أو أنهم ليسوا سوى سكونٍ وبلا حراك. وحدها المآقي الصفراء في البرانس الباهتة تتحرك، مترصِّدة كل حركة منا باهتمام عميق.

***

وفي المحطة الموالية، بلغنا البساتين الجميلة لنهر وَرغَة، البساتين الثانية والأخيرة على طريق فاس. وهي حدائق مستقاة من أشعار فارسية، تبدو خارقة في هذه الحرارة التي تعم الظهيرة، وسط منبسط قفر ملتهب بحرارة الشمس. إنها الظلال الوارفة والأكثر رطوبة. تمدَّدنا على كتل من الطين الأسود تحت أوراق التين الصافية، وتحت الخضرة الغامقة لأشجار البرتقال.

قمنا بقيلولة قصيرة ثم تابعنا المسير حتى بلاد «الشّراردة». في ذلك اليوم قطعنا نهرين: وَرغة وسَبو. إننا نلاقي نهرا في وسط كل سهل من هذه السهول التي تشبه أروقة طويلة لانهائية جنب المحيط الأطلسي، وتمد على السماء الغربية خطاً من الأفق صغيراً مؤثراً. ونحن ننزل، نرى من الأعلى، هنا وهناك التعرجات الهادئة التي تتقطع، ثم تعاود الظهور بُعَيد ذلك كي تنمحي مع الأرض كلها في أفق الفضاء، على بعد فراسخ منا.

لكن في الأسفل، حين نمس الأرض الواطئة، لا يغدو النهر مرئيا لأنه يجري عميقا بين

حافتين. وثمة الكثير من العشب، والنباتات الممتدة من غير انقطاع حتى سلسلة التلال الأخرى. لكن قريباً منا ثمة تقاويس من أشجار الدفلى الوردية المزهرة حينها. ونحن نسير من قوس لآخر نقطف عند مرورنا بعض زهورها العجيبة المائلة إلى النصاعة، النادرة كما زهور الأزلية. وما فتئت وحدتنا في هذه البلاد أن انحسرت عند الوصول إلى الوادي الكبير وممّره. ثيران تتسكع هناك قرب المورد، وأخرى ذات الوبر البليل أتت من الشطّ الآخر، لتلتحق بالباقي في انتظار الراعي، قبل أن تأخذ طريق العودة.

ثم ها نحن على الضفة، وفي قعرها الذي لا يملؤه النهر غير العميق، بقنواته العديدة، مساحات شاسعة من الحصى والطمي، وهو أروع وأكثر صفرة من هذا الوحل، الذي يبدو عبارة عن تراب سائل. وجرف الضفة يرمي على هذه الحقول المزروعة المسترسلة ظلا من معدن.

هذا الفضاء الحجري أو السائل حيوي بشكل رائع. تمر القطعان، ذات الدواب الهائلة، من ضفة لأخرى أو تنتشر فيها على هواها كما في المراعي. وأغلبها واقف بلا حراك لا يقوم سوى بالتمتع بالمياه الرطبة. وهي تمتصها بأشداقها المنحنية، وترفع رؤوسها لتعاود الكرة بتؤدة، وقطعان الضفة منغمسة حتى الركبة في الفرشة المائية الرقيقة التي تتماوج عند كل حصاة كبرى. والأخرى منغمسة حتى البطن وسط المجرى الذي يثير أمواجا كبيرة. لكن العديد منها ركبت على ربوة من الحصى. إنه مرتفع يتجمع فيه القطيع ويقف هناك، قرونه إلى الأعلى على خلفية السماء الشاسعة وشريط المنبسط الضيق، أو فيه يخور الثور ممدِّدا جسمه باتجاه المدى.

إن مشهدا كهذا يستعيد لنا، أفضل من العزلة الخالصة، أزمنة الأرض البدائية. فهذه الحيوانات المجترة الهائلة التي تتسكع هناك بالمئات، تراها تتناغم مع هذا المشهد الطبيعي الأولي، ومع شساعته الخالية. وهي تبدو، مع السلاحف السوداء وطائر البقر، الكائنات الحية الوحيدة في هذا المرعى الموحش حيث تجري مياه محملة بالطمي في سرير واسع ومنهار، بين الحصى وتحت حواف من الدفلى الوردية.

***

من هناك، بين نهر «ورغة» ونهر «سَبو» تبدأ الطبيعة في التغير. نحن نترك أخيراً البلاد ذات الحقول المزروعة ونخرج من هذه التموّجات الرخوة والبالغة الخضرة. ومن نهر لآخر، على المرء الصعود والنزول، لكن الصخور تتكاثر، ويبدأ الجفاف في التزايد، والعشب يغدو أكثر رمادية. وفي البعيد، جبال متراصة في نصف دائرة عند المشرق والجنوب، خالصة مثل الثنية الملساء والحادة التي تُولد من وسط الأفق. إنها نقاوة مثالية تفصح لنا من مسافات بعيدة عن الصخر العاري لِقممها. والغريب هنا، كما في العديد من المناطق الأندلسية، هو أن الانطباع بأننا نسافر على هضاب عليا يأتينا في هذا العلو غير المرتفع كثيراً. والقمم الطويلة المترابطة تشرف من قريب على المنبسط وكل شيء كما هو الأمر دائماً يغدو في منتهى الخفة في المرتفعات: الهواء والنور وحركة الأرض والنباتات، بل حتى نبض الحياة الذي يخفق فينا راقصاً وبهيجاً أكثر.

في كل الساعات من ذلك اليوم، ظلت تلك الجبال النائية تحافظ على ألوان الصباح والمساء. كانت الشمس تخضّبها باللون الخبازي الفاقع وبالوردي. والظلال تنساب فيها رخوة كما المياه الزرقاء. كل شيء كان هنالك رقة وحيوية، وتلاوين متغيرة للون الشاحب الذي كان مع ذلك يدوم، كما الصدف الروحاني في أصيل النرويج.كانت تلك الموجات الطويلة من السيولة بحيث تتمدَّد من غير ارتفاع وتبدو وكأن النور يخترقها. إنه نور أزرق وكستنائي أو مائل إلى الحمرة، كما لون اللازورد أو الجَمَز أو الياقوت. ونرى جيداً أن لا الأرض ولا النباتات تثقل كل هذا.

يبدو السهل حولنا أكثر واقعية من تلك الأقاصي البلورية. كان ذا صفاء خارق، كما لو كانت الأشعة التي تداعبه تغلفه. والسماء كانت شاحبة أيضاً بشكل غريب، بأفقها الذي فقد لونه فابيضَّ وخالطه اللون الفضي. ومع ذلك فإن الحرارة الإفريقية الحقَّة قد بدأت. إنه شكل اليوم الذي يبدأ وينتهي من التاسعة إلى الخامسة، يعمّه دفَق النور كما خلال الظهر، وهو ظهر يتوقف في السماء ويصب علينا دوماً مطرا من الأشعة المستقيمة، بحيث لا تقاس حدَّتها إلا بتعب العين.

في هذا اليوم من بدايات أبريل/ نيسان جاوز المحرار في الظل لأول مرة ثلاثين درجة.

من الجهة الأخرى لنهر سبو، تبدأ أراضي قبيلة الشراردة، وهي قبيلة محاربة لا يزال يجد لديها السلطان عسكريين في الكَيش[1]، بشرط أن يكونوا أحرارا للعودة إلى ديارهم حين يسأمون من الخدمة العسكرية، وأن تمارس القرى الحروب على هواها. الطريق من هنا إلى فاس أقل أمنا. ثمة أمر دال، فبمقدار ما نقترب من مدينة السلطان، بمقدار ما يردّد علينا الدليل نصيحة الحذر والحيطة. ممنوع الآن العدو وحيداً بالفرس في المقدمة أو التخلُّف عن القافلة. وقرب نهر سبو، أمسك الجيلالي الذي يهمز بغلته قرب فرسي بمرفقي بغتة وقال: «هاك، انظر!» كانت ماسورتا بندقيتين تلمعان على بعد ثلاثين مترا في دغل أكمة. والحقيقة أن الأوروبيين لا خطر كثيراً عليهم، فهذه البنادق تكون في انتظار تاجر عربي وحيد، أو أنها تترصد الأخذ بثأر ما. والمسافرون الذين يستحقون خرطوشة بندقية يسافرون دوماً بقوة حامية. وعلى كل انتهت بالنسبة لنا هدايا الحليب ومشتقاته، والكسكس ليلاً في القرى، وفات وقت شيوخ القرى الأصدقاء وترحيبهم التوراتي. إنهم ينظرون إلينا شَزَرا ونحن نعبر أمامهم، وإذا ما نحن حصلنا، مقابل نقود حسنية على الحرَس الذين يحق لنا استخدامهم، فإن هؤلاء سوف يضحكون ويصرخون على هواهم في هذه الليلة الساهرة التي تشبه إحدى ليالي رمضان. وعند الثانية أو الثالثة ليلا، حين ننزعج من عدم القدرة على النوم، وإذا ما نحن منحناهم بعض النقودكي يلتزموا السكون (لأن ذلك أفضل من توعُّدهم أو تهديدهم)، فإنهم يتضاحكون أكثر وقد أثارتهم هذه النعمة غير المتوقَّعة. وهكذا كنا نعوِّل على القيلولة للتمتُّع بقسط يسير من النوم.

خلال تخييمنا بسبو، صادفنا «قافلة الخزينة»[2] التي تحمل إلى فاس منتوج الجمارك بطنجة. تمت محادثات طويلة بين قائدها ودليلنا. ومن بعيد رأيت هذا الأخير، الذي بدا ضخما وهو راكب بغلته، يهش بالرأس علامة النفي، ويرفع يده لمرات عديدة، كما للتوكيد. اقتربت منه فوصلتني عبارته: «لا، لا» التي تتكرر دائماً في خطاب عالي اللياقة، والتي كما يبدو تعني الرفض والاختلاف. وأخيراً جاء إلينا الدليل وفسر لنا باللسان الفصيح: «هؤلاء الذين

(1) الكَيش أو «جيش الاودابة» هي ميلشيات عربية أنشأها مولاي إسماعيل في نهاية القرن السابع عشر وساهمت بقوة في رد المطامع العثمانية واستعادة العديد من الثغور التي كانت قد سيطرت عليها الأساطيل الأجنبية. وقد استمرت هذه المليشيات إلى حدود الحماية الفرنسية في بداية القرن العشرين.

(2) بيت مال المخزن.

يحملون المال إلى السلطان، خائفون من قبائل الشّراردة. يقولون إنهم لا يملكون ما يكفي من البنادق. قلت لهم لا. فقالوا لي أن أسأل الأسياد، لأن الروميين أصدقاء السلطان...».

رفضنا جملة وتفصيلا هذا الاقتراح. لا أبداً. إنه لأمر خطير أن نصبح حامية لصناديق مال خزينة السلطان. إذا لم يكن السلطان قادراً على ضمان أمن الطريق للمسافرين، على الأقل ألا يطلب منّا مرافقة «فلوسه».

* * *

وفي الصباح، تركنا من غير أسى أول دوّار غير مضياف للشّراردة من غير أن نراه مجددا من فرط الضباب الأزرق الذي انتشر من النهر على البادية. تبدو لنا فقط رؤوس الأكواخ، وبشكل أقل ضبابية، أشباح اللقالق واقفة فوق أعشاشها على سيقانها النحيفة العالية، التي كبرت أحجامها بشكل خارق مع الضباب. وشيئاً فشيئاً بدأ نور الشمس ينساب في هذا الباب بحيث يذوب فيه ويكوِّن الزرقة في الفضاء. ثم انكشف لنا سهل سبو الفسيح، تحت السور الجبلي الذي نسير بمحاذاة سفحه. لكن بدأ يجف الضباب الأبيض الذي يطرده من الأرض هواءُ البحر الناعم. إنه أكثر الصباحات رطوبة ووضاحة كما هي كل الصباحات التي تبدأ بالضباب. والنورس الذي لا يصلنا صوته يملأ السماء...

حوالي الثامنة، انعرجنا عن النهر، ودخلنا توّا في الجبل من خلال سهل عرضي. لا يزال أمامنا منبسط طويل لكنه ضيق هذه المرة كما ممرّ بحري تكتنفه الأجرُف بين سفحين جبليين. إنها أراض خضراء وسرية اكتشفنا لتوّنا مدخلها. ففي سوريا، ونحن آتون من جبل الشيخ ونتجه نحو الشمال، أبصرت فجأة بين جبلي لبنان امتداداً طويلاً كهذا. إنه سهل البقاع الذي كان يسميه القدماء الشام المقعَّرة. وينطلق البصر والروح بالطريقة نفسها هنا، تحت خدر هذا الفضاء الهارب بين حدَّين، أكثر من الدائرة العادية للسهل. وهنا النور نفسه الذي لاقيناه هناك، والظلال الرخوة والكستنائية في سفوح الجبال، والقمم الصخرية التي تبدو كأنها تحترق من الأعلى وتنحلُّ أفقا ساخنا. وفي الوادي ثمة الخصوبة الفلاحية، حقول قمح طري منسابة في الهواء الخفي، حقول قمح كالتي نراها في منطقة البوص Beauce بفرنسا في بدايات يونيو/ حزيران، غير أنها برية أكثر، بعمقها الأزرق المخضر المنساب كما الماء، وبالزهور التي

تتخللها متناثرة هنا وهناك، من التّرنجان وشقائق النعمان الزرقاء والحمراء المتماوجة، مع الأخضر البلّوري للعشب والسنابل.

وحين وصلنا محطتنا كانت «قافلة المال» التي تسعى للحاق بنا، لا تزال بعيدة وراءنا. فسر لنا الجيلالي بطأها: «هؤلاء من المخزن. يسيرون دائماً «بالشّوية» (بتؤدة)». ثم عبَّر عن مقته بصفق لسانه ويده التي ترتفع عن المعصم. المخزن، إدارة الدولة المغربية، يعني فوضى الناس وبؤس الدواب، والناس الذين لا يتلقون أجورهم، والذين يقتطعون قوتهم من علف الدواب بحيث تتضوّر هذه الأخيرة جوعا، وتعرج قليلاً بالرغم من وخز المنخاس في جروحها التي تظل من دون التآم. مساء الخير لقافلة المخزن هاته! لعلها تلتحق بنا في المحطات الموالية، لكننا لن نكون بجوار «خزينتها» المخيفة. فهي تقيم الليل وسط الدّواوير، وفي النهار تتهادى بعيداً خلفنا.

هرج كبير في هذه القرية التي وصلناها، حين شرعنا في إقامة خيامنا في حقل مجاور لها. هرعت نساء من القرية، وهجمن على الدواب لمنع سائسيها من حط الرحال. حينها انطلقت معركة مغربية لم يكن أصحابنا فيها من الخاسرين. يبدو أنهن يرغبن في إكراهنا على الإقامة داخل سياج الصبار. كن يخشين أن نقوم بإطلاق أفراسنا في حقول القمح ادّخارا لبرسيمنا، فذلك كان هو ما تقوم به فيالق المخزن. أكّدنا لهن صفاء سريرتنا ومقاصدنا. ولَسوف يرين ما تعنيه قافلة شريفة ومؤدبة على الطريقة الأوروبية. ثم إننا نرفض بتاتا أن نقيم في الليل في حظيرة مع العرب والقطعان والجمال، من غير أن ننسى جحافل الحشرات. وحين رأين أننا بدأنا مع ذلك في بناء خيامنا أصبحن هادئات فجأة. فتقدم منا شيخ القرية وسلم علينا، وعبر لنا عن فرحه لاستضافتنا. وأخبرنا أن كل شيء هو لنا من زرع ودواب، ودعا الله أن يبارك فينا.

وفي الصخب الذي عشناه من لحظة، لم أستطع أن ألاحظ الحسن الفريد والعميق لهذا الشخص. كان محياه طويلاً متجعّداً، جافاً من زمان كقشرة شجرة بلوط ميتة، أو جلدة فيل. هل بلغ الثمانين من العمر؟ هل عمره مائة وعشرون عاماً؟ لا أحد يستطيع الجزم في ذلك. عينان غائرتان وخابيتان تحت جبين واسع، تحت محجرين دقيقين وبارزين. واللحية موج

ذهبي منسدل. والحركات صارت فجأة بطيئة كأنها للعبادة. فأنا لم أرَ هذا النبل الفحل والحالم لهذا النموذج العرقي سوى لدى بعض شيوخ بلاد الهند، في الأقاليم الإسلامية الشمالية.

* * *

بدا واضحاً أننا نقترب من فاس. فطريقنا تتلاقى مع طرق أخرى آتية من مكناس ومن الساحل الغربي، من العرائش ومن الرباط. إنها خطوط تكاد لا تُرى (وقد تكون قديمة قدم شعب البلد)، وهي الآن تسري الواحدة قرب الأخرى في العشب. أصبح الطريق مأهولا. صادفنا في طريقنا صفوفا من المشاة، وقوافل مسلحة، وأحياناً تعرُّجات بطيئة من الجمال تتهادى تحت وطأة الحمولات الهائلة...

لكن ما يتكاثر بالأخص هنا هو عظام الحيوانات، على اليمين وعلى الشمال من الدرب، العظام الفقرية الممتدة للخيل، وأفخاذ الحمير والبغال، هياكل عظمية بكاملها تمد جمجمتها نحو فاس، يبدو أنها سقطت هناك بعد أيام طويلة من الجهد والاحتضار.

نحن الآن وسط المرتفعات الجبلية. وفوق الطريق الذي نسلك، تتعلّق القرى بالصخور، كما لو كانت أعشاشا حذرة للجوارح، كي تراقب دوماً وعن بُعدٍ العدوَّ الذي قد تنشق عنه الأرض. ونحو العاشرة، بلغ سمعنا صوت تراشُق بالرصاص. رفعت عيني: كان أحد رؤوس الجبال مغلَّفا بدخان أبيض، فقال لي الدليل: «لا تخش شيئاً، لكن علينا أن نمرَّ من هنا بسرعة. إنه دوّار يأكل دوارا آخر».

ظهرت لنا، ساعة بعد ذلك، غابة زيتون صغيرة على منحدر بعيد. وفي «الشمّاخة» كنا قد رأينا خمسة أو ستة أشجار زيتون، ورمان وتين بري قرب وادي ورغة. لكننا لم نلاق بستاناً حقيقياً مثل هذا منذ مدينة القصر الكبير. صرخ أحد رجالنا: «انظر. إنها قرية بني الأحمر، ولهم بساتين! هؤلاء أغنياء ويعملون بجد!».

بنو الأحمر هؤلاء رائعون حقاً، فهم لا يجهَدون فقط في زراعة أراضيهم بمائتين أو ثلاث مائة شجرة زيتون، وإنما يسعون إلى بيع غلتها. إنها تجارة بسيطة لا تضيف شيئاً للأرباح التي تنوي أوروبا جنيها من هذا البلد؛ بيد أنها الوحيدة التي رأينا علاماتها في البوادي المغربية. ومن بعيد إلى أبعد يكون ثمة رجل، غالباً ما يكون شابا، يقعي أمام خمس أو ست دزّينات

من حبات زيتون، وقد يكون في حراسة ركام من الأحجار الصغيرة، بما أنه يبدو مهتما بالبيع، وبلا أدنى حركة، ينظر إلينا ونحن نمرّ. يمكننا ابتياع ركام الزيتون هذا بقطعة نقدية نحاسية، لكن على المرء أن يأخذه بنفسه، ويضع قطعة «الفلوس» في يد البائع الذي يبدو أنه جاء إلى هنا لانتظارِ مشترٍ غير محتمل، وإنما للانصياع للنوم. لكن هؤلاء النُّوَّم يعيشون لحظات استفاقة فجائية، بحيث يقفزون بقوة من سباتهم على طريقة الوحوش الغافية، لأنهم كلهم مسلحون. وهم يتمتعون بعطالتهم وبندقيتهم محمَّلة على الظهر. وكل راع أيضاً في بلاد الشراردة هذه يحمل بندقية لرعي قطعانه.

وفي مكناس كانت الحرارة تصل إلى 32 درجة في الظل. وضعنا خيامنا في أرض بئيسة تحت الهاجرة. ثمة أحجار الصَّوان وعظامٌ بالمئات، ولا شيء آخر قرب هذا الدّوار الكئيب. كنا نرى الهياكل العظمية للخيول فاغرة صدرها، شبيهة بهيكل الأسماك، حتى سياج الدّوار الدائري على مقربة من المساكن.

ومع ذلك، وبما أن السماء خفَّفت من حرارتها، فإننا نحس أننا هنا أفضل من المأوى المشترك للقوافل ذات المصادر المختلفة، التي تأتي كلها هنا لتنغلق طيلة ليلتها الأخيرة قبل بلوغ المدينة المقدسة. وفي الأصيل، حاولت أن ألج المأوى. ثمة خمسون بغلا، ومثلها من الجمال، ومائة من الخيل والحمير، وماعز وخرفان بالقطائع، ومعهم الرعاة وسوّاس الجمال والمسافرون. وخلف الصبار والحفرة مزيج من الناس والدّواب يثير لغطا تتمازج فيه الأصوات. وتنضاف الروائح إلى العطانة التي تطفو على الأرض المجاورة.

الليلة ساخنة. والسماء تلمع فيها النجوم التي كنت أروح دوماً لرؤيتها، والتي تبدو كما لو أنها لن تشحب أبداً. كم أتلهف للفجر الذي سيبدي لي صوامع فاس!

الدخول إلى فاس

14 أبريل/ نيسان. من ساعات ونحن ننزل من منحدر صخري حين انفتحت أمامنا سهول فاس، صافية. وكدنا ونحن ننظر من فوق إلى ذلك الامتداد أن نصرخ كما يونانيّي كزينوفون[1] Xénophon حين أبصروا بالبحر: طالاسا، طالاسا!

ها نحن نصل إلى منطقة جديدة من المغرب. امتدادٌ شاسع منبسط، فضاءاتٌ من الأرض النائمة التي تشحب تحت شمس الجنوب. وعلى مبعدة مسافة يصعب تقديرها، ينبثق خط جبالٍ في الأفق. لكن في الجنوب الشرقي بخار متمدد يصعد في شكل مثلث شاحب، وحينها نعرف أن الأمر يتعلق بالأفق الشاحب الذي يتجمع ويتمدَّد هناك. وفي الأسفل يبدو أنه يقوم على الفراغ، كما منظر بركان «فوجي ياما» في المنام. ولا شيء ينبئ عن طبيعته الأرضية غير التخاطيط البيضاء في هذه الزرقة المضبَّبة، والخطوط المنتظمة التي لا يمكن أن تكون غير خطوط قمة مكلَّلة بالثلج. إنها قمة من قمم الأطلس المتوسط[2] التي تظهر في الأيام الصافية، وتأتي لتشرف على مدينة فاس.

اتّبعنا ساحل جبل حجري ممتدّ، ينتهي في المنبسط كما تنتهي سلسلة جبال الأبّنين الإيطالية في البحر المتوسط. وهناك في الأعلى ترقُّ قمته المائلة وتنفغر كما لو كانت موجة هاربة، بحيث هناك أيضاً يبدو كل شيء بسيطا، ومرسوما بخطوط شاسعة كما أغلب المناظر الطبيعية لإفريقيا. هناك أيضاً كل شيء يغدو خفيفاً، كما الأفق المرتعش في السماء، وكما هذا الهواء العطر، والعشب النيِّر على الأرض في المرعى، والفُرشات الوردية المزهرة. يا له من صفاء روحاني لهذه الصخور التي تغدو ذات لون مرجاني، وتبدو مشعّة بمادتها الأساس، وتتشرَّب السوائل ذات الظلال الزرقاء، بمقدار ما أن المدى، عند غروب الشمس، يتخلّص من تفاصيله ويغدو أملس ويتجمَّد في النور.

(1) المقصود هنا كزينزفون الشاب الذي كان من أواوائل «الروائيين» الإغريق، عاش بين القرن الثاني والرابع للميلاد. والحدث الذي يحيل إليه هنا شوفريون موجود في كتابه: «أهل إيفيزيا»، الذي يبدو أنه ألهم شكسبير في كتابة «روميو وجولييت».

(2) هي السلسلة الجبلية التي توجد وسط المغرب ولا تبعد كثيراً عن مدينة فاس.

لم يظهر لنا بعد شيء من المدينة المقدَّسة، فقط ما يشبه الجزُر يتمدّد في الأفق عبارة عن كُوَم غامقة من العشب، قال لنا الدليل إنها البساتين المغلقة للسلطان. وبالمنظار، ميزتُ قمما عالية مورقة بالصّفصاف والأشجار الكثيفة التي ستكون لا محالة مليئة بالبرتقال وزهور الرمان. إني لأتخيّل بساتين إسلامية تأتي فيها نساء الحريم للعزف تحت الظلال الخضراء على جنب المياه الرّقراقة...

صارت المسالك الموازية تتكاثرُ، وتهرب من أمامنا في العشب والورود اللَّبلابة. وهو ما يعني حركة مجيء ورَواح نشيطة للمسافرين، بحيث إن القوافل الآتية من الجهات المختلفة تسير باتجاه مدينة عربية كبرى. ومن ساعة لأخرى، صرنا نلتحق بمواكب طويلة من الجِمال. وفي كل مرة تختلط مجموعة أفراسنا وبغالنا بها لتنسلخ عنها تدريجياً، وفي كل مرة نخال أننا نلتحق بالمخلوقات العجيبة التي تركناها وراءنا، خاصة وأنها تتشابه وتزرع فينا الدهشة بالشكل نفسه. دائماً الخطواتُ الناعسةُ نفسُها تحت الحمولات التي تسحقها، والذهولُ نفسه الذي تُبين عنه أعناق الجمال التي تترنَّح بحركة لا حياة فيها. إنها المشية نفسها لدابة تعاند الحياة، وتمرّ اليوم فوق الكائنات الصغيرة من غير أن تراها، منغمسةً في أحلامها العتيقة. وفي كل قافلة ثمة جملٌ صغير يكون دوماً هو نفسه، حرّا من غير حمولة، بوبَر أشقر قرب الجمال التي تشبه الغيلان المقشَّرة التي لا عمر لها. إنه الوحيد الذي يبدو حاضرا وحيا، لأن له ارتباكا وقفزات مفاجئة وغير منتظمة لا نجدها لدى صغار الدّواب الأخرى. وساسة الجمال نفسهم يظهرون من جديد أكثر هدوءاً من ساسة البغال، يمشون بخطى أوسع، وبصرامة لا ينطقون معها بكلمة، خلافا للمزاج الحي لساستنا المهذارين. إنهم شريحة، تتبع فيها خطواتهم وحركاتهم اليومية وقع خطوات الدَّواب، وذلك أباً عن جدٍّ.

ثم إننا التقينا بمسافرين غالبهم أناس بؤساء، أرجلهم متدلية، مُفَرشَحين على مؤخّرة حميرهم، ذوو هيئة غريبة وعسكرية، يسيرون مصطفّين بالخمسة أو الستة . إنها وجوه ذات كبرياء، بين بياض العمائم (الرُّزَز) وبياض البرانس الوسخة. وهم يحملون بنادق طويلة تتأرجح على أكتافهم، ومسلحون بالخناجر وأوعية البارود في الخصور، والمهامز مرصّعة وواسعة كالصحون حيث تدخل عاليةُ أرجلِهم في أحذيتهم الصفراء. أو إنها وجوه مهادنة ومسالمة لا تقلّ أهمية عن السابقة، يجلس أصحابها بوقار على بغال حذرة ونافرة، على سروج

ذات مسند مصنوع من المخمل الأحمر. وهؤلاء يلبسون «الحايك» وهو عبارة عن عباءة رفيعة، تُدار حول الرأس، ويُرمى بها تبقى منها على الظهر. ومن تحتها نبصر بالقفطان الذي لا يظهر لونه إلا بالشفافية ليندثر نهائيا تحت الثوب الموصلي. هذه البدلات وهذه الوجوه الممتلئة، بشحوب وبأدب ووقار، تعلن عن بورجوازيين حقيقيين يعيشون بحكمة إسلامية، من غير حركة نافلة، في عتمة الأزقّة والحوانيت.

لم تكشف لنا المدينة المقدسة بعدُ عن نفسها، غير أننا بدأنا نحدس وجودها. ثمة مواكب الجمال، وفيالق العسكر، والتجار على بغالهم، والبدويون على حميرهم، والقطعان الطويلة الثاغية، كل هذه الحياة التي تتحرك نحو الوجهة نفسها على الدّروب والمسالك المتوازية، كما لو كان الأمر يتعلق بالاقتراب من مرسى كبير، حين يكون البحرُ لا يزال أبعد من مدى العين، مليئا بالسفن والقوارب التي تنحو بأشرعتها الصغيرة والكبيرة نحو نقطة الأفق نفسها.

لكن على طريق فاس، ليس هناك من مجموعة أجمل من موكبنا ولا أكثر مرحاً منه. والقافلة التي سنلقاها في المدينة العجيبة وصلت قبلنا، بحماتها من العسكر المغاربة والأتراك الجزائريين ذوي البرانس الزرقاء الفاتحة التي تزيِّن أفراد المفوَّضية الفرنسية. انتظرناهم قليلا، فقد أخطرناهم بواسطة «رقّاص»[1] مرَّ من مكناس. ومع ذلك، أن نراهم يظهرون هناك في هذا المنبسط التي توهّمنا استكشافه، والذي بلغناه بعد عشرة أيام من السّفر عبر الأمكنة الموحشة، وأن نتعرّف عليهم فجأة من بين هؤلاء الفرسان الذين يملؤون الطرق وسط هذه الحركة التي أتتنا من عالم آخر وزمن آخر، أمرٌ بدا لنا غير محتمل. لفَّتنا لحظة حمى العيون التي تبحث في البعيد، بين هذا العدد الهائل من البرانس، عن شخصين أوروبيين صديقين، ووجهَين ينتميان إلينا، أحدهما شديد البياض مثل الآخر، غير أنه جالس جانبيا على الفرس، كما لا يمكن لأي شبح عربي أن يجلس أبداً على مطيّة. وفي اللحظة التي أخطرني حدسي، قبل أن أميز أي شيء محدد، قلت في نفسي: هذه المرة، أنا متيقن، ها هم أمامنا. عدوت نحوهما هما الحاضران هنا بمعجزة. وللتوِّ غمرنا الفرحُ، فرحُ أن أرى في تلك القافلة البعيدة حركات متوافقة مع حركاتنا، إذ ها هما يأخذان الهيئة المتموّجة والممتدة للسرعة، وهاهي الوجوه تنكشفُ لي أخيراً، وتصلَني الأصوات الأليفة، والتصفيقات واضحة أكثر فأكثر، مرسلةً

(1) هو الاسم الذي كان يطلق على الشخص الذي يكلف بالبريد.

بالحركة الفرِحة لليد. وهو ما كان! ففي الإيقاع الصاخب والمتسارع للعدو، تجاوز موكبنا الآخر. كان علينا التحكّم في خيولنا الجموحة بأصواتنا وإرغامها على العودة إلى الوراء. بيد أنها في فورتها ظلت ترقص وتجفل مانعةً إيّانا من السلام بالأيدي الممدودة. وحينها قفزنا أرضاً، وتركناها للفرسان الزُّرق الجزائريين، تحت حماية العسكر المغاربة الذين ظلوا على مطاياهم قويمي الجلسة وصامتين، وبنادقُهم الطويلة تظهر من خلف ظهورهم. ثم سرنا للجلوس وتبادل الحديث عن أشياء وطننا، على شطّ غدير بلَّوري يسيل بمحاذاة العشب. إنه وادي فاس، حيث السلاحف الصغيرة تأتي عوما للتحديق فينا مديرةً رؤوسها، بعيون بالغة اللطف وذات مُسحة بشرية...

***

ها هي فاس تظهر لنا.

كانت كُوَم من الصخر تحجب عنا رؤيتها، في سفح الموجة الكبيرة من الأحجار التي تحمرّ أكثر فأكثر في المساء. انعطف الطريق الذي كنا نتبعه. وهذه الثُّنية في الأرض التي تتجه يسارا، كما قماش ديكور مسرحية، سارت لتمتزج بالجبل. حينها ظهر خطٌّ من الفتحات ذو طابع متوحّش، تتباعد فيه الأبراج، ومن الوراء قلاعٌ وصومعتان خضراوان بالفسيفساء. لكن شيئاً أثار دهشتنا، فكل هذا الذي يلمع بحدة في شمس الأصيل يبدو من غير عمق. ثمة خطان أو ثلاثة للدفاع، ولا مدينة وراء ذلك، حتى الفاصل بين تسنُّنات الأسوار، والفراغات المخضرّة للسماء (يبدو أن فاس تنتشر في حافة السهل، ومن الجانب الآخر، تنساب عبر الوادي في وهادٍ عميقة لا نراها).

ها نحن حاذيناه، ذلك السور الغامق من الآجر والطين، وهو مشع في المساء أكثر من الأزرق الباهت للصّوامع. والمراعي تصل حتى أعتابه الشريفة، بدائيةً كما هي عشرين فرسخا أبعد من هنا، بادية من العشب كما هنالك في جانب المحيط الأطلسي حيث أرى أُفُقها يتمدَّد. وحقول البحر تحت أسوار المرسى لا تبدو متوحشة إلى هذا الحدّ. وإليكم ما هو الأكثر غرابة: هذه المدينة المغلقة بإحكام (بحيث لا نرى فيها أي باب)، هذا الشيء الهائل الملغز والمحير بألوانه الخاصة، الذي يبدو كما لو أنه انبنى هناك بنفسه، والذي نكتشفه في

الوحدة، يتابع حياته الصامتة العتيقة.

والآن، ها نحن نتجاوز الحاجز الكئيب الذي يواجه امتدادات الغرب. ظللنا نسير على الجهة الشمالية للأسوار، مع شريط الدواب والناس الذي كان عبارة عن صفٍّ ضامر وحي. ما الذي يوجد هنالك؟ ليس ثمة من ضجيجٍ ولا من لغط في المدينة، ولا أثر للدخان، ودائماً لا وجود لمنفتح نلج إليها منه. انزحت شيئاً ما عن السور الداكن لأرى سورا آخر ينهض من الخلف بشكل موازٍ، مجهّز بحصون مشابهة. إنها أسوار داخل الأسوار، وهي معا ذات لون وحيد بحيث إننا من دون الإحساس المجسّم للبعد سنخال أن الواحد منهما يتراكب مع الآخر. وأبعدَ من ذلك هناك برجان أو ثلاثة أبراج صغيرة ومستطيلة. إنها المدينة السلطانية، وهي تبدو كأنها قفراء في المنبسط الفارغ، ومكونة بالأخص من الفضاءات الخالية، ومن أسوار فظَّة تتداخل، كما في قصور الخرافات العربية التي بناها الجن بشكل رائع بعيداً عن بني البشر كي يحبسوا فيها ابن هذا الملك أو ذاك. وفي وسط هذه الأسوار ينغلق السلطان. وأحياناً حين يكون الأصيل جميلا، يظهر شبحٌ بشري صغير وحيدا، كامل البياض بين ظلال الخزف الإيطالي، هناك على سطيحة أشار لي إليها مرافقاي؛ ومن يراه يعرف أنه هناك، وأنه هو الذي يحلم أمام المجد البعيد للمغرب بعد صلاة المغرب، هو السلطان الملغز، أمير المؤمنين وحامي حِمى المِلَّة والدين، والشريف صاحب البركة...

***

بدأت حياة فاس تتبدّى لنا. عدد كبير من الناس يتكئون على قدم السور في شكل خطوط شاحبة. أناس يتخذون كلهم الوِضعة نفسَها: الركبتان عند الذقن، والأعضاء مخفية تحت العباءات الداكنة، والأجسام منكمشة على نفسها في أصغر فضاء ممكن. إنهم يلزمون الصمت، منهكين ومتحجّرين كما لو بفعل سحر ساحر. ولا يد واحدة تمتد لطلب الصدقة. لكن أحياناً، طالما نحن نمرّ، يستدير وجه من الوجوه، ليرقُب من تحتُ مرور الروميين على جيادهم، بمقلة ذابلة. أما الآخرون فلا يرفعون أبصارهم، وذلك عنوةً كما قيل لي. وبما أنهم عاجزون عن منع وجودنا المكروه في المدينة المقدسة، فهم يرغبون على الأقل في تجاهله ويواجهوننا باللامبالاة الصارمة. لكنهم هم أنفسهم يبدون كما لو أنهم يتجاهلون بعضهم

البعض... وحين أستدير نحو أولئك الذين تركناهم وراءنا، أقف على انعدام التأثر نفسه، والصمت الجماعي الفظّ. هل يحدث لهم أن يحلموا؟ أتخيل أنهم ببساطة كائنون، وموجودون، فقط، ككائنات تخلُد للراحة، وسلوكها جميل ومُتشابه، باعتباره سلوك النوع البشري. وكل واحد منهم أيضاً، وبشكل غامض، يلتذ بسكينة الجبل والسهل، بسكينة الصمت، وعدم الحراك أمام منظر طبيعي خالد، عند قدم أسوار لا عمر لها، بين أشياء تتكلم بصمت عن اللانهائي الرتيب للزمن والأجيالِ التي تتشابه دوماً، وعن الموت حيث يتفكّك كل شيء بسهولة ويصعدُ للأعالي غبارا بطيئا تحت سماء تكون دوماً يافعة، وعن العودة المتكرّرة للربيع وللزهور في المراعي.

مررنا أمام ضريح ذي حيطان واطئة من الآجر. إنه طللٌ من أطلال القرون الماضية. وقرب تلك القبّة البئيسة، توجد شجرة زيتون لا أوراق فيها سوى خرق وسخة علقها هناك زوار متعبِّدون.

ثم ها هو «مغسلُ الأموات»، وهو عبارة عن حوض كبير لصيق بالأسوار تدوَّرت جنباتُه من كثرة الاستعمال. هنا، ومنذ قرون لا يعرف أحد هنا عدَّها، يؤتى بالأموات لغسلهم قبل تكفينهم. وجثمانا بعد جثمان، توالت في هذا المغسل أجيال أهل فاس، وسيمر بها بلا شك أولئك الذين أراهم هناك منكمشين في وضعيتهم الفاترة، في هذه اللحظة، ويغفون من غير إغلاق أعينهم.

وفي اللحظة الذي ظهر لنا قوس باب السرّ، فإن هذا القبر العتيق، وهذا المغسل الجنائزي هي التفاصيل الوحيدة عند قدم الباب المعتم. كم هي متناغمةٌ مع الحزن المخيِّم على هذا الشعب المرهق الذي يبدو وكأنه لا يحيا. موضوع الموت هو الذي يدقُّ باب المدينة المقدَّسة، كي يتكرَّر حواليها وينتشر. والمرعى الرَّطيب يلفظ أنفاسه هنا. سرنا بمحاذاة أسوار مدينة السلطان كلها؛ وعند قدم تسنُّنات السور الجديدة التي تنتشر أمام أعيننا، لا أرى غير الأحجار والغبار والعقم. والسور الحقيقي لمدينة فاس يصعدُ ويهبط ويضيع، ليستمر وحيداً في البعيد، بثنياته وأبراجه المهترئة، عبر مستويات الجير والأجراف والمنحدرات، وبين الأنقاض والمقابر.

يا له من مشهدٍ قاسٍ. إنه أكثر كآبة وأشدُّ قدما من نور الأصيل الذي لا يبدو أنه يأتي

من السماء وإنما يتدفّق من العناصر الأرضية، ومن الأسوار والصخور، ومن العديد من الفضاءات التي تنتشر في المرتفعات. أثرُ الناس يغطي هذه المنحدرات، وأنا لا أعني الآثار الحاضرة (ليس ثمة من قاذورات، ولا أثر لنفايات الحياة المعاصرة واليومية)، وإنما أن هذه الأرض قد انهدَّت على ما يبدو. فعلى هذه الأرضية الصفراء المغبرَّة، ثمة طرق غير واضحة وعتيقة تتقاطع في كل مكان، وفي كل مكان مظاهر الحريق، حتى في الربيع، بذلك اللون الموحش الذي هو لون السّور العتيق أيضاً، ولون كل ما يستمر في الوجود منذ عصور سحيقة ولا يتشبَّب من الداخل. إنها الكآبة الأكثر هدوءاً وإشعاعاً. وخارج تلك الأسوار حيث تنحبس مائة ألف نسمة، فإن المساكن الإنسانية الوحيدة هي المقابر.

غير بعيد عنا، مع ذلك، عند أول منعطف في الجبل، يقطع الصخرَ خطٌّ باهرٌ ومستقيمٌ للجير. إنه الشيء الوحيد هنا الذي قد يكون منتميا للماضي أو الحاضر، فهذا السور الصغير مكانٌ مقدسٌ، إنه مصلّى. في أيام الأعياد، يأتي السلطان هنا لتلقّي بيعة شعبه. وفي المنظر الشاسع للسكينة والأطلال، فوق الأشياء الكثيرة التي تشرف على المنحدر، ينبثق شخصٌ صغيرٌ، ذو وقار لا ريب فيه، على السور الهائل في هيئة إمامٍ متوحِّدٍ وترتفع يده في حركة مُبارِكة.

***

توقَّفنا كي نتشرَّب من هذه الأشياء التي كان معناها ينبثق منها في الأصيل. وحين عاودنا المسير، كانت البادية خالية تماماً. لقد بدأ المتجوّلون والفرسان والقطعان الرجوع إلى المدينة كي يتكوَّموا خلف الجدران، في مأمن من قطّاع الطرق ومن كل ما هو مخيف في الليل. وفي اللحظة التي ولجنا فيها قوس «باب الساجمة» وحين التفتُّ ورائي، لم أر في البعيد خلف خطّ تسننات السّور غير المدى المقفِر حيث يرخي الليل سُدوله.

ها نحن في فاس. في فاس لا في مدينة كالمدن الأخرى. ليس ثمة من بيت، فقط واجهات الحصون. واصطفاف ثقوبها السوداء عبارة عن جيوب بحجم حذوة الحصان، وقببُها العميقة والمنعطفة، والأبراج العالية، والبعيدة منها، تلك التي لا نرى أساسها، عالية وهائلة كما الأجراف، جليلة في شيخوختها، وملوّنة بذلك اللون الذهبي الغامق للحزاز الذي نخاله أثرا لكل الشموس الغاربة التي تستنير جبهاتها بها. وأخيراً أراض خالية في أكثر منظر إقطاعي

حزنا وأنفةً في العالم. وأينما ولَّينا وجهنا، تبدو كل هذه الفضاءات مسوَّرة. ونسيم المساء لم يتسلَّل لها بعد. تنبعث حرارة غير متوقعة من شقوقها العمودية الحجرية؛ وغبار أشقر يطفو ويتشرب من روائح الحياة المغربية، ذلك أن أناسا كثيرين يملؤون هذه الساحات أو يحاذونها. وفي أولى تلك الساحات ما يشبه السوق بمحاذاة الأسوار. هنا تتمُّ المساومة في البضائع تحت الأفاريز؛ وعلى الأرض غير المستوية يجلس بدوٌ بين كُوم العشب وحميرهم وجمالهم. وعبر هذا الزحام من الدواب، وجد عسكرنا صعوبة في أن يشقوا لنا الطريق، بالرغم من صراخهم المتكرر: «بالاك».

وفي الساحات الأخرى الشاسعة، حشدٌ من الناس جالسون القرفصاء، صغارا تحت سطوة الأسوار العالية، بحيث يمتزجون بها من فرط قتامتها ولونها الترابي. إنها تمتدّ في خطوط كبرى نخالها من بعيد منحدراتٍ من الغبار، والشكل الإنساني الذي تمنحه عباءاته القاتمة شكلا ضبابيا، ينتهي في المساء بالانمحاء في هذا الخليط العدَدي.

***

في أكثر هذه الباحات شساعة، يوجد المشور[1] الذي لا يزال يخدم أمجاد السلطان الخيالية؛ وتحت أسوار رائعة وقلاع متراصَّة كان يُسمع عزف الموسيقى تتخلَّلها قرعات الطبلات البربرية الصاخبة. كانت تتوقّف لتعاوِد نفسها بشكل بهلواني. بدا ذلك لعبا من غير جهد أو سبب، يتسلى به المتجولون، أصحاب الليل والأطلال الساكنة الذين جاؤوا هناك فقط للجلوس والتسلية بعض الوقت بآلات العود والدفوف. تماماً كما يتسلّى آخرون بورودٍ يستنشقونها وينظرون لها، لأن الموسيقى أجمل في المساء، مثل الورود. خرج سرب جمال من تحت قوس واسع معتم، وعبر الساحة الكبيرة من محورها الأطول في موكب طويل، بالأبهة الوئيدة لأسطول يدخل المرسى، ثم انغمس في الطرف الآخر تحت خط من التسنُّنات، بين قلاع هائلة في الفم الأسود لقوس آخر مواز للقوس الأول. مرَّ رجال مسلحون في مجموعات فبدوا صغارا أمام أسوار هذا الفضاء الهائل. وقد كنت رأيت في أمكنة أخرى كطنجة والعرائش والقصر الكبير وفي أحواز فاس فرسانا بهذه الأبَّهة والجمال، وقوافل أطول وأكبر من الجمال، وسمعت موسيقى مغربية شبيهة. وهذه الصفوف البشرية المتكئة على

(1) قصر السلطان.

الأسوار كانت شبيهة بتلك التي رأيتها في القرى والمدن الأخرى. لكن وجود المآثر الهائلة يمنح لكل هذا الآن معنى وقيمة رائعين. كل هذا الذي لم أحسَّ أمامه قبلا سوى بغرائبية متنافرة، بدا لي الآن يرفل في وحدته العميقة القديمة والتاريخية. هذا الزحام الرمادي الفاتر بدا، بأسلوب هذا المعمار القديم الحي نفسه، عبارةً عن هيكل عظمي لحياة بشرية انقرضت بغرناطة وطليطلة. إنها الإنسية الإسلامية نفسها التي حلمت بها البلاد المسيحية بكاملها، والتي انبثقت من إسبانيا الوثنية ودخلت فجأة فرنسا لتصعد حتى مدينة بواتيي Poitiers. وحين اكتشفتُ هذا الحشد من الناس في مركزه الأصل، وفي إطار مآثره الموروثة، قريباً من قصر سلطانه وقائده، أحسست لأول مرة، منذ أن حطت قدماي بالمغرب، أنني أمام شعبٍ: شعبٍ حقيقي تطور بفعل نماء حضارته الخاصة، ووراءه تاريخ شعب حق.

إنها قرون من تاريخ دائم التشابه، عدا الانحطاط التدريجي والجدب المتواتر للقوة والرغبة في الحياة. ففي هذه الباحة الشاسعة لل«مشور» تدور مراسيم الأبهة والبذخ كما كانت في الأزمنة القديمة. والشخص المعاصر للمرينيين، الذي يبصر اليوم بالسلطان ممتطيا صهوة جواده، متَّشحا بالأبيض ويتقدم خمس مائة برنس، يعبر هذه الباحات كي يتجه إلى الجبال لتلقي البيعة والنطق بالكلمات الشعائرية نفسها، هل يستطيع ذلك الشخص أن يدرك أن نصف ألفية قد مرَّ على مماته؟ لا شيء تغير إلا سُلطة تلك الكلمات الشعائرية وعددُ القبائل المبايِعة. وإذا كانت الانتصارات على المتمردين اليوم خيالية، فإن فيالق الجيش السلطاني تمرُّ في عودتها من تحت أقواس النّصر الرائعة هذه. وعلى السطوح هناك دوما القطعان المتزاحمة للنساء اللواتي يصفّقن لمرورها ويطلقن الزغاريد الرقيقة المرتعشة نفسها. هم لم يعودوا اليوم يجرون وراءهم الغنائم والسبايا من الصبيان والصبايا للحريم. وإنما هم يحملون في قفف مليئة ما يعرفه الناس من حصاد الرؤوس المقطوعة التي ستعلّق بشرفات «باب المحروق». كما لا زال يباع العبيد مرتين في الأسبوع في السّوق الكبير. والحقيقة أن العصور الوسطى غدت خالدة هنا، وحين نقرأ على باب يكون حديثا تاريخ 1321، المكتوب بالأرقام العربية التي أصبحت أرقامنا الحديثة، ننسى أن هذا التاريخ يحيل إلى التاريخ الهجري؛ فينتهي الوهم: إنه، ويا للمعجزة، تاريخ سنة من عصرنا لم تمرَّ من هنا أبداً، وفي فاس هذه التي نلج الآن، فإن القرن الرابع عشر الحالك بدأ منذ فترةٍ فقط.

هل سأستطيع يوما أن أحفظ الطريق عبر هذه المتاهة المسوَّرة التي تتبع هذا «المشور»؟ كيف لي أن أعثر على هذه الأبواب العالية المقوَّسة وأتعرَّف عليها خلف الحامية؟ كم هم جميلون هؤلاء الفرسان حين ينغمسون في ليل قبَّة عربية من غير أن يتزاحموا في صفّهم! ويا له من إطار للفرسان العرب هو هذا القوس الإسلامي في مدخل تلك القبَب! إن منظره يتقطَّع بشساعة على الظل الداخلي، وبساطته القوية تعلوها في الأساس مُنحنيات حادّة، كما لو كانت جوقة أبواق وطبول توقِّع هناك بدقة ألحانها وإيقاعاتها. وحول ذلك، زخارف إكليلية على الحجر تطلق أشعة هادئة؛ وفسيفساء زرقاء ولازوردية تلمع في شكل نصف نجمة، وتشابكاتٌ هندسية تغني موسيقاها التَّوريقية. لكن فوق هذا الجمال الآسر ثمة قممُ الحصون الإقطاعية الصارمة التي تهدِّد السماء برؤوسها المنتصبة. إنه تباين غريب يترجم الرّوح المزدوجة للأجداد، الذين كانوا فاتحين بحدّ السيف وشعراء فطاحل في الآن نفسه.

نحن متأكّدون أن هذه الأقواس قد شُيدت لشعب من المحاربين الفرسان. فعلوُّها لم يُقَس على قامة المشاة، وإنما على هذه الكوكبة من الفرسان أمامنا، ببرانسهم المنسدلة، وبنادقهم المتوازية المتأرجحة على أكتافهم بحيث تتأطَّر داخلها بشكل رائع. وتحت القوس المعتم لكل قبو، تنزلق حذوات الجياد على الحصى لتخلِّف رنيناً كاسراً.

دائماً صفوف الفتحات المنتظمة في الأسوار ترتفع منها حُصون مستطيلة كبيرة على مسافات متساوية كما لتتحكَّم في تلك الفوهات. الحديثة البناء منها توجد قرب العتيقة، لكن على نمط واحد. نعم، إنها المخلوق نفسه الذي تتوالى حياته القديمة هناك، والبنية نفسها وما تأخذه من مواد لتعيد تركيبها وتنظيمها من جديد بإيقاعاتها الخاصة. كانت الأبراج والأسوار، سواء حديثة أو متهالكة وآيلة للسقوط، مبنية من الطين نفسه. فهي عبارة عن فرشات من الحصى بين صفوف من الآجر تتناوبُ بشكل مائل، تماماً كما في غرناطة، مع الصفوف نفسها من الثقوب الصغيرة التي لا يعرف أحد في إسبانيا علَّتها ومرماها، والتي علمت هنا مصدرها ووظيفتها، وأنا أتملى اليوم في البنائين العرب يشتغلون كما كانوا يشتغلون في الماضي، صانعين الرؤوس المسننة نفسها للمنافذ التي تنبثق من كل مكان، مذكرة إيانا بالجيوش الإسلامية العريقة، والغابة النِّظامية للحِراب التي تشهرها فيالق الجيش فوق الأسوار.

ثم وصلنا ممراً ضيقاً من غير نهاية، بين منحدر وإحدى البوابات العسكرية التي لم أستطع التكهُّن بما يوجد وراءها. ثمة سور هائل يحدُّ هذا الممر، وهو من العتاقة بحيث إن قمته كانت نصف خراب وتنثني كما قطعة من تلٍّ نحو السّهل. وثمة باب يخترقه، يبدو صغيراً، خلا من كل التزاويق التي كانت تزينه، فلم يعد وقتها سوى ثقب قبيح في شق جرف.

وحينها انفتحت أمامنا فضاءات شاسعة خرِبةٌ وكئيبةٌ بحيث اعتقدت أني أرى المنطقة الخارجية للمقبرة، وأني خارجٌ من فاس من غير أن أكتشف أثرا لبيوت حقيقية وبسيطة بين هذه الأنقاض التي تنتمي لزمن آخر. كان ذلك أرضيةً عتيقةً ومن دون خضرة، وأراضيَ خلاءً تنتشر فيها القبور، حيث ترتع الضباع؛ وكل ذلك هارب في البعيد في اختلاط شاحب نحو المنحدرات الصفراء والتالفة أيضاً.

وفي انفصال عن هذه العزلة بجرف بسيط، ثمة أناس بئيسو المظهر يتهادون على ما يشبه الساحة ويستعدّون لليل. سرنا بين المخيمات، والدوائر المتمدِّدة للجمال، والأكواخ والدَّواوير الحقيقية المتكئة على الأسوار الهائلة اللانهائية. فمنذ دخولنا إلى فاس، قطعنا ما ينيف عن الكيلومتر، ولا شيء بعد يشبه المدينة.

***

ها هو أخيراً رواق مزيَّن بالفسيفساء النادرة؛ فبعد العديد من الأراضي الخلاء والمعمار الثقيل ها نحن أمام الأزقة المعتمة والمزدحمة لفاس الحقيقية، فاس البالي، أي القديم والبدائي، تلك المدينة التي شيَّدها مولاي إدريس في وقت الكارولنجيين لدينا. وخلفنا تداخلٌ للقصور والممرات المقوَّسة والحصون بين الفضاءات الخلاء التي خرجنا لتوّنا منها. إنه فاس الجديد، المبني حديثا، في القرن الرابع عشر، المعاصر لحرب المائة سنة لدينا. وهو يتّصل بفاس البالي بالساحة والممر الطويل الذي أذهلنا قبل وقت. وقد وقفنا فيه على السكان نصف البدو الذين كانوا مخيِّمين في الساحات، أو متساكنين مع القبائل العسكرية للكَيش في أحياء وضيعة تتلاصق أكواخها كما تلتصق أعشاش الخطاطيف بالأسوار العالية. إنها مدينة أهل فاس الأقحاح، والمتاهة العميقة حيث تتوارى الأضرحة ذات الأثر القوي، وحيث يتابع الشعب المغربي حياته في شحوب نهار الأقباء الذي يسود في هذه الأزقة، الحياة نفسها التي

عيشت أيام المرابطين[1]، غير أنها حياة أكثر تركيزا على نفسها، وأكثر بعدا، وأكثر عزلة من القرون المجيدة حيث كان المغرب وإسبانيا يشكلون إمبراطورية واحدة.

عندها تناثر فريقنا ليغدو صفا طويلاً، وانغمسنا في السوق الواحد تلو الآخر، حيث الظل البخاري يتركز مع روائح الحوانيت في سقف مصنوع من الضفائر. وفي تلك الأزقّة حشرٌ من الناس ننبثق منه راكبين على فرساننا، ويتزاحم كي يتركنا نمرّ. وعلى يميننا وشمالنا، من تحت البرانس، تلمع باتجاهنا المئات من النظرات لا توحي بالنباهة.

كان التجار داخل حوانيتهم الصغيرة الضيقة، فوق الزحام، يحدقون فينا في صمت. والذين منهم يهمون بتناول شيء ما تتوقف حركتهم. وبمقدار ما نتقدَّم في مسيرنا، تحدّق فينا كل هذه العيون من تحت، بحركة عدوانية من الحدقة وحدها، من غير أن يُرفع أي وجه منكَّس نحونا.

وأحياناً يظهر إفريز مسجد ويطفو بأعمدته وبزخارف خشبه المتفتت التي فقدت ألوانها، كي يقطع صفوف هذه الصناديق التي تجلس فيها هذه الشخصيات القرفصاء. وبسرعة، بين دفتي باب المسجد الحديديتين بلونها الأخضر المشوب بالرمادي، نبصر بالأعمدة البيضاء والمنبر والفوانيس المشتعلة حول نافورة ماء، وبأشخاص منحنين للوضوء، فيما يسجد آخرون ويمسون بجباههم الأرضية الرخامية أو الزرابي.

هل أنا في مغرب الإسلام الأقصى على بعد خمسة أو ستة فراسخ من دمشق أو البندقية؟ إنني أجد أجزاء منها هنا، خاصة في المنعطفات التي تستنير بنهار أخضر تحت طبقة من الأوراق. هنا تسود التيّنة الشائخة الموجودة في البازارات التركية والسّورية، باعتبارها رفيقة الناس الذين يتزاحمون في هذا الظل المنغلق منذ قرون. إنها عبقرية الأمكنة الأليفة لدى الصبيان الذين يلعبون حولها، كما لدى الأجداد من قبلهم. وأمام سموق هذه التينة العتيقة، ينفتح سقف الضفائر، ومن هناك وإلى هذا النّفق المليء منذ زمان بالعفونة، يدخل الهواء النقي وبعض النور. يا له من وضوح ضبابي في هذا الوقت المتقدّم من المساء، غير أنه

(1) المرابطون هم الأسرة التي حكمت المغرب والأندلس بين 1042 و1147م. وهم قبائل بربرية تنحدر من الصحراء. عرف المغرب في عهدهم توسع حدوده شرقا إلى الجزائر وجنوبا إلى غانا. عضدوا الحكم العربي بالأندلس بعد انتصار يوسف بن تاشفين على ألفونسو السادس في معركة الزلاقة (1086م)

مضمّخ بالزمرُّد وبما فتّقه الربيع في الأوراق الرطبة المنتشرة هنا. وعند قدم الشّجرة المنتفخ، على الحصاة الملساء المحيطة بها، يتحلّق المدخنون حول كؤوسهم. وهي كؤوس شاي لا كؤوس قهوة. ولا أرى أي فرق بينهم وبين زُبناء المقاهي السّورية.

ها هي دمشق مرة أخرى، بهذا الحي الخالي حيث قطعنا بعد ذلك تلك الأزقة الشاحبة والباردة بين حيطان من الطين. وخلف تلك الحيطان توجد في الخفاء حدائق أعلى من مستوى الزقاق تكون سببا في هذه الرطوبة التي تشبه حفرة القبر. هنا تصبح الخطوات والأصوات بهيمة. ومن بعيد تظهر امرأة، عبارة عن كومة مغلفة تماماً بالصوف، فتلتصق بالحائط لتترك لنا الممر، ثم تدير رأسها شيئاً ما. يرتفع ساعدها ويحجب بثنيةٍ الشقَّ الأسود الذي تلمع فيه عيناها، فلا يظهر شيء مطلقاً من هذا الشكل الآدمي. لا شيء هنا جنب الجير البارد، وبشحوبٍ يشبه شحوب الجير، إلا رزمة عجيبة ذات طابع جنائزي غامض....

وفي قمّة السور، خلال الخضرة الناعمة للمساء، تبرز أوراق شجرة برتقال مليئة بالأزهار يتدفّق عطرها أمواجا؛ وفي هذه الحدائق المعلقة، عندما يغيب كل شيء في الغسق، يبدأ البلبل نشيده. إنه طائر الأصيل الربيعي البلوري. لقد كان يغرد أيضاً في البساتين المغلقة، حين دخلت لأول مرة إلى دمشق منذ عشر سنوات.

ولإنهاء الوهم، بلغَنا صخب المياه الجارية متصاعدا، قوياً ورجراجا، وهو ما عشناه حول دمشق. تسلّقنا جسراً مقوّساً كظهر حمار، فأبصرت بزبدها الثلجي، كان يتسارع في قناة من الحجر، ليختفي خلف بناية مطحنة عربية بدائية.

وها نحن نصل إلى «عقبة الفئران» وهي زقاق مسدود تقطن فيه البعثة الفرنسية بشكل لائق. وفي وسط ساحة قد تكون ساحة مأوى إسباني، وسط البغال والجياد التي تصلح حذواتها، ترجلنا عن مطايانا. ظهر خدمٌ أدهشنا وجودهم في هذا المكان الخالي من كل بذخ وعظمةٍ، بلباسهم الراقي وسحنة الأمراء التي تبدو عليهم. قاموا بالسلام علينا وقبّلوا أيديهم[1] وساروا أمامنا بشكل مفخَّم حاملين الفوانيس، عبر سلم ثم ممرٍّ. وفجأة قام صف من الجنود، ببدلاتهم الخضراء وأقدامهم العارية المحتذية النِّعالَ، وقدموا لنا التحية

(1) كان السلام يتضمن فيما مضى تقبيل المسلِّمَين ليديهما. ونحن لا نزال نرى أثرا لهذه العادة بالبوادي المغربية.

العسكرية. كانوا أشبه بفرقة من القرود تؤدي تمرينا في سرك.

وها هو الجمال السري لدار مغربية أندلسية كبيرة ينفتح أمامنا. ثمة أقواس عالية حول فضاء مربَّع فسيح، وفي الوسط نافورة ينبع منها الماء. وخلف الأعمدة تظهر أبواب كبرى من الصنوبر حيث تتقاطع التّواريق العربية القديمة بمثلثاتها. غير أنها أبواب موصدة؛ ومن وراء إطار قوس مزدوج تبدو الحدائق؛ حدائق محاطة بأسوار ومسيَّجة بالأعمدة. إنها حدائق عربية حقة، وأعمدتها مغلفة بالفسيفساء المربع، بين كثافة أشجار البرتقال. وطوال الممرات، تلمع الفوانيس المثبتة في الأرض كما لو كانت مخصَّصة لحفل، بحيث تلمع معها الخضرة الغامقة المبرنَقَة. وتحتها فوانيس أخرى تحجبها جزئيا الأوراق، تمنح إيقاعا للأرض كما لو كانت دوداً برّاقا راميا بنوره وبشكل ضبابي على أسفل خيمة بابها مفتوحة. وفي الفضاء الهادئ للأقواس، على الممرات الضيقة المزينة بالزليج تتهادى أشباح رائعة ذات عباءات رومانسية خارجة لتوِّها من ألف ليلة وليلة. ويصل سمعي خرير الماء الجاري، بحيث أتكهن ببريقه الشاحب الذي يخترق عتمة الرياض[1]...

أما أزهار أشجار البرتقال، فهي هنا سيّدة الحضور. أصبح المكان معتما الآن. ولا نجمة من نجومها الخالصة تظهر للعين، غير أن رائحة عذبة وعطرة تطفو في الليل، محبوسة هي أيضاً بين الحيطان. بالكاد أحسست بالربيع في مدينة القصر الكبير، وفي الأودية والمنبسطات التي تنبت فيها شجرة، والتي عبرتها لمدة ثمانية أيام. إنه ربيع لا يدرَك إلا في المراعي ذات الزّرابي الذهبية والوردية بلا روائح. لكن في قلب هذه المدينة المغلقة بأكثر من حصن، وفي هذه الحدائق المسيَّجة بالأسوار حيث يوجد أكثر من مواطن الحريم، عرف العرب الشَّهوانيون كيف يخفون أنفسهم ويركِّزوا كل هذه الملذات.

(1) الرياض يطلق بالمغرب على الدور التقليدية الفاخرة التي تحتوي على حديقة وفناء به نافورة.

في ظل مدينة فاس

-1-

18 أبريل/ نيسان. استطعت بالصّدفة أن آوي نفسي في غرفة لم تخلُ إلا منذ يومين. وقد هنأني صحبي على ذلك، إذ كان علي، فيما يبدو، أن أتوقَّع لنفسي التخييم في الرياض في إحدى تلك المربعات المقعَّرة التي تنبثق منها أشجار البرتقال، بين الشرائط المستطيلة للفسيفساء. وكنت سأحس بالفرحة أن أستطيع مرة أخرى أن أدقَّ أوتاد خيمتي هناك. ليس هناك في فاس من فنادق ولو عربية. والرحالة الأوروبي، إذا لم يستضفه أصدقاؤه، ليس له من بديل غير التخييم في ساحة القوافل، بين البدو والبهلوانات والزنوج والأولياء والجمال والبعوض، على طرف الأراضي الخلاء الرائعة الهاربة تحت الشاشات المسنَّنة السوداء.

لم تكن غرفتي بعيدة عن البعثة الفرنسية في زقاق «عقبة الفئران»، أي في الزقاق نفسه المليء بالحصى، في الطابق الأول لدار عتيقة مغربية طبعاً. وليس هناك غيرها بفاس، حتى دار القنصل الذي منحني ضيافته.

وللوصول إليها، على المرء، كما في جميع الدور المغربية، المرور من تحت قبة تكون ليلاً مأوى للحراس ذوي اللّحى الوقورة، الذي يبسطون هناك حصيرهم، وتكون في النهار مكاناً «لأناس المقعد»، من زبائن، وأصحاب الطلبات، والمرشَّحين للحماية الفرنسية، الذين يبتغون أولا حماية بوابي القنصلية وخدمها. وبعضهم يسيرون بعيداً بحماسهم، بحيث نرى رجالاً من علِّية القوم، بحايكهم الرفيع الأبيض الناصع يتبع بفخر في الشارع كلب القنصل، كي يوهم الناس أنه من معارف دار القنصل وأن يد فرنسا قد امتدت إليه. وهذا لا يعني أنهم يحبوننا، ولكن أنهم يحلمون بالانفلات من «المقدِّم»[1] الذي يبتزّ منهم تحت التهديد بالسجن «الدورويات» الحسنية، تلك الدورويات الفضية الكبيرة التي تنبعث منها رائحة النحاس.

(1) هو ممثل السلطة في الأحياء والقرى.

من هناك يتجول أيضاً رجال قافلتنا. على محياهم علامات التعب والإنهاك. كانت عيون الجيلالي الرائع خابية، لا ينبعث منها أثر للضحك. كانوا كلهم يقضون اليوم في النوم قرب الباب، أو تحت أشجار البرتقال في الرياض. لا شك أن فاس، مدينة الملذات، لا تعني شيئاً لهؤلاء العرب. فهم يملكون الكثير من المال. الجيلالي تسلَّم العربون، وساسة البغال باعوا الطيور الصغيرة المغردة التي رافقتنا في الرحلة بثمانية وعشرة «دورو» للطائر الواحد. لم يتردَّد الهادي خادمي في أن يستلف مني بعض «البسّيطات». وعند السادسة صباحاً هرع إلى سوق الصائغين وساوم في أحد الحوانيت بضاعة هامة: ثلاث أحزمة منسوجة بخيوط الذهب لعائلته في طنجة. فهو متزوج بامرأتين «الصغيرة والعجوز» (ولا هدية للعجوز) وله ولدان: «ياسيدي، ولد وبنت، صغيرة، صغيرة»...

وبعد أن سلمت على كل هاته الشخصيات، وصلت إلى مأواي عبر سلم حلزوني، أسود ومليء بالأسرار. وغالباً حين أصعده أسمع فوق رأسي عدوا سريعا، وأبوابا ضخمة تُغلق بصوت مدوٍّ، وصرير متاريس. في الطابق الفوقي يبدو أن هناك البيت الشخصي لأحد الساسة، وفي السلم المشترك تكاد نساؤه في كل لحظة تصادفنا. وغداة وصولي، أخطأت باب غرفتي وفتحت غرفتهن: يا له من موقفٍ محرجٍ، فقد رفعت امرأة عجوز يديها وارتمت على العتبة. وبعد برهة أبصرت بصبيتين، وبفستان من الحرير الأصفر هارب من أمامي، وبحركة يدين متشنِّجتين تغطيان وجها.

في غرفتي الواسعة تعمُّ عتمةٌ ذات طابع ديني، لأن النور يدخل هناك مغربلا بألوان قانية وكستنائية نابعة من النافذة الزجاجية الملوَّنة. عمودان هائلان أبيضان تخالهما عمودي مسجد يسندان العارِضات. لا أثر لمكتبة أو أثاثٍ يعكر صفو البساطة الصارخة التي تسود المكان. ثمة فقط زربية كبرة، و«أريكة» واطئة كبيرة تغمر أصوافها المتعددة الألوان الجنبات الثلاث للغرفة، وعليه حتى ثلثي الحائط زربيةٌ مغربية رقيقةٌ تكرر بتناوب الأصفر على الأحمر والأحمر على الأصفر، ثم حذوة الفرس التي توضع في كل البيوت المغربية درءا للعين. وفي فرجة عميقةٍ قوس النافذة الزجاجية، وفي الأعلى تحت خشبة السقف، صف من الكوّات لا يدخل منها أي شعاع شمس، وإنما فقط نور خافت باهت، يسيل برطوبة الماء ببطء على بياض الحائط. كل هذا يجعل من الغرفة خلوةً آمنةً مغربيةً جميلةً. الظل فيها وافر وعذب.

إنه عبارة عن شفافية متوازنة، هي نفسها لا تتغيَّر من الصباح إلى المساء، مثلها مثل الحرارة التي لا تتزايد إلا قليلاً في الوقت الذي تطفو فيه الشمس بفوران نورها على المدينة الرمادية الفاقدة لألوانها. في هذا النور الخافت الذي لا يتغير، يكون بياض الأعمدة والحيطان ناعما وسماويا؛ إنه عبارة عن ظل ناصع غير محسوس. وعلى هذا البياض الفارغ، تزهو الألوان الأولية الباذخة للزرابي؛ ويكون بريقها العميق أشبه ببريق الجواهر المخفية. إنه ديكور صارم يعبر عن ثراء تجريدي، فليس ثمة من صورة للعالم تأتي لتمتزج به كي تفتن النَّفس. وفي قلب هذا البذخ الذي تشع به الألوان الخالصة التي تغنّي بحرارة وتتناغم في الظلّ، يظل الفكر في عطالة سهلة، من غير أن يأتي جَهدا، بحيث تتبع العين تناوبَ الألوان الحمراء والصفراء لتلك الأقواس المتكرِّرة التي ليست سوى إيقاع وموسيقى على الحيطان. تركت نفسي تتشرَّب بهذه التأثيرات؛ إنها تخدرني كما دخان الحشيش. فهؤلاء المغاربة يتعلمون في دورهم لذة السكوت عن الكلام المباح، وأمام برَّاد الشاي والكؤوس، يتحوَّلون إلى أشياء.

لكن لا أدري ما الذي يوجد في هذه الغرفة ويجعلها أشدَّ غرابة بحيث يتحلَّل فيها واقعي العادي: إنه ليس فقط عطر خشب الأرز والصندل الذي تعبق به كل الدور المغربية، وإنما ربما أيضاً أثر بخور يأتيني مبهما ويصعب علي تحديد منبعه، وذكرى بخور الألوة وصمغ جاوة. إنها ما يشبه روح المكان، روحها الخالدة التي لن تكفَّ عن التبخر.

فتحتُ النافذة الزجاجية فوجدتها محروقة من الخارج. أدركت مصدر الرائحة الدفينة التي تعبق هنا. ربما كانت هذه الغرفة الكبيرة بيتا للنساء؛ فهذه النافذة صنعت كي تستطيع امرأة مستلقية على الزربية، ومن دون جَهد، أن تضع يدَها على المسند الحجري، وإدارة الرأس نحو أوراق الرياض، والتمتُّع في راحة كاملة بالرطوبة الدائمة. ففي هذه الخلوات المعتمة، التي لا يصلها أي صوت، تكون النساء حبيسات الغرفة في أحسن حال، خاصة في أيام الحرارة المفرطة، للتمدُّد على كنبات واطئة، والاكتفاء بخضاب أنفسهن بالحناء، والتعطّر واللعب بالمشط والمرايا. ذراعان بضّان يرتفعان، واستنادٌ كسول على العمود، وبريقُ المجوهرات، والنارُ المتراقصة للثام والقفاطين، كم سيكون ذلك رائعا على خلفية الظلال البيضاء هذه، في الضوء الخافت العجيب الذي يتنزَّل من كُوّات الحائط ليبردَ وهو ينزلق على سرير الجير من غير أن يترجرج أو يتغيَّر! وما يتبقّى من ذلك هو هذا العطر الخفيف الأبدي، وجاذبيةٌ فاتنةٌ،

لا أدريها، للطمأنينة والأمان العربي.

عند وقت القيلولة، وجهتُ نظري نحو منزه الحديقة الداخلي الجميل من خلال نقوش الحاجز. قبلها يوجد فناء أبيض تصعد منه شجرتا برتقال محمّلتان بثمراتها الذهبية؛ وجذعاهما يخرجان من دائرتين فارغتين في الأرضية. وفي الوسط، حنفية واسعة من المرمر يتصادى فيها خرير الماء الذي يفيض أبداً. هذا الفناء وهذه الحنفيةُ، وتلك الأشجارُ النادرةُ المحبوسةُ في المرمر، وظلالهُا التي تنقطع بدقة جامدة، ذلكم هو الجمال العربي الخالص. إنه جمالٌ أخّاذٌ للنور والماء والخضرة، ذو إيقاع دقيق، وتناظُم صارم، نتذوقه على الطريقة العربية بارتشاف بطيء، كما الألوان والروائح التي تنطلق من باقة، وكماء زلال بارد، من غير أن نتحرك، وبإغماضة نصفية للعين.

وفي ما وراء هذا المنزه، هناك المستطيل الأخضر المزيّن بالفوانيس في عمق الرياض. كانت كثافته الرطبة من الاندماج بحيث صار نظري، من هذه النافذة التي أطل منها، يضيعُ فيها من غير أن يستطيع اختراقها. هناك في التّحت تسود عتمة خضراء، وما يشبه ليلاً رطباً تسوده خضرة النباتات، متشربٌ بالخدَر شيئاً ما، بحيث لا أرى من الرياض سوى المدخل تحت شجرات البرتقال الأولى في جانب الساحة البيضاء. شرائط يعلوها الرخام، تمتد من رخام هذا المنزه لتفصل بين الأمكنة المقعرة التي تغرس الأشجار جذوعها في ترابها. وبالرغم من أن هذا الرياض لا يظهر عيانا إلا لساكنة الدار، فإن هذه الممرات أكثر سرّية تحت ذلك السقف من الأوراق المحنطة. يمكن للنساء أن تختلين فيه، اتقاء لحر الشمس. إنه حريم ودير راهبات؛ ففيه ينعمن بالأمن والطمأنينة، وبالسكون والرطوبة الأخاذة. وثمة سواقي من ماء ذي زبَد يشبه الثلج الذائب لا تكف عن ريِّ الأرض الكالحة في الأمكنة التي تنبت فيها أشجار البرتقال.

كان ذلك هو العطر الذي يتسرَّب إلي من النافذة، في الليلة الأولى التي قضيتها في هذه الغرفة. حبستُ دهشتي حين رأيت الرياض، فغطاؤه الكثيف لم يكن غير نسيج من الأوراق الفاتحة الصلبة وزهور بيضاء نجمية، وأوراق شجرة الليمون والبرتقال، ذات المنحنى الذي يشبه رأس رمح. وفي نكهته المرَّة تتركَّز طاقة الأرض والشمس. يا له من أريج فائض ورخو

ينبعث من هذه الزهور ويمتزج بها، كما يمتزج الخُمول العربي بصَبَوات الشّوق العربي! من هذه النجوم الناعمة، ومن بياض لونها تنبعث الآثار العطرة لهذا لعالم الإسلامي، التي تهيجُ وتنهِك. إن الأوروبي الذي زرعت فيه عشرون قرنا من المسيحية نوعا من الزُّهد، يمنع نفسه من هذه التأثيرات، كما أترك أنا هذه العطور والرّوائح، غير أن الروح العربية تنصاع لها من غير حَرج. في أمكنة مغلقة وبيضاء تشبه الكنائس الصغيرة، تنصاع هذه النفس لكل أنواع الشَّبق التي يبيحها الدّين. وهكذا فإن النساء العربيات لا يخشين أن يحملن في أجيادهن هذه الزهور التي لا نستطيع نحن استنشاقها طويلاً، وذلك في شكل إكليل...

لكن إرادة الربيع اليافع تضعُفُ في هذه التموجات المحنطة. فعلى الخضرة الدائمة، تتعلق تُوَيجات المشمش الوردية في شكل أسراب، وخلال اليوم بكامله يُسمع صفير الشّحارير الضخمة التي يلمع سوادها كما الخضرة المعدنية للرياض. هذه الطيور تتعارك وتطرد الواحدة منها بشراسة الأخرى بضربات من المنقار، عبر آلاف الفواكه الناضجة، في كثافة أوراق شجر أكثر نكهة ولمعانا من أوراق الدّفلى.

وأبعد من ذلك، نحو السور، ومن فوق السطوح المطلية بالجير، يصعد ستار ناصع من أشجار الصّفصاف. كم هي خفيفة وهوائية خُضرتها التي لم تكتمل بعد، فوق النباتات التي لا تتغير! وكم نحس أن كل ذلك يحيا ويتنامى، وأنه لا يظهر إلا ليختفي في اللحظة نفسها! إنها شرارة خضراء أُشعلت هناك من البارحة، وهي مادة روحانية تماماً وتشبه الشبح، وتذكرني بلحن لشومان عذب رقيق يسمى: «الأخضر الأول...». سرُّ ربيع الشمالِ القلقِ والسّريع يوجد كله في هذا الصفصاف، الذي يحركه في المساء نسيم عليل، بحيث يهتز مُنسابا من فوق إلى تحت كما مياهٍ جبلية على الحصى الناصع...

قرب هذه الحياة الهاربة يظهر جزء داكن من فاس العتيقة. إنه عبارة عن خليط من السطوح الجامدة، كما تراصف من شواهد القبور. ومن هذا الشحوب الترابي تنبعث كآبة يصعب الإفصاح عنها. ها هي المدينة الحزينة تمتد حتى جنبات الهضبة التي تبدو من هنا مليئة بالصخور، لكن الصخور التي تنتشر فيها هي، كما أعلم ذلك جيداً، قبور حقيقية قديمة. أميز هناك بعض الأضرحة المتهالكة، وقبب أولياء وعلماء كانوا مشهورين فيما مضى في جوامع

اشبيلية وقرطبة. كل ما يعود للعصور الوسطى أصبح خربا، بلون الرماد والحجر المحروق، كما لو أن نارا عاتية أتت على كل شيء هناك.

من الخلف هنالك البوادي الفسيحة. وفي البدء منطقة من البساتين الرطيبة، ثم تنحدر الأرض فجأة في انخفاض غريب وواضح ومعدني، حيث يلمع منعرجٌ من منعرجات نهر سبو (الجاري في أراض موحشة لا سيِّد لها). وأبعد من ذلك، ثمة جبال من الصخر الأجرد، يخفِّف من عرائها سحر المساء، بحيث تبدو كما لو أنها تحرّرت من ماديتها، من فرط ملوسَتها وشفافيّتها. إنها أشبه بجليد أزرق كما ذلك الذي كان الفنان ليوناردو دافنتشي يزرعه بشكل غريب في خلفية مناظره الطبيعية.

أما أسفل السماء في الغرب فهو ذو لون وردي أصبح باردا، في اللحظة التي يعلن فيها المدفع من جهة فاس الجديد عن موعد صلاة المغرب، وتبدو الشمس وقد غربت في الأفق. ثم إن راية بيضاء ترفع في أعلى الصومعة الوحيدة المجاورة لباب الفتوح. إنها صومعة جامع الأندلس، المغلّف تماماً بالجير البدائي، وهو أقدم مسجد في المدينة[1] بحيث يعود بناؤه إلى القرن التاسع الميلادي، في عهد الأدارسة. وبعدها تماماً تبدأ الإشارة بالفانوس نفسه ترفع في الوقت نفسه على الصوامع القريبة. ورأيت المؤذن يخرج من جحره ويبدأ يدور رويدا حول الصومعة. وحينها، تعالت من هذه الصومعة، كما من صوامع أخرى مختفية، أصوات أذان جهورية، لتتوالى وتتردّد فوق سماء فاس، بأعلى ما يمكن من المدى، بحيث إن المؤذن يرفع رأسه ويضع على جنب فمه يده كي يبلغ صوته آذان السامعين، مردِّدا بين الفينة والأخرى: الله أكبر، الله أكبر.

ها هي المدينة العتيقة تطلق مرة أخرى شهادتها: الله أكبر، تحت سماء وردية وباردة هذا المساء، كما في كل المساءات منذ اثني عشر قرنا. المدينة العتيقة العصبية حيث لا يزال الماضي البعيد حيا، والتي لا تعرف عن تطورات البشرية شيئاً. الله أكبر. ببساطة، دائماً، في العزلة وأطلال اليوم، كما في زمن إمبراطورية الشباب السعيد.

وهذه الصرخات ذات النبرة الغريبة، التي تتقاطع لتتواصل، وتمتزج في نشاز ذي تلاوين

(1) الحقيقة أن أقدم مسجد في المدينة هو جامع القرويين.

متعددة. إنه الأمر الذي ينشئ خلال بضعة دقائق جوقة بدائية تغلف المدينة الكابية وتثير القشعريرة في الجسم، كما جوقة الثعالب الخفية في صولتها الفجائية عند هبوط الليل. ثم يعم سكون الموت، بحيث نرى الراية البيضاء لجامع الأندلس وقد اختفت. فتنكس الرايات الأخرى بدورها، ثم لا شيء، لا دخان يتحرك على سطح مدينة فاس.

-2-

19 أبريل/ نيسان. في الأيام الأولى عبرتُ المدينة في كل الاتجاهات؛ فانغمست في الأسواق المغلقة والضبابية التي تتدافع فيها جمهرة بيضاء، في صفٍّ من النقط المتزاحمة كما النمل في قريته. وتهتُ في أزقة شبه مغلقة من فوق، كالحة السواد وعميقة وميتة، بحيث نخالها محفورة تحت الأرض، ونسير فيها في مدينة غطّتها القرون، تحت مستويات يتحرك فوقها الأحياء اليوم. قمت بدورة حول فاس بكاملها، عبر البساتين والجداول والصخور. لكن الحدائق والقبور والحوانيت المتراصة والحُفَر الخالية، أشياء كنت قد عرفتها؛ فقد أسرَّت لي بروحها في كل المدن الإسلامية العتيقة المشهورة.

أما الشيء الذي لا شبيه له، وما يستدعيني ويملك مني النفس يوميا عند غروب الشمس، فهو الفضاء الخارق الذي منه دخلتُ إلى مدينة فاس، أي متوالية تلك المساحات الشاسعة المحصّنة، والأطلال التي تنبثق وتهدّد المارة، وتلك التعرجات من الممرات والأبواب بين أراضي المعسكرات والاستعراضات، التي عبرناها بسرعة في اليوم الأول لوصولنا. كل مساء أعود إليها كي أعيش الدهشة كل مرة بشكل متزايد. وأنا أرغب من ذلك أن أتعلّم التعرف على أمكنتها، فهي تظل مبهمةً وشاسعةً وغير محددةٍ. وعند عودتي إلى غرفتي، إذا ما أغلقت عيني فإنني أعيش هلوسة من تسننات الأسوار ومنافذها، وأسوارا لا تنتهي تحاصر الفضاء من جميع الجهات، تتملّك الأبصار، وخطوطها اللامتناهية المليئة بالأوتاد، كما لو كانت أمشاطا هائلة تسِم بالسواد اللونَ الحديديَّ لسماء الأصيل. ثم إن الصورة تتوضّح بغتة فأرى باحات فسيحة، كل واحدة مختلفة عن الأخرى بناسها وأسوارها وقلاعها المتميزة. إنها تنويعات غير متوقعة على نمط مأساوي وخرافي. أستعيد صورة أبواب النصر المقوسة، بحواجزها وأبراجها ذات العين الوحيدة الآتية من زمن آخر، ومستطيلاتها المتعالية والمتداخلة، حيث يرتسم تحت تشابكٍ رقيقٍ من الفسيفساء القوسُ الشبيه بحذوة الحصان في بهائه وسواده؛ وهو كامل السواد لأن الأمر يتعلق بقبة تنعطف مرتين في عمق السور. إنها قبة عالية كما قبة كنيسة، ومخرجها غير بادٍ للعِيان. وأستعيد صورة دفّتي الباب العظيمتين

اللتين يعود خشبهما المزركش بالبرونز إلى عصر المرينيين[1]، وفي العتمة الداخلية، تحت تقاطع الأقواس العالية، تراكبُ الآجر المتقاطع والحجر، حيث منذ ست مائة سنة، ينام العسكر، والقضاة يقيمون محاكمهم مقرفصين في ثيابهم الصوفية البيضاء في مصطبة محاطة بالمتشاكين المقرفصين بدورهم.

لكن ما أستعيده بالأخص هو هذه البشرية ذات المظهر الأبدي، المتناغمة مع المآثر، المتدثِّرة في عباءاتها بحيث تبدو غامضة، وحيث تفقدُ كل شخصية طابعها الفردي واللّحظي لتصبح عمومية، كما هي هذه الأسوار بين يدي القرون المتلاحقة، لتغدو معاصرة لها. أستعيد الفقراء المعدمين والمتسولين الذين، وهم في أسمالهم، يحسون أنهم في كامل دورهم عند أسفل الممرات الرائعة. إنه شعب آت من الماضي وابن اليوم، متواضعٌ في حصى وغبار هذه الأرضية غير المستوية، لكنه أيضاً جميل وطبيعي في مكانه، بين المكونات الملحمية للمعمار، المؤثِّر مثله مثل الغبار والحصى المتفشي في هذه الأرض المقدسة التي تآكلت بفعل مرور الأجيال المتلاحقة. وهؤلاء العجزة العُميان الذين يقومون، متلفعين كملوك بالخرق والأسمال، لهم هبة ووقار هذه الأسوار التي كانت قممها في الماضي مسننة غير أنها ذابت كما رأس صخرة تحت أثر العواصف والأمطار طيلة قرون لا تحصى.

بيد أن العلاقة الخفية التي نخمّنها بين هؤلاء الرجال والأشياء أشدُّ عمقاً من ذلك. في أوروبا، تكون البنية المادية لمدينة ما على مقاس الشعب الذي يقطنها؛ فبناياتها هي عبارة عن أشخاص متمايزين. وكل واحد له عمره وأسلوبه ومظهره الجسماني الذي يجعله شخصا متفردا؛ والقدماء يختلفون عن المحدَثين، كما يختلف الباريسي في القرن الخامس عشر بعقله وصورته وملابسه عن الباريسي اليوم. ونحن نتصوَّر تتابُعا متقطّعا من العصور كان لكل واحد مظاهره الخارجية وروحه. وإذا ما نحن تأملنا الأزقة الحديثة، فإن كل منزل يحمل مع تاريخ بنائه توقيع مهندسه، ويسجل ذلك في المحافظة العقارية. وأجزاؤه المختلفة صالحة لاستعمالات خاصة كنا نجهلها البارحة. وهي قابلة للتغيير، بحيث يمكن أن تكبر أو تفصل أجزاؤها. وخلف أبسط عمل من هذه الأعمال الإنسانية يحس المرء بإرادة متفردَّة، سواء تعلق

(1) المرينيون أسرة حكمت المغرب بعد الموحدين من 1244م إلى 1465م. وأصلهم أيضاً من قبائل زناتة البربرية. حاولوا تعضيد مملكة غرناطة غير أنهم فشلوا في ذلك. عرف عهدهم ببناء المدارس.

الأمر بالمالك أو بالباني. بالمقابل فإن مدينة من مدن الإسلام تكون مجهولة المرجع وجماعية، بحيث إنها تجمع في غشاء وحيد بالٍ حيث يتغلف في القشرة نفسها لا تعددا أو متواليةً من الحيوات الفردية، وإنما حياة واحدة. إن هذه الحياة تتتابع من قرن لآخر، دائماً هي هي لا تتغير، تعبر عنها الحركة نفسها، وتسيرها التيارات نفسها، ولا تتغير إلا بالاندحار التدريجي للمبدأ الذي كان في أصل تطورها. إن ذلك الغشاء يمتد في الزمن بشكل سكوني، من غير أن يسعى أي مبدأ فعال ونشيط أن يجعله يتكيف مع وظائف جديدة. إنه يتغير، لكن بذاته، من فرط الدّيمومة، عبر الفعل الخفي للقوى المحلِّلة، بحيث تبدو كأحجار تتفتَّت، وتتآكل من فرط الحُزاز، وواجهات الأسوار التي تنفلُّ، وشقوقها التي يتعلق فيها العشب، وأساسها الذي يندس في الأرض شيئاً فشيئاً. إنها مظاهر مؤثرة للمنجزات الإنسانية التي ينمحي منها تدريجيا أثر الإرادة الإنسانية، بمقدار ما تستعيدها الطبيعة إلى مجالها الخالد. حينها، فإن الشكل المرئي للمدينة يكون للشعب بمثابة وجودٍ أزلي كما هو وجود الجبال المحيطة، مقبول سلفاً كما هو حال هذا المنظر الطبيعي الذي يتلقّى، عبر كل جيل يولد فيه وينغرس فيه، طابعه وشخصيته من ذلك الشكل المادي كما من الأشكال غير المرئية للديانة، ليتركها للجيل اللاحق كما تلقاها.

ذلك هو ما طرق ذهني من لحظةٍ في هذه المساحات الفسيحة والخرِبة لفاس الجديد، التي تحيط بالمشور السلطاني... ثمة خطاطيف سكرى بالحياة والربيع، تحوم زاعقة بين الأسوار المرهقة للقلعة. وفي الطرف الآخر من ساحة شاسعة، أبراج متوازية تدعِّم بروعةٍ أجنحةَ هذا القوس الهائل الذي مررت به، وفيما وراء ذلك ثمة أبراج أخرى أكثر علوّا هذه المرة، ترتفع ويعلوها الحَزاز بحيث نتعرَّف عليها بلا تردُّد باعتبارها شاهداً على الماضي الأكثر رفعة وقدما، المرابطي أو الموحدي.

لكن على الأرض ثمة جمهرة من الناس لا حراك لها، منهم العجائز والشباب. وهؤلاء يشدون عباءاتهم حولهم، وكما العجائز هم ليسوا أقل بؤساً ولا كآبة وصمتا. وخمول هذا الحشد كان خمول الشيخوخة التي تتجمَّد فيما بعدُ في الراحة الأبدية بعد قضاء كل مهام الحياة، والتي لا تطمح سوى للاتكاء على سور من الأسوار في الشمس والنظر بمقلة غائمة في الوقت يمرُّ مرورا. إنها ليست شيخوخة الأفراد وإنما شيخوخة العرق، لا شيخوخة

الحيوات الخاصة، وإنما شيخوخة تلك الحياة الطويلة الكليَّة التي تعيش مداها منذ قرون عديدة بين تلك الأسوار.

* * *

عدت إلى فاس البالي عبر ممر «أبي الجنود» والساحة التي تحاذي الأرض الخلاء. أقف كل مساء هناك طويلاً، وإذا كان علي ألا أحمل معي هنا سوى صورة واحدة، فستكون صورة هذا المكان هي التي سأختار. إنها عظمة كئيبة، واقتراحاتٌ صامتة من الماضي الخرافي وخرابٌ، فكل ما يهم روح فاس يوجد هنا بمظاهر مؤثرة وعامة. لا شيء جميلٌ هنا، ولاشيء مغربيٌّ خصوصي كما في ساحات الاستعراض الرائعة. ليس ثمة غير الخراب البشري، وعمل السنين كما في مصر، في طيبة حيث الأحجار والغبار والأنقاض والمنبسطات الساكنة، وأطلال الحياة التي لا يمكن للحياة أن تنبت فيها.

كل هذا يبدو هاربا بحرية تحت تعرُّجات الأسوار المسنَّنة، وتغدو شاشات غامقة تغيب ثناياها في غبار القرون وتدفع وجوهها المتوالية في شكل نتوءات لا تلبث أن تغيب في الأرض. من هذه الجهة، ليس هناك من حدٍّ آخر كما يبدو سوى الجبل البعيد؛ لكن بعد مسافة لا تُعَدُّ، ينتهي المرء إلى التعرف، بمحاذاة الأرض، على خط طويل ذي أسنان مصفرَّة ينبثق من حفرة. إنه سور المدينة الذي يحكم إغلاقه عليَّ فيما وراء هذا الخراب وبالرغم من الأماكن المسورة الكثيرة التي قطعتُ.

كيف لي أن أشبع من هذه الحقول الساكنة والمهجورة، حيث التفاصيل الوحيدة التي تظهر في البعيد عبارة عن قبور وخطوط تقطعها تسنُّنات السور؟... الشيخوخة ليست هنا كل شيء، إنه الموت نفسه، بهدوئه وسكونه، وببقاياه المتجفِّفة المطروحة فوق الغبار، والذي يخلط به غباره الخاص. لقد قامت القرون الطويلة بعملها: فالطلل الأخير قد انمحى مما كان لحما وما فوق العظام الهائلة. وما تبقّى هو رمادُ مدينة في هيكل عظمي هائل عبارة عن أسوار تكاد تُندثر. وإذا ما نحن استطعنا أن نعثر فيها على بقايا الحياة، فإنها لا تقوم سوى بتعضيد انطباع الموت هذا. مدينةٌ واهنةٌ ومشتَّتةٌ بحيث نحس أنها طارئة وغريبة، وأنها حُطت هناك كما جثة كبيرة، متحركة ببطء حلزون، أو ساكنة سكونا لا ينبئ عن وجودها: أشباحُ بدوٍ

منكفئين على الأرض، بقعٌ شاحبة هي خيامهم الوضيعة في الظلمة، وكلابٌ تتضوَّر جوعا، وقطعانٌ حائرة من الجمال قاعية هناك، غريبة وتبدو خرافية، لها صفرة الأرض التي تتمدَّد فيها أعناقُها ورؤوسها الجافة. وهؤلاء الأحياء لا يحتلّون غير الأماكن الأولى خلف الجرف غير المتحدّد الذي يوجد في طرف الساحة الآهلة التي توقفتُ فيها. وفيما وراء ذلك كل شيء فارغ وجامد؛ لا شيء غير صومعةٍ وبعض القبب المتآكلة، ونخلةٍ نصف ميتة. ثم في البعيد تحت الجبل، مزيجٌ شاحبٌ نتعرَّف فيه على حُفَر منجم للحجر وأجراف، وقلعة وبقايا الأقواس في الأعلى.

لكن في كل مكان من هذه الفضاءات تتمدَّد الحواجز المأساوية. ونحن نكتشف أخرى منها دائماً، من غير أن ندرك تنظيم وعلَّة هذه الخطوط كلها التي يبدو أنها لا توجد هنا إلا لتشهد على العصر الوسيط العظيم، ولكي تعمِّق من أثرها الكئيب. والقريبة منها ترفع مقابل الشمس، وفوق الخيام الوضيعة، ثنياتها الأربعة السوداء والشائكة، بحيث نخالها فيالق جيش قديم تتحرك الواحد خلف الآخر، تحت رؤوس رماحها، فبقيت هناك واقفة لحراسة هؤلاء الناس الذين يتفرقون في صمت.

يا له من اقتراح للأمان في الموت! وخدر كدخان الكيف. وكم هي عميقة هذه التأثيرات، بحيث تصوغ وجود من يولدون هنا ويتدثرون بها إلى الأبد. روح الإسلام بكاملها تطفو على هذا المدى الجميل الذي يشبه مقبرة. وهو يريد أن يفصح لنا عن سذاجة العمل، وكرامة عدم الفعل، والرتابة الآسرة للزمن حيث يتحلل كل شيء في صمت وتؤدة وجمال، وأخيراً نشوة تلك الساعات التي تمر فارغة تماماً، مكونةً من تتابُعها ومن فراغها وجود هذا الشعب من حولنا، هذا الشعب الذي يختفي وراء حجبه كي يصمت ويلتذَّ بها.

كم .هم عديدون الناس الذين يشكّلون هذا الحشد في الساحة الكبرى لأبي الجنود (بوجلود)، التي نعبرها ببطء على حافة الأجراف التي يبدأ منها منبسط حزين! إن أغلبهم من البدو والرعاة الذين يعودون كل مساء للمخيَّم الموجود جنب الأسوار، ويظلون متجمِّدين في وِضعَتِهم المصيرية حالمين صامتين. وبين خيامهم الصغيرة وأكواخهم المصنوعة من البرسيم البري، وهي نفسها التي رأيناها في دواوير البادية، يفترشون الأرض أو يجلسون

في صفوف كامدة وواطئة يرقبون المارة، أو ينقّبون عن قملهم، متكئين على السور الأعمى الطويل الذي يطل علينا من اليمين. والعديد منهم يسيرون ويجيؤون بلا هدف، ويتبادلون الدَّردشات في حركاتٍ تبين عن العطالة.

ثمة حلقات من الفُضوليين تحيط ببهلوانيين سودٍ عراةٍ. وآخرون بالمئات عند قدم أحد الحكاة، رافعين نظرهم نحو عينيه الملهَمتين، وحركاته المسرحية التي تحاكي بحرارة حكايات الجن والعفاريت والأمراء والدوابّ المجنَّحة. هناك متسوّلون يذكِّرون بيعقوب وعازر، ورجال جاوزوا الثمانين عاماً يقفون وعيونُهم مطفأة، وأسمالهم مثقوبة كما الأسوار الشائخة. وهناك زنوج ضخام من الحدود السينغالية تبدو وجوههم أكثر وحشية مقارنة مع دقة ملامح العرب والحسن الواضح للبربر. كما هناك مشعوذون وسحرة من بلاد السودان، شبه عراة تحت قلنسواتهم وأكاليلهم المحّارية. إنهم قارعو طبول وطبليات، يترجرجون بتقطيبة كبيرة وحركات قرود. وهناك «أولياء الله» والمجاذيب، يختالون في برانِس غريبة وجلاليب خضراء فاتحة، والناس تقبِّل أكتافهم أو أياديهم السوداء الممسكة بالسُّبحات، وهم يمنحونهم البركة. بل إنهم حدَّثونا عن امرأة ولية من أولياء الله، مختليةٍ في هذه الأوقات في كوخ من القصب، تعيش (كما في الزهد الهندي) عاريةً وتظهر مجرَّدة من الثياب كل يوم أمام الجماهير الخاشعة.

وكل هذا الشعب يعسكر تقريباً هنا، مثل رُحَّل يستقرون لعدة أسابيع وسط فاس الجديد، جماعةً متآزرين، بمأواهم المصنوع من القماش أو الصوف أو القصب، فيشكلون قرىً وضيعةً عند قدم الأسوار العالية. ثمة العديد من النساء والأطفال، ونحن نراهم تحت الركن المرفوع من الخيمة إما مقرفصين أو يتلمَّسون طريقهم في الظل الداخلي، على زرابي رباطية وضيعة، بين الطناجر والبراريد حيث يغلي الشاي بالنعناع.

لكن علينا أن نتابع الطريق. فنحن نخشى المكوث هنا أكثر، أو الترجُّل عن أفراسنا والضياع في هذا الزحام. ووجوه هؤلاء النساء البدويّات، الباسمات أحياناً واللواتي يبدين جميلات، تجعل قلبنا ينقبض بعض الشيء حين يتجمَّدن عند التقاء عيونهن بعيوننا.

قمنا بجولات طويلة في المدينة على الخيل أو البغال، خلف الفارس الذي يحمينا حضوره معنا. لم يكن الانطباع بهيجاً، فباطن المدينة الآهل حزينٌ مثله مثل خارجِها الجامد. إنه بارد، وصارم ورتيب، وهي تذكِّرنا بالدير، هذه المدينة المقدَّسة التي يتدثر أهلها بالأبيض، ويظلّ نساؤها متلفعات بشكل حدادي كما الراهبات الكرمليات[1] carmélites، والرجال بأعبابهم، محمَّلين بذلك الصوف الشاحب نفسه ذي الثّنيات الثابتة، كما لو كانوا يخضعون لقوانين لِباسية صارمة، بحيث لا تبدو منها غير وجوههم المتشابهة، ولحىً متناظرة وبسيطة محلوقة حسب العادة. إنه صمتٌ مذهلٌ ومزعجٌ وكاسحٌ. أصواتٌ خفيضةٌ وحركاتٌ وإشاراتٌ محروسةٌ، وعيونٌ منكَّسةٌ أرضاً، ودائماً الشحوب نفسه الذي يشبه شحوب أناس معزولين في قبو.

إنَّه الشرق الأكثر قتامةً الذي أتيح لي أن أراه. هو المغرب القاتم كما قال بيير لوتي[2] Pierre Loti عن هذا العالم حيث الناس كلهم بيضٌ. وكم هو كامدٌ وحزينٌ هذا البياض! فهو بياضٌ مؤثِّر كما بياض الكفن. والشكل البشري الحي يكاد يختفي فيه. إن رداءً كهذا، خاصة رداء النساء، هو إكراه مفروض على الحياة؛ فدفقاتهن تنطفئ فيه، ونزوات القريحة والانطلاق تخبو. ثمة قرار مسبق للبطء، والحشمة والسرّ يتأكد في هذا اللباس كما في هذه الدور المبيضَّة بالجير التي تدير الظهر للشارع، وفي تلك المآوي العمياء حيث تنعزل الحياة حذرة كي تلزم الصمت وتتوارى. ويكفي أن نرى ما صار إليه الأبيض لندرك جيداً كونه يعني الحداد في بعض البلدان. إنه في كل مكان لون ديني صارم وصوفي بامتياز، لون الكتان الخالص حول مذبح الكنيسة.

في القدس، كنت أعتقد أني رأيت أكثر المدن شراسة وكآبة من بين مدن بلاد الإسلام، بين

---

(1) المنتميات للطائفة الكاثوليكية الكرملية. والراهبات الكرمليات معروفات بانغلاقهن في الدير وتكريس حياتهن للصلاة والعبادة.

(2) بيير لوتي (1850-1923) أديب ومستشرق فرنسي، ورحالة زار العديد من بلدان الشرق. وكانت زيارته للمغرب سنة 1889، حيث خلّدها في كتاب شهير بعنوان: «المغرب»، صار مرجعا في هذا المضمار.

أطلال قلعة وجدران أديرة، أمام منظر من الحجر، وبين سكان منقسمين إلى طوائف متعصبة متأججة حقدا. لكن بدوا أحرارا كانوا يسيرون فيها جماعات، بوجوه حاسرةٍ ووضعياتٍ منتظمةٍ وقورةٍ وقويةٍ. يمكننا أن نخمّن أجساما شابة ورشيقة تحت الثوب الأزرق، المبيضّ من كثرة الاستعمال، الذي تنسدل ثُنياته بكثرة كما لو كان غطاء مبلّلا. كانت هناك أيضاً جماعات التجار وبائعو العقاقير السوريون، المدّاحون والمجاملون وأصدقاء الغرباء. أما هنا، فعدا الملاح[1]، كل شيء ينغلق ويُكبت ويَنصاع للصمت. لا ساعد عارياً يظهر محاطا بالخواتم، كي يمسك من فوق زحام السوق بنُحاس لامع فوق الرأس. ولا قوام فتاة حسناء يتخاتل بإيقاع تحت عبء جرّة مليئة. فمنابع الماء وحلقات النساء تكون في الشرق دائماً مسرحا للدَّردشات المرحة والإشارات المليحة. وفي فاس، وللقيام بهذا العمل النسوي، تظل كل امرأة مضطهدة تحت الإزار الثقيل الشاحب الذي لا حياة في انسداله، حيث تغدو الحركات عسيرة. وسواء كانت المرأة شابة أو عجوزا فلا أحد يعرف ذلك. وبما أن الجرَّة لا توضع لا على الرأس ولا على الكتف، فإننا لا نرى الركبة تنثني، والجسم يستقيم بحركات الخصر، والساعد يرمي بالحمولة إلى فوق، وعند المشية تكون الوضعة مستقيمة كل الاستقامة، وحركات الخصر متهادية، دائماً في رشاقة ونخوة. هنا تُحمل الحمولة الدافقة على الظهر، مدعومةً بحبل يوضع على الجبين كما لو كان طقم ثور. وقرب السقايات العتيقة الفسيفسائية عند زوايا الأزقة، تحت الخليط الشرقي المتشابك من الأفاريز، تروح الأشكال الشاحبة وتجيء، منثنية، مهانة في هذه الوضعية الشبيهة بوضعية الدَّواب التي تجر وتكدُّ.

لكن هؤلاء النساء على الأقل يعملن. إنهن لسن بسرٍّ مخيف. فما بالك بكل أولئك اللواتي نصادفهن في النور المسائي للقبب، متكئات على أبواب مسمَّرة، عبارة عن رزم غامضة متطاولة مغلفة بشكل جنائزي، بحيث لا ينكشف شيء حي منها إلا العينان من خلال فتحة سوداء، كما الماء السري لبئر؟ وما القول في هذه الآلاف من المخلوقات، وفي هذا الشعب المتدثِّر بالأبيض، الذي يتحرك بوضعيات منحنية في قعر هذه الأقباء، والذي لا يعرف عند المساء سوى الذهاب للجلوس على القبور وتأمل الأطلال في صمت؟

في القلب المعتم للمدينة، في أسواق التجارة العتيقة الفاسية، ثمة ممرات مزدحمة تتوجه

(1) الحي اليهودي.

شبكاتها بشكل غامض نحو الأضرحة الكبرى في المركز. وفي هذه العتمة الكثيفة والمليئة بالناس، ثمة وِضعات تدهش أكثر، فالتجار العرب يصطفون بالآلاف، وكل واحد منعزل في حانوته الضيق. أمرُّ أمام هذه الصُّفوف، وأتفحَّص كل فرد في هذه المجموعة الخارقة، وأندهش للمرات العديدة التي يتكرَّر فيها نمط النموذج والبصمة المزدوجة للعرق والبيئة. إنها وجوه حضرية، ذات بشرة شفافة ناصعة البياض، وملامح صارمة تشي في ثباتها بالشَّرف والنَّبالة. ولهم زينة خاصة رفيعة الأناقة: اللحية مقصوصة بعناية تحيط بالوجه الشاحب كالعقد؛ والشارب مقصوص عند الشفة التي ترتسم فيها الحمرة الشبقية؛ والرجلان عاريتان، تشوبهما بعض الحمرة الوردية، تخرجان من ثوب شفاف؛ والصفاء الفخم لتلك الأحجبة، والحرير أو الصوف الراقي للحايك الذي يغلّف الرأس والعنق، الملفوف على الجسم فوق الجلباب، والمرمي بشكل رائع على الكتف بحيث يتثنّى ثنيات حادة ودقيقة. والطراوة الشاحبة لليدين، وحركتهما الرشيقة من غير أن يتحرك تحت الحجاب الساعد أو المعصم، والسبّابة منفصلة بعض الشيء كي يتبدّى الخاتم الفضي الوحيد الذي يبيحه الدين باعتبار أن الذهب محرم على الرجال. يا لها من وضعيات جامدة جميلة وصامتة. إنها تذكرني ببراهمة الهند، وبصفوفهم المتراصّة وهم مقرفصون على الخط الأخير للغات على شط نهر الغانج. لكن أناس فاس لا ينحنون من فرط التعبد والتأمل. فهناك ليس ثمة من حلمٍ يضيع فيه النظر، ولا من تعبير مركّز يفصح عن النور الذي يغزو الفكرة الثابتة. إننا لا نحسّ بوفرة الفكر والحلم في هذه الكيانات المغلقة والمتشابهة، بحيث لم أقرأ فيها في البدء سوى فراغ الذهن، والراحة الخدِرة التي تقارب السبات، كما السلوقي الذي ينبطح أرضاً، رافعاً رأسه ومطلقاً ذيله بحيث لا يكون جميلا إلا في هذه الوضعية الشبيهة بوضعية أبي الهول. إنه كائن محيِّر لأن لا شيء يحدث في جمجمته الضيقة. لكن الطابع السري لهؤلاء التجار الذين يجلس كل واحد منهم في حانوته الضيّق المعتم، ووقارهم الذي لا يتحلَّل أبداً في بسمة، والذي لا ينقطع أبداً بحركة حيوية، هذا هو ما يفصح لي عن شيء آخر. إنني أحس بفعل قوة ما، وبنمط اجتماعي نابع من التربية، وبالسلطة التي تبسطها على شعب ما بعض الأفكار البسيطة والحاسمة، وهي أفكار ذات مصدر ديني، تقرّر ما يليق وما لا يليق. لقد صاغ هذا الشعب نموذجه في المسجد. وفي هذه الممرات المعتمة والمعطَّرة يطفو جوٌّ روحاني، والصمتُ الهامس

لحشودهم هو صمت أماكن الصّلوات والدعوات.

ليس من قبيل الصدفة أن يكون الضريحان الأعظمان لفاس محبوسين في عمق هذه المتاهة. إنهما يتلاحمان معها بحيث يتّحدان بها. وحولهما ينطلق إشعاع قداستهما في هذه الشبكة التي تتداخل وتغلّفهما كما لو كانا فرعا منها ناجما عنها. ها هو المركز الروحي العجيب لهذه المدينة الإسلامية، المحمَّل بالحياة الدينية التي تتحول ببطء وتتدفق لتغدو هي الحياة اليومية العادية. بعض هذه الاسواق ذات طابع مقدس (حرم)، فهي ممنوعة على الدّواب كما على النصارى، وأكثرها حرمة تحدها عارضة. وعند المرور هناك، أبصرت بطرف ناظري تلك الأنفاق التي لا أستطيع ولوجها، آهلةً بالناس وذات طابع تجاري كما باقي الأسواق، وفي عمق عتمتها البخارية توجد روائع غامضة، من سقّايات ومقصورات بقبَب زرقاء، وأفاريز مليئة بالزخارف، وباحات معمدَّة وأعمدة سامقة. إنه الأسلوب المعماري لقصر الحمراء وهو يمجِّد ضريح مولاي إدريس. مولاي إدريس مؤسس المدينة، الولي الصالح المتبصّر، الشريف ذو الفضائل الخالدة، ذلك أن بركته وكراماته التي تتجاوز باقي الأولياء تتدفَّق من ضريحه باستمرار. إنه الحاكم الخفيّ للمدينة، الذي يُذكر اسمه ويُتبرَّك به على الدوام، ويتملَّك عقول الفاسيين كما يتملك «شيفا» الهندوسيين. مولاي إدريس! كم من مليون مرة هُمس بهذا الاسم خلال القرون الماضية في هذا الفضاء السامي الذي يوجد في قعر هذه الأروقة؟ إن اسمه يتردّد فيها على الدوام ويسكنُها، ومن هناك ينتشر في زحام الأسواق، وعبر الأحياء التي نتصورها خالية غير أنها مليئة بالمنازل المأهولة التي تدير الظهر للمارة، عبر الساحات الكبرى للمعسكر والأسواق، حيث أتعرف عند مروري على الدعاء الأبدي الذي ينبثق من الصمت أو من الثرثرة المغربية. مولاي إدريس! جملة يردّدها المتسول الجالس أرضاً، رافعاً يديه البئيستين. مولاي إدريس! يردّدها الصبيان الذين يلعبون لعبة الاستغماية. مولاي إدريس! ينطقها المسافر الذي يرى من فوق الأسوار المسنَّنة التي تمتد على السهل المحيط، المثلث الأخضر الذي يعلن من بين خمسين صومعة عن مكان الضريح. حول هذا الضريح، في جامع القرويين (المسجد القريب منه وذو الأثر الكبير أيضاً) تتركَّز القوة الجبارة اللامرئية التي تلتحم في حياة الشعب وتمنحه إيقاعه، وتوحده دينيا وتحدِّد له حركاته وحالاته النّسكية، من غض البصر وزمّ الشفاه إلا للهمسات الخفيفة التي تعبرها بعذوبة

أسماء الله الحسنى، وأسماء النبي ومؤسس المدينة والشرفاء والصلحاء، والتبرُّكات والكلام المأثور والذكر... وكل ما يصاحب حبّات السبحة، من بسملة وتأمين وحمدلة وحوقلة... أي تلك الجمل التي ينهي بها الوزراء أيضاً حديثهم مع الأوروبيين.

هذه المدينة تبدو عبارة عن زاوية من الزوايا الصوفية، فهي الأكثر صلاحا والأكثر مناعة في بلاد الإسلام الإفريقية. إنها زاوية بزنجياتها وأسواق نخاستها، المخصّصة للذات الفرج التي تمارَس بشكل شرعي في غرف بيضاء تشبه المزار. والمسافر سواء كان بدويا أو تاجرا، يتخشَّع قبل ولوجها. وأنا أرى بين فرقة خدمنا كيف أن الصمت والورَع الذي يسود لدى السكان هنا يستشريان بينهم. إنهم يحاولون التأقلم مع هذه المعاملات الحكيمة، ويسجدون في الحديقة للصلاة. ها هي صرخاتهم تخمد، بحيث لا يتكلمون إلا بأصوات خفيضة. والملذات التي يعرفون كيف يتشبّعون منها في الليل، والتي تمنحها لهم مدينة فاس بوفرة، تصبغهم بشحوب رائق وحزن خجول، وتحدُّ من حركاتهم الطائشة، وتطفئ بريق أعينهم محيطةً إياها بهالات ازرقاق. تكفيهم بعض السنوات من هذه الحياة المستقرة حيث تتناوب الملذات مع العبادات، ومن خدر تدخين الكيف في عمق الحدائق المسورة والأزقة العطنة، وإذا ما هم تلفَّعوا بحلل من الصوف الأبيض، فإن الملامح الأساس للنموذج الفاسي ستظهر على محياهم.

إنها المظاهر التي يفترضها السلفيون في السلطان. وهو إنسان غامض أكثر من رعاياه المحبوسين، ملتحف دائماً ببراءة زنبقية رامزة لورعه الخالص، بحيث لا يتفوَّه إلا بالكلام الفقهي، ولا يخرج من الأسوار الثلاثية حيث توجد ألفا امرأة محبوسة إلا لتقديم بركته الشريفة بحركة وحيدة ومحسوبة، وليترأس أمام القبلة، جامداً في بياضه، تجمعات رعاياه. لم يثر السلطان حفيظة الشعب لأنه أحاط نفسه بالأوروبيين(1)؛ بل لأنه سعى إلى التنصُّل من النظام السلطاني الصارم، ومن ثم إلى الانزياح عن النموذج الذي عليه أن يكون تجسيده الأسمى. كل هذه الألعاب في الهواء الطلق التي تعلمها من الإنجليز، والتي من

(1) يتعلق الأمر هنا بالسلطان مولاي عبد العزيز الذي سوف يلتقيه المؤلف في نهاية مقامه بفاس. وقد عرف هذا السلطان بولعه بالعلوم الغربية وبالتقنيات الحديثة. وتعلم ركوب الدراجة الهوائية والنارية والسيارة. كما تعلم التصوير الفتوغرافي والسينمائي. وسعى إلى فرض إصلاحات ضريبية. وهو ما ألَّب عليه الشعب والفقهاء والعلماء فعزلوه وولّوا مكانه أخاه عبد الحفيظ الذي سوف تعقد معاهدة الحماية الفرنسية في عهده سنة 1912.

أجل ممارستها كان يقوم خلف الأسوار وفي باحاته الخصوصية، بنزع البرنس والجلباب، كانت تصدم الآخرين باعتبارها حماقات لا تليق بسلطان، كما في مقلب حين يرمي المسؤول بملابسه وطربوشه كي يذهب للتجول على الدراجة الهوائية، متصنّعا الاستقلال والصبيانية. بيد أن انتصارات الروكي بوحمارة[1] اضطرت السلطان لأن يحسب ألف حساب لغضب شعبه. وبمقدار ما كثر أتباع الطامع في العرش، كان السلطان عبد العزيز ينتعل بلغته، ويرتدي قفطانه ورزَّته ويتدثر ببرنسه، ويعدِّل من ثناياه بدقة؛ وهكذا يعود ليصير الشريف، سبط النبي وراعي شعبه، الرجل الغامض الرابط الجأش، الذي يتلقى البيعة بنظرة لا تحيد، والناسك الذي لا يبتغي من متع الدنيا شيئاً إلا مع حريمه.

واليوم عادت الرتابة الكئيبة للأيام الخوالي. وكل شيء يصمت ويتجمَّد في أدب ولباقة جنائزيين. ومدينة الأحياء تناغمت كما يليق مع مدينة الأطلال والقبور. ولا شيء نشاز غير وجودنا نحن الأوروبيين الذين نصدم الآخرين بهيئتنا المتحررة. ها هنا لا يمكننا أن نتغافل عن ذلك، فالمخزن قد أخطرنا بالأمر: لقد رآنا الناس نتهادى بخيولنا أو نعدو بها في الفضاءات الخالية للساحات، كما أننا تحدّثنا بصخب زائد في الأسواق. ولنحذر، فعلينا التجول أقل، ذلك أن التجوال الكثير من غير سبب يثير حفيظة الناس ويزعجهم. إنها لمخالفاتٌ جَمَّةٌ قمنا بها لتعاليم الفقهاء الذين يوجهون هذا البلد وشعبه؛ ولأنها عتيقة فإنها تحدد الحركات والسكنات بشكل صارم. وهو أمر نحس به بحدسنا أيضاً، فبيننا وبين هذه الكائنات المتصنعة المرائية، لا يمكن للعلاقات الإنسانية البسيطة أن توجد. ومسبقاتُ هذه الحضارة الصارمة في كل شيء تجعل من تلك العلاقات شيئاً فريدا. وأنا لا أرى من الجانب الإنساني الحق هنا غير الأطفال، فمعهم يمكن للمرء أن يبتسم ويدردش ويتفاهم بحركة لا غير. إنهم ليسوا بعد لا مغاربة ولا فاسيين. إنهم فقط صبيان يجعل منهم لعبهم ونظرتهم الحيوية المباشرة وحماسهم فقط «أناسا صغارا». هنالك اثنان منهم أو ثلاثة يعرفوننا جيداً، لأنهم «غافروشات»[2] Gavroches صغار ذوو حركات رشيقة ونظرات معبرة، لم يتعلموا

(1) يشير المؤلف هنا إلى الجيلالي الزرهوني الملقب بالروكي بوحمارة. كان الرجل في الأصل كاتبا في بلاط مولاي عبد العزيز؛ وقد قاد ثورة عارمة على السلطان وهزم جيوشه سنة 1902، ونصّب نفسه سلطانا على البلاد. لكن تحالف المخزن مع القادة المحليين أدى إلى اعتقاله والتشنيع به في مدينة فاس.

(2) جمع لـ«جافروش» وهو بطل رواية البؤساء لفكتور هوجو، ونموذج الطفل الباريسي الهامشي بل الطفل عموما.

الإقعاء بعد جنب السور. وما أن يرونا من بعيد حتى يهرعوا إلينا متجارين، ويريدوا أن ينزعوا عنا الرّكاب. ثم هنالك البسمات وسيولة الكلام والإيماءات الدافئة، ليعبروا عن فرحتهم أملا في الحصول على قطعة نقدية. وأحدهم، وهو موسيقي لا يتجول إلا بصحبة نايه يتعقَّبنا في الأزقة الخالية كي يحتفي بنا هناك بلحن من ألحانه، بعيداً عن أسماع الفضوليين. وآخر من بينهم يبدو يتيما، يظل دائماً لوحده على هواه بين زحام المدينة. ونحن نصادفه كل مرة هكذا في كل الأحياء. إنه قطٌّ صغير من غير سيّد ولا مأوى، وشغله الشاغلُ يتمثل في التسكُّع هائما بلا وجهة بحثا عن رزقه اليومي، بحيث لا يعتمد سوى على الحيلة والصيد والمصادفات. إنها لرجولةٌ مبكرةٌ هذه التي يمتلكها هذا الصبي، الذي نذر حياته لكل مقالب الفاسيّين. فهو ذو حركات رشيقة، ومُداهن حتى العظم، بعيني شيطان صغير، وكلامه الواضح المبطَّن، وملامحه ذات المسحة الأرستقراطيّة، والإشراقة المفاجئة لابتسامته، بحيث نكاد لا نتعرف فيه على عرق هؤلاء الفاسيين المتديِّنين الذين ينتمي إليهم. بل إن هذا المتسول الصغير يزعم أنه من سلالة الأعيان، إذ هو يعتبر نفسه شريفا وسبطا للنبي، وأحد أبناء عمومة شريف وزان المشهور[1] وإن كان فقيرا، ولا يني يردِّدُ ذلك.

يا لهم من صبيان! من خلالهم نعرف أن إنسانية مدينة فاس لا تختلف في الجوهر عن إنسانية المدن الأخرى، وأن الأمزجة المغالية التي نندهش لها فيها ليست من طبيعتها وإنما من ثقافتها، كما هي في العمق كل الأمزجة التي تميز مختلف المجتمعات البيضاء. الأمر يتعلق هنا بثقافة عريقة من الناحية التاريخية، بحيث إن آثارها التي غدت وراثية، والتي تمثلتها الطبيعة بفعل التكرار، صارت أشبه بالأمور التي تبدو طبيعية وتلقائية وفطرية لدى الفرد. بيد أنها ثقافة حديثة إذا ما هي قورنت بما عاشه الحيوان الإنساني من قرون. لهذا فإن إنسان فاس، كما كل إنسان من حضارة أصيلة، لا يبلور نموذجه[2] type إلا في وقت متأخر بعد فترة الطفولة، في نهاية نموه، بعد أن يكون قد مرَّ من كل مراحل النوع الإنساني العامة والعتيقة.

***

(1) المقصود شيخ الطريقة الوزانية المعروفة في شمال المغرب، وهي ذات منحى شاذلي.

(2) لا يخفى أن الإثنوغرافيا أو علم الأعراق كان يهتم كثيراً بالنموذج العرقي. وقد كانت الصور الفتوغرافية واللوحات التشخيصية تسعى لضبط هذا النموذج.

ولكي نبلغ الأسواق التي تزدحم فيها الحياة حول الأضرحة الرئيسية والسرِّية بالمدينة، تركنا حيِّنا المضيء المليء بالحدائق و«الرّياضات» الفسيحة في ضاحية المدينة، وانغمسنا في مركز المدينة المعتم عبر أزقة غريبة، الأكثر مَواتا التي عرفتُها في بلاد من البلدان العربية. ما الذي يفتننا هكذا في كل ما يحمل هنا أثر الموت؟ هل هي الباحات الفسيحة الموحشة، أم الأسوار المسنَّنة حول المقابر، أم هذه الأزقة التي لا تعرف النّور ولا الحياة؟ لماذا نتأثر كثيراً لهذه الأمكنة البئيسة أكثر من تأثرنا بخضرة الأوراق، وأشجار الرمان المزهرة، وهذا الربيع الرائع الرائق الذي ينعكس خضرة في مياه باب الجديد الرّقراقة؟

كم هو بهاءٌ كل هذا! ونحن نقطع هذه الأخاديد المفعمة بالصمت والظل العتيق، نحس أنفسنا وكأننا ننحدر في أعماق الماضي، في سلام ماضٍ غفا هنا في سُبات عميق. نعم، لعل ذلك هو ما يأخذ منا الحواس أخذا. ففي قعر هذه الممرّات العميقة، يبدو الوقت كما لو أنه توقف عن السّريان. فيها تخيِّم سكينة عميقة، تبشر بالأبدية كما في قبوٍ لا يدخله ضوء النهار إلا في شكل خيط من النُّثار الأزرق.

وكم نحس في كل هذا بالحصار والانحباس! تكاد حيطان الجصّ المتشقق أن تتلامس فُوَيق رؤوسنا، كما لو أن الأمر عبارة عن شَرَك تكون بابه أضيق من قعره، بحيث ينغلق تماماً حين يمتد الطابق العلوي لدار ما أو لسلسلة من الدّور ليغطي الزقاق بأعمدته فيملؤه عتمة. إنها جدران عمياء، إلا من بعيد لأبعد، وبمستويات متباينة حيث تظهر ثغرة مظلمة ومربعة تحرِّم الوصول إليها قضبان حديدية تتدلى منها كما من نافذةٍ كوم رمادية من شبكات العناكب. وأحياناً، حين أمرُّ على ظهر بغلتي على مقربة من بعض تلك النوافذ الضيقة، أحاول أن أسبر غورها ببصري، غير أنني لا أبصر شيئاً سوى الظلمة، أي ما يشبه داخل قبو. ولا أحد يمكن أن يتخيل أن هذه الجدران يمكنها أن تخفي شيئاً غير الليلِ المدلهمّ، والرُّطوبةِ المتراكمةِ، والعدمِ المطلقِ لقبر صار كفنُه غباراً منذ زمن طويل.

لكن في الأسفل، ثمة أبواب مصفَّحة بالحديد والمسامير الهائلة، بحيث نخمّن سمكها وصلابتها، وممراتٌ كالأقباء يتعفَّن فيها الخشب سريعا بفعل الرطوبة القائمة. والبعضُ من تلك الأبواب منفرجة، بحيث يمكنني أن أتميز من خلال الفرجة قبةً من الجير الشاحب،

وعتمةَ أصيلٍ ترفرف على المكان وتصبح كثيفة في البعيد، وأحياناً كتلةً شاحبة تتحرك ببطء قاتل، وكأنها شبح شائخ.

وحده الفنان الهولندي رامبرانت Rembrandt أفصح عن هذه الأسرار كلها. يا لها من لوحات حفرية كان سيأتي بها من مملكة الظل هذه! الظل يسكن هنا في كل درجات العتمة الممكنة، التي تكون عادة كثيفة، ذلك أن هذه الدور عالية كي تعتبر منازل عربية، وفي هذا الركام المتراصّ من البنايات الذي هو المدينة، تشكل هذه الأزقة التي نسير فيها شقوقها وتصدُّعاتها العميقة. ولا يمكن لأحد أن يرتاب في وجودها حين يطل من أحد السطوح على مدينة فاس التي تمتد أمام ناظريه كما لو كانت حقلا متّصلا من الكلس. وفي أكثر هذه الممرات نوراً، لا يكاد شعاع الشمس يلامس عالية الحائط. وعلى المار أن يرفع رأسه ليرى الشريط المتكسّر الرقيق لنورها الساطع. وفي الأسفل، في الأخدود الذي لا تصله أشعتها، يرفرف النور الباهت المليء بالظلال التي تتمازج وتتلاعب لتغدو أشبه بالضباب الساخن الذي يتخذ ألواناً عجيبة تكاد تكون ذهبية، تبعاً لطلاء الحيطان وقدمه.

لكن، في الغالب، يكون الظل أكثر تهالكاً ومن غير ذبذبات، كالعمق الرطب والمزبد لشيء قابع في قعر قبو. بعض القبب واطئةٌ حين تمتد بعد الدور من طرف زقاق لآخر، بحيث يكون علينا كي نتجنب الاصطدام بها برؤوسنا من التمدّد على عنق الدابة التي نمتطي. وهكذا نجد أنفسنا في أنفاق ممتدة يفضي الواحد منها للآخر في تشابك واضح. ومن حين لآخر تظهر بعض الفجوات التي تشبه المداخن العصرية، ومنها تنحدر وضاحة النهار ذات اللون المخضر التي تغطس لتتبدَّد في هذه الآبار. وكل هذه الأماكن قفراء إلا من بعض أشباح النساء. ولا نرى للرجل هنا أثرا، سوى هذه الأشكال الكئيبة التي تدير وجوهها للحائط عند مرورنا وتنغلق في عباءاتها الباهتة التي تجعل منهن كيانات ضبابية. إنها أشباح نادرة في يوم مثل هذا، خائفات مرعوبات وصامتات يسعين إلى الاختباء من عيوننا كما العناكب، التي تكون الوحيدة المصاحبة لهن في كل مكان من هذه العتمة حيث تنسج شبكاتها.

يا لها من شبكة معقَّدة من غيران الناس التي تشبه غيران الأرانب! لو كنت لوحدي لما استطعت أن أغامر فيها بحياتي. فالمرء يمكنه أن يضيع فيها لوقت طويل قبل أن يخرج

بنفسه لأشعة الشمس. لا وجود هنا لنقط استدلال، إذ كل ثقب من هذه الثقوب لا يفضي إلا إلى ثقب مشابه له. وحدها الإنارة تختلف، بهذا القدر أو ذاك من الشحوب، معتمة أو ضبابية، حسب أن ينزل نور النهار من فوق أو يتسلل إليها من الجانب، وتبعاً لعمق الأخاديد وطول الأقباء.

لكن مرةً عثرت بالصدفة على حيٍّ مخالف لكل الأحياء الأخرى، وهو الأجملُ من بينها، غير أني لن أستطيع أبداً العودة إليه وتحديد مكانه. إنه حي لا اسم له ولم أتمكن من تحديده للعسكري دليلنا. كان عبارة عن ممرات عالية، بين حيطان من الصخر لا من الجصّ المتفتِّت. وفي حيطانه أقواس وفي جوانبه أبواب تبدو أكثر صلابة من الأبواب التي عرفنا في غير هذا المكان. إنها أشبه بالبوابات. وفيه تطفو الرائحة الروحية نفسُها التي أصادفها بفاس في الأسواق وقرب الأضرحة الكبرى، وفي الغرف المشبعة بلبان جاوة، حيث الشموع تحترف على الأرض بين الصخور البيضاء.

إنها انطباعات معبد ديني. كل شيء يذكُّرني بمحراب مسجد، بحيث يحس المرء بنفسه محرَجا بالولوج فجأة إلى هناك على بغلة تدق الأرض بحوافرها المصفَّحة تحت القبب. ثمة في البداية تلك المنظورات حيث يطفو الظل ويشعُّ في العتمة، ليبدي بارقةً هناك في الأبعد تحت ثغرة نافذة، وتارة يتكثَّف ليغفو مثل بخار أسود في عمق الأزقة الضيقة. إنه المرورُ المتواترُ للشُّعاع المحبوس في قلب الليل. عادة ما يكون النهار ساخنا تحت الزجاج الوسخ، ثم يظهر الغبار المزرقُّ الآتي من الأقباء. وهذه الظلال المتباينة، بحيث تخترق البصر من بعيد، وفي كل زقاق يتوالى تتابُعها اللانهائي. ثمة ممراتٌ مقبَّبة وأخرى مفتوحة، بحيث نراها وهي تنطبع الواحد في الآخر، في تقوساتٍ مشبعةٍ بالسواد والضباب الملون، حيث تنغمس الأشياء بأشكال مختلفة، من غير تحديد ولا سَنَد مرئي، كما لو أنها في لحظة الولادة أو التحلّل، كي تغيب تماماً هناك في البعيد.

وهذا المشهد شبيهٌ بالمعبد أيضاً. تلك البوابات الضخمة التي تنتمي لزمن آخر، المزوقة بالحديد المزخرف في شكل تواريق هائلة، وتلك المصاريع الثقيلة الفارغة أفواهُها في عتبة سلم مظلم وغامض، كذلك الذي يصعد لدينا إلى محل ناقوس الكنيسة. وأحياناً، ولكي

أكمل حالة الاستيهام هذه، تجدني أسمع موسيقى روحية غريبة في أذني. هل ثمة خلف هذه الأبواب وهذه الحيطان أماكن مقدسة، أو زوايا وأضرحة صلحاء؟ أم أن الأمر يتعلق فقط بوقت الصلاة في هذه الأمكنة المحرمة. حينها أسمع غمغمة دعوات، وأورادا وأذكارا متصاعدةً.

وأخيراً هؤلاء النساء الشاحبات اللواتي يرتسمن عند مدخل القُبب، مثقلات بالحجب مثل راهباتنا. النور المتناثر بين الحيطان يبدو كما لو كان يتجمع على الصوف الذي يغلف أجسامهن كي يخفت أكثر فأكثر. ليس ثمة من انعكاس أو ظل لامع، ولا من ملمح من الملامح الغامضة، كما تلك التي نجدها على البارود أو رطوبة الصخور المحيطة بنا. إنه لأمرٌ مؤثر مثل حلم يتكون وينبثق ببطء من الليل. إنها ضربٌ من الواقع المنصهر المتبدِّد مثل شيء أبيض في قعر الماء، لا يبدو إلا في حال شاحب يتحلل تدريجياً في العمق الشفاف الغامق للماء، فيتنصَّل من ثقله بحيث لا ينتمي إلى المواد الصلبة. وهو عالم خاص متفرّد لا تنبعث منه غير تأثيرات نافذة. أسرار عجيبة تأتي المرء منه، فتتلقاها النفس برهبة وفي صمت يتوضَّحان شيئاً فشيئاً، حين نلاحظ أن تلك الأشكال، التي لا لون لها، والتي تعمّر هذه الأقباء المتعرجة، ذات طابع جنائزي. إنهن نساء متلفّعات بصرامة، لا يظهر منهن أي عضو ولا أي شبر من المفاصل التي تتحرَّك بها تلك المخلوفات وتنثني. وهي كوَم تضيق من فوق مثل التابوت، كما الميّت الملفوف في كفنه. وعلى المرء أن يستنجد بقوة بخياله كي يتذكر أن هذا الكفن في قعر هذه الخلوات التي لا يصلها ضجيج الحياة، قد يخفي فستانا وحليّا وأرجلاً رشيقة الرَّقص، وجسد فتاة متقِنةٍ لكل مُداعبات الجِماع. تلكم هي المفارقة بين عالم المسلم وروحه؛ إنها في الظلال والخراب والموت والشهوات الساخنة التي تستوعب كل طاقات الحياة.

لكن، من دون شك أن هذا الموت وأطلاله ورائحته تعتبر لذة لدى هؤلاء المغاربة. إنهم يستلذون فيها بالسلم والطمأنينة، على امتداد القرون، بحيث لا شيء يكدِّر صفو سكينتهم. ثمة بهاء مخدِّر ينبعث من هذه الأزقة التي لا تعرف أشعة الشمس. ونحن بدورنا تعلمنا جاذبيتها الفريدة بحيث ظللنا نعود لزيارتها باستمرار، كما يحب أهل فاس زيارة تلك المقابر الرائعة القديمة والجلوس على مقابرها في الأصيل وبأيديهم باقات الورد...

-4-

من الطبيعي أن يحب هذا الشعب الموت، وأن يتطلع إلى سباته. وهو يتطلع إليه كما بعض العجزة، بحيث يتملّكه تملُّكا ويثلج مفاصله. فمبدأ الحياة الذي يكون وراء مجتمع ما ووراء حياته قد انسلخ عنه. وبما أني قد زرت البلاد العثمانية، فقد كنت أعرف جيداً ما يعنيه شعب مريض. وهنا يبدو لي حقا أن الموت قد بدأ يدب في أطراف البلاد. لقد حل مكان القوة الموحدة البانية القوى المفسدة والقروح تفشَّت في كل مكان. وأنا لا أتحدث هنا عن الحال السياسية للبلاد، وحال التسيُّب والفوضى التي تعرفها القبائل، ولا عن هذا «المخزن» الذي تنحصر وظيفته في حملات عسكرية من وقت لآخر، أكثر فأكثر خفوتا، وأقرب فأقرب من معقله، لجباية الضرائب كي يتقاسم حصيلتها الوزراء والسلطان، ولا عن نفوذه الذي لا يتعدى الأسوار المتعرِّجة لهذه المدن. أنا أتحدث عن كل ما يمكن أن تلاحظه العين المجردة، عما نرى ونسمع ونلمس حالما نحطُّ الأقدام في هذا البلد. والواضح أننا لا نتعرف فيه على العنصر الحيوي الذي يتوفَّر عليه كل مجتمع المتمثل في الجهد والعزيمة. إن جمودَ الأجسام هذه التي تسير مواكب متلفِّعة في برانسها، لتقرفص أسفل الأسوار العسكرية الداكنة العتيقة، يقابلُه خمولُ النفوس. ليس ثمة من محاولة نابعة من الإرادة الإنسانية كي تفرض نفسها على الأشياء وتنظِّمها، وتدافع عن مآثرها القديمة ضد خراب الزمن، وتمنع نفايات الموت والغبار الرتيب للقرون من أن يغزو كل شيء.

إنه لأمرٌ يلزم الأخذ به حرفيا. لقد كان الدرب البئيس الذي اتبعناه من طنجة إلى فاس قد رسم نفسه بنفسه في الأرض، تحت وقع حوافر الدواب. وكل دابة ماتت في الطريق تُركت هناك تتعفَّن في المكان الذي سقطت فيه. وهو ما يرسم خطا متقطِّعا من الهياكل العظمية تغدو أكثر اتصالا كلما اقتربنا من فاس. وفي اليوم الأخير نخال أنفسنا نتقفى آثار جيش مهزوم تتابعه نيران الأعداء.

المشهد نفسه نعاينُه في المدينة الروحية؛ فالضاحية اليهودية يحيط بها كالأسوار ركام الأتربة والدواب الميتة المتعفِّنة بالآلاف. بل حتى داخل الأسوار يبدو أن تجاوُر الناس والقاذورات

لا يزعج أحدا. وراء باب الجديد، في زقاقٍ يفضي إلى حدائق بديعة لا يضاهى جمالها، وقرب المياه الجارية وأشجار الرمان المزهرة، استطعت متابعة مراحل تحلُّل جثة حصان من بداية انتفاخ بطنه حتى ظهور هيكله العظمي. وحين كنا نرغب في الوصول إلى باب الجديد ذاك، كانت الروائح العطِنة تقودنا إليه عبر التشابك المعقَّد للأزقة. كنا نسير على هدى العطانة كما الراعي على هُدى النجوم. وفي ملتقى الأزقة أخذت الممر الذي تأتيني منه نفحةٌ أكثر نتانة. وكلما اتسع الزقاق كلما قلَّ بلاطه الحجري البئيس، فانبثقت خلف السور شجرات نخيل باسقة، لأعلمَ حينها أن المكان قد غدا قريباً جداً فحبستُ نفَسي قبل أن تغزو أنفي أكثر الروائح إزعاجا. أسرعت بحصاني لأمرق به بسرعة بحيث أبصرت فقط بالركام المسودِّ الذي كانت تظهر منه تدريجياً العظام البيضاء. خلال خمسة عشر يوما لم يعد هناك غير هيكل عظمي ناصع البياض، ومن الروائح غير روائح الخضرة اليافعة والأرض البليلة والنعناع وأشجار البرتقال المزهرة، ولا شيء غير جمال الربيع الأشدّ طراوة.

وعدا بعض الأكمات البرية، فإن هذه الغابة وهذه البساتين بفاس هي الأولى التي رأينا منذ القصر الكبير (على بعد مائة وعشرين كلمترا في الشمال)، ففي هذا البلد الرطب ذي الخضرة اليانعة على سواحل المحيط الأطلسي، يكفي هؤلاء المسلمين، المهتمِّين بالتناسل، فقط زرع الأشجار لتعويض تلك التي قطعها الأجداد في كل مكان. بيد أن الإهمال متفاحشٌ. مرةً واحدةً فقط أشار لي دليلي إلى مزرعة زيتون صغيرة حول إحدى القرى في الجبل. وبعد ثمانية أيام من السير وسط الهضاب، ألحت علينا الرغبة في الانعطاف قليلاً والمرور بها. إن هذه الغابة الصغيرة المزروعة كانت علامة على صنعة الإنسان، كما في إسبانيا حين يقطعها المرء من الجنوب نحو الشمال، فيرى المصانع ومداخنها ببرشلونة. بإمكان القرى الأخرى كلها أن تكون لها غاباتها الشبيهة بهذه، وزرع أشجار الزيتون وتشذيبها وجني غلَّتها من الزيتون، لكن لمَ كل هذا العناء حين يكون بالإمكان فقط رمي بعض حبات القمح على هوى الريح ليجني المرء ما يمكنه به أن يطهو الكسكس بحليب المواشي التي ترعى كلأ المراعي التي وهبتها لها الطبيعة.

في البوادي ثمة على الأقل الوثبات اللامتوقَّعة للحياة البدائية، وفوَرات الحروب بين القرى، بحيث يقال هنا إن دَوّارا يأكل دوّار آخر، ويتم إطلاق النار على القُوّاد الذين

يغامرون بجباية الضرائب. لكن في فاس، في مدينة الحضارة المغربية القديمة، لا شيء يكدِّر صفو الخمول الدائم المعتاد. وعدا الأذكار الدينية والعبادات المكرورة، فإن بعض ضروب السلوك التي تفرضها تلك الحضارة على النفوس كما على الأجسام، والحال المعتاد للنفوس كما الأجسام، تنبع من الانصياع لقوى الجمود وممارسة الاسترخاء. في هذا المجتمع المتفكِّك، لا يعرف الإنسان فقط كيف يفرض على نفسه العناء الجسماني والذهني، بل هو غير قادر على الأشكال الأولية والفطرية للملاحظة واليقظة. وفي مقلتيه الغائمتين، للأشياء أن تنعكس أو لا تنعكس، سيان؛ فلا إرادة للتعلم أو التذكر توجه نظره وتجعله محدِّقا في الأشياء. الفاسي يكاد يكتشف بعناء خلال حياته النقط الاستدلالية لمدينته، الوحيدة التي يعرفها مع مكناس. وإذا ما حلَّ الليل، وإذا ما نحن لبَّينا دعوة أحد الأصدقاء الذي يقطن بعدوة الأندلس، فإن المخزنيين (العسكر) الذين يرافقوننا سيضلون لا محالة طريق العودة. هاهم يتوقَّفون ويتناقشون فيما بينهم، وفي كل باب من أبواب الأحياء التي نمرُّ بها يسألون عن الطريق ويطلبون من أحد العسس مرافقتنا للباب الموالي. وكل سؤال عن البلد نطرحه لأبناء المدينة يُقابَل بإشارة من اليد تعني الاستسلام والعجز، اللذين يميزان سمت المغربي ومعه الجهل الإنساني: «لا أدري!». ودليلُنا، الذي يأتي لفاس خمس أو ست مرات في السنة، وسائسو بغالنا الفاسيين، لا يتعرَّفون، من بين كل الصوامع التي تزين الصفحة الداكنة لفاس حين نرقبها من مقبرة باب الفتوح، سوى على صومعتي مسجدي القرويين ومولاي إدريس. وحين يطرحون السؤال على المتسكعين الذين يغزون عند الأصيل المقابر وصخور الهضبة، فإنهم لا يَحيرون جوابا. وبعد يومين من وصولي إلى فاس، صرت أنا الذي يعيِّن لهم القبة الجيرية لجامع الأندلس، والذي يعلمهم أسماء الأبواب الشرقية للمدينة كباب الجديد وباب عجيسة. والحال نفسه على الطريق، فلا الرجال ولا الدليل، الذين قاموا بهذه الرحلة أكثر من مرة، بإمكانهم أن يقدِّروا بالتقريب مدّةَ كل مرحلة على حِدة ولو بفارق ساعتين. تلكم هي العلامات الصغيرة التي يسجلها الواحد منا مباشرة، وهي ليست بأقلَّ دلالة من الوقائع المدهشة التي تفصح عن نفسها لنا شيئاً فشيئاً. مثلا، ما يتعلق منها بجغرافية المغرب؛ ذلك أن الوزراء يستقون معلوماتهم عنها لدى البعثة الفرنسية. والروميون أيضاً هم الذين يتم الرجوع إليهم بخصوص العدد المحتمل لأفراد قبيلة متمرِّدة لا تبعد عن مدينة فاس سوى

بعشرين كلومترا. بل إن الناس هنا يجهلون عدد سكان فاس: هل يبلغون مائة ألف نسمة أم ثلاث مائة ألف؟ لقد صُرِّح لي بالرقمين، إذ لا وجود لإحصاء أو كنانيش للحالة المدنية. «لا ندري»، هكذا يجيب المخزن عن هذه القضايا التي تعتبر اليوم جوهرية له. يولد الناس ويموتون في أزقة المدينة القديمة من غير أن توليهم السُّلطات أي اهتمام يذكر، ومن غير أن يعرف المجتمع بوثيقة محرَّرة رسميا دخول أحدهم لمدينة أو رحيله عنها. وبالشكل نفسه، لا وجود ثمة لسجلِّ المحافظة العقارية، ولا لسجل تقويم الضرائب؛ فالضريبة تجبى من قِبل فلاحين ينهبون من كل حي ما استطاعوا، مرة كثيراً ومرة قليلا. أما صرف المياه فيوجد هكذا من غير خطة وتبعاً للحاجة الملحة وبمساعدة الكلاب ونظام للميازيب والبالوعات يعود لتأسيس المدينة، ومن غير أن يعرف أحد كيف يشتغل على وجه التقريب. وهكذا، فإن الإدارة بكاملها أكثر عتاقة وترهُّلا من تلك الميازيب، وليست بأقل قذارة نظرا لتعاطيها للفساد والرشوة. لم أكن مخطئا حين رأيت للمرَّة الأولى أسوار فاس قُبالة المراعي، أحسست هنالك بشيء طبيعي عتيق، يرتمي في السهل البرّي الموحِش، في شكل قشرة أرض تآكلت مع الزمن، باعتبارها نتاجا عفويا للحياة صارت مُتداعية، من غير أن تسعى أي إرادة يقظة اليوم ومن الداخل إلى العمل على عودتها الحتمية إلى الطَّبيعة. في قلب هذه القشرة القديمة المتصدِّعة، لا تزال أوصال الحياة ساريةً إلى اليوم بإيقاعٍ متسارعِ البطء والوتيرة. لكن ليس هناك من نظامٍ يحكم الأشكال أو الحركات، ويتحكَّم في الولادات؛ والوفيات لا أحد يهتم بها أي اهتمام.

يكفي النظر إلى هذه الوجوه والأجسام التي تتحرَّك فيها بالكاد لكي يدرك المرء منا إلى أي حد تفقَّرت هذه المدينة وفرغت من قوتها الحيوية. وأنا أتفهَّم هذه الجمهرات من الناس الخاملين في أسمالهم في جذر الأسوار الحصينة المتداعِية. إنها تتلفَّع بالصمت، وتجلس في جمود بليدٍ لا يكف عن إدهاشنا. قد يقول قائل إن ذلك يعتبر أيضاً شغلا من الأشغال بحيث يلتقي الناس ليجلسوا بلا حراك، ويستسلموا للأحلام والغفوات مع إخوانهم. ويتحرَّك سيلٌ من الناس بشكل غامض من هذا الطرف لذاك من السور الذي يغلِّف وجودهم ويدفئه ويبهجه. في هذه الوضعيات السّكونية ثمة شيء يتحرَّك مع الغرائز ويجمع الناس في علاقات اجتماعية. كما أني أتفهَّم أيضاً حال الشيوخ والعجزة والعرجان الذين نصادفهم كل يوم في

زاوية الزقاق. وهم يبسطون يدهم بشكل آلي من غير توقُّف، وشفاههم تغمغم رغما عنهم اسم مولاي إدريس. إنهم أشبه بالموتى، ولا يخصهم غير السكينة وشيء من الظل والشمس. لكن ما خطب هؤلاء البورجوازيين الشباب الذين يأتون ليقرفصوا في الممرِّ الباهت الهادئ لحيِّنا؟ في الرابعة مساء، ألاقي أحدهم هنا أو هناك يمشي محاذيا للسور بخطى وئيدة. وهو يكون ذا هيئة حسنة، بحايكه ذي الثنايا المتراتبة بشكل منظم، والأصفرُ الفاقع لحذائه يلمعُ بطراوة. إنه يملك لحية هيئة قاض. وها هو يتوقَّف هنا، عند أول مكان ملائم أو مكان ظليل، أمام شجرة برتقالٍ مزهرة تتجاوز رأس السور. ثم يضع أرضاً بساط الجلد الأحمر الذي لم ينس حمله تحت إبطه، وينزل أرضاً بعد قرفَصة رجليه. وحين عدنا في السادسة كان لا يزال هناك، وحيداً دائماً في الزقاق الخالي من المارة، أو أنه تحرك، لكن فقط لمتابعة انزياح الظل. ما الذي يستطيع أن يجعل فاسيا وشابا من أعيان البلد وفي صحّة جيدة يتجمَّد هنا في هذا الممرّ الكئيب كما لو كان في حبس؟ وجاءتني الإجابة من رجل من مدينة تلمسان الجزائرية، فهذا الحي من الأحياء الراقية للمدينة التي تقطنها بورجوازية المخزن الكبرى التي اغتنت كثيراً بفضل الإدارة. وهؤلاء البروجوازيون، يعرفون أكثر من العامة تذوق طعم العَطالة.

في الصباح، أفاق الكل متأخرين. وخلال ساعة، جالساً على أعقابه، ظل يرتشف الشاي بالنعناع أو الحامض بتأنٍّ وتؤدة قرب آنية الشاي التي يهيئها بنفسه. ربما كان قد راح للسوق لتقصي الأخبار، المعجزة الأخيرة لأحد الطامعين في العرش (بوحمارة)، واغتيال أحد التجار على يد البدو. وغالباً ما بقي في بيته مستمعا في خشوع للسمفونية الأبدية لانبجاس مياه النافورة، أو إحدى الزنجيات وهي توقع نغماتها على قيثارها الثنائي الوتر في الرياض. وفي نهاية العشية جاءته الرغبة في القيام بشيء ما. حينها تأبط مربعه الجلدي، وبخطوات وئيدة سار لاختيار مكان في الظل في الزقاق الموالي وصار يتأمل غدو ورَواح المارة والروميين الممتطين صهوات جيادهم مصحوبين بعساكِرههم العائدين للمفوضية الفرنسية. وفي المساء، تناول عشاءه جالساً على الأرض فوق زربية رباطية. وفي الأفران يحترق خشب الصنوبر مطلقاً لهيبا مزرقا. خدم شابات يأتين ويرحن ملامساتٍ وجوه الضيوف، مثيراتٍ في نفوسهم فكرة الليلة الساخنة التي سيقضونها معهن، ليلة عشق فاسية شبيهة بتلك التي تنتهي بها

مآدب ألسيبياد[1] Alcibiade في جمهورية أفلاطون. وعلى حوض من النحاس تمتد الأصابع الجميلة وتنحني لتنغمس في المرق. الناس يكادون لا يتحدثون، ما لهم أن يقولوا؟ فبعد لحظة سوف تظهر الغانيات الزنجيات من جديد ومعهن آلاتهن الموسيقية. وتستمر السهرة الصامتة إلا من توقيعات القيثارة، ثم تمتد إذا ما ظل هناك ضيوف حتى الساعات الأولى من الفجر، التي تفتح فيها الأبواب الست عشرة للحي، كي يتمكّنوا من العودة لبيوتهم. هذا حين لا يتلقى الواحد منهم أو الآخر ملذات الليل التي تهدُّ كيانهم وتجعلهم أكثر شحوباً، والتي يسهرون على أن تملأ الفراغ القاتل لحياتهم.

لقد أتيح لي أن أطلع على شيء ما من هذه الأماكن الداخلية وهذه الحيوات. الطنافس والمجالس، وتلك الوضعيات المتكئة، وتلك الأرجل العارية التي تتشابك فوق الزربية الصوفية، في تموجات القماش الموصلي، والتي لم تحتذ أبداً غير النعال الرفيعة، وذلك الدخان المنفوث ببطء كما لو كان نفث سحر، وتلك الموسيقى الفاترة والرتيبة التي تهيِّج الأعصاب في المكان نفسه: يا لها من دعوة للخدر والنّوم المغناطيسي، ويا له من حمام تصاب فيه الإرادة بالبله. بيد أنهم لا يصابون أبداً بالملل، وهذا أخطر ما في الأمر. لو تعلق الأمر بأوروبي لكان أحس سريعا بالتخمة من هذا الخمول. إن ثمة غريزة زهد وبطولة حية ستجعل أخس واحد من بيننا يحس بوخز الضمير إذا ما هو انصاع لهذه الرخاوة الفاترة. في يوم ما قد يبتكر لنفسه شغلا يشغل به يديه وباله، وسوف يجد فيه حافزا طيبا للقيام بمجهود ما. إن له احتراما لكل ما هو حيوي وشخصي في ذاته، أعني قوته الإرادية، وتحكمه في الكائنات والأشياء. ثمة يكمن الاختلاف الجوهري بين إنسيتنا وهذه الإنسية. وفي متم النهار، في الوقت الذي يقومون فيه بالنزهة على ضفاف مجاري المياه محملين بطناجرهم، يمارس الأوروبيون ركوب الخيل في الفلاة، ولا شيء يبدو مبهما لأهل فاس هؤلاء أكثر من هذا اللعب الذي لا طائل من ورائه. وإذا كان من بيننا من يكرهون الحركة ولا يرغبون، كما المغاربة، في المشي إلا بخطوات وئيدة تشبه خطوات البغال النائمة، فهم الأورورببون المقيمون هنا من أمد بعيد ويلبسون البرنس والجلباب، والذين تأثروا عميقا بعوائد الأهالي.

ومع ذلك فإن هؤلاء يحافظون على العناء الذهني، وهم يقرؤون ويكتبون، ويظل

(1) أحد مشاهير الأرستقراطية الأثينية. عرف بجماله وفضائحه في مرحلة الشباب. ثم صار تلميذا وصديقا لسقراط.

فكرهم على علاقة مع أوروبا من خلال المجلات والكتب. أما فكر الفاسيّ فإنه ينحصر بين حيطان فاس، في المدينة البالية التي لا تتواصل مع العالم لا عبر طرق برية لا تقطعها غير الدواب. وحتى الثقافة العربية القديمة التي كانت فاس المدينة الوحيدة الحافظة لها بعد سقوط غرناطة، انتهت إلى الموت من فرط الفتور. يحدثني بعض المسلمين عن القرويين، وعن جامعتها وعلمائها وفقهائها وطلبتها، لكن إذا كان ثمة من علم واحد من ذلك لا يزال حيا، فهم لا يستطيعون تحديدَ ما هو. كل شيء يختزل في القرآن والتفاسير والبيان والشريعة، أي القرآن مرة أخرى، وفتاوى الفقهاء الشهيرين، ودراسة الآيات التي تستعمل خلال النزاعات. وثمة مهمة خطيرة يقوم بها العلماء تتّصل بالفتوى التي يطلبها المؤمنون للنظر فيما إذا كان اللجوء للأطباء الأوروبيين مباحا: فبأمر من السلطان، قام العلماء بالبرهنة على أن كرامات الروكي بوحمارة ضربٌ من الشّعوذة، ونظموا القصائد في هجائه، وبحثوا في القرآن عن الآيات التي تنكر السحر. أما الطلبة، فأنا أعرف كيف يتسلّون، وهو أمر كاف كي أستنبط منه كيف يشتغلون. كانوا البارحة يسرحون ويمرحون في الأسواق، في مواكب صغيرة تتبع جوقة موسيقية ركيكة وهم يطلبون الصدقة في طست. لقد بدأ حفلهم السنوي[1]، وهم يعسكرون خارج الأسوار حول سلطانهم الكرنفالي. ذهبت لأراهم فلم أعاين شيئاً أكثر كآبة من حفلهم. كانوا على شط وادي فاس، يجلسون جماعات جماعات، بعضهم يقلي الإسفنج، وآخرون اللحم من غير كلام، والآخرون كانوا منكمشين على أنفسهم يتأملون المرعى.

الكسل الكوني يؤدي إلى اللاأمانة الكوني. إن حال هذا المجتمع يشبه حال بعض المرضى الذين يفقدون أخلاقهم بمقدار ما يصيبهم الوهن. لهذا فإن الإنسان المنهك حتى النخاع يكتنز قوته على حساب واجبه الأخلاقي. ولأنه في فقر مذقع، فإنه لا يبذل جهداً، ومن انحسار ذاته هذا لا تبقى غير الغريزة الأنانية باعتبارها أكثر جوهرية للحياة من الغريزة الاجتماعية. وفي الآن نفسه تنفصل التركيبات الأخلاقية عن الإرادة التي تقوم بدور المقاومة والتنسيق، فيسقط ضحية الأمزجة والأهواء ويبدأ في تجسيد مبدأ الفوضى الذي سيعدي به مجموعته الاجتماعية. على المرء أن يأتي إلى هنا ليتأمل عميقا في المُثل التي نادى بها كارلايل

(1) يشير شوفريون هنا إلى ما عرف بالمغرب بحفل «سلطان الطلبة»، الذي كان ينظم كل ربيع لمدة أسبوع. وهو عبارة عن كرنفال يتحول فيه طالب منتخب إلى سلطان، ويحتفل فيه الطلبة بعيدهم السنوي. وقد حُظر هذا الحفل سنة 1967.

Carlyle وروسكن[1] Ruskin للمجتمعات الأنجلوساكسونية. وحين نرى نقيض تلك المُثل متحققةً في أرض الواقع، فإننا ندرك أن خيرات شعب ما الوحيدة تتمثل في كمية حياته المنتظمة المطبّقة على الغايات العامة بحيث يكون كل فرد مسرورا بدفق طاقته، متلقيا من العائلة والمدرسة والمهنة والدين الأنظمةَ والآدابَ المكتملةَ التي تساهم في تناسق المجموعة التي ينتمي إليها، وتتحكَّم في استعمال تلك الطاقة وتسعى بها إلى القيام التام والحميم بالواجب. إن الانطلاق العفوي للإنسان نحو المهمات المعتادة، التي يحبها ويحترمها لذاتها، وإلى المهمة اليومية التي تسِمُه بطابع اجتماعي معين، والتي تكون وراء جماله وكرامته، هو العنصر الحيوي لشعب ما. وإذا كان روسكن يضيف لموعظة كارلايل نصيحة الراحة واللَّهو، فذلك حتى تتراكم من جديد قوى العمل والاهتمام. في المجتمعات الأكثر خمولا يتبقّى دوماً شيء من قبيل ما يسمى الخير الاجتماعي، أعني مثلاً عمالا يهتمون بالصالح العام، وجنودا متفانين في خدمتهم، . لكن خمول المجتمع وفتوره في المغرب وصل إلى حدِّه. لنتفحص هذا العالم الذي يبدو جموده الغريب جميلا بحيث نقارنه بالعمل الذي لا روح فيه، وبهيجان جماهيرنا في الغرب، وسنتعرف حينها على الرائحة المنبعثة منه. إن له جلالة الجثمان، والفنّان منا لا يرى أولا سوى تلك الجلالة. قبل أن نتعرف على هذا البلد، كنا نرغب بحماس في ألا يأتي رجال الصناعات والقاطرات كي يكسِروا هذا السّكون وهذا الجمود العتيق، وألا تغدو فاس ما هي عليه مدينة طنجة اليوم، بخَليطها من الإسبان واليهود والمارسيليين، وإعلاناتها الصارخة وكل هذه الغوغاء التي لا يُعرف مصدرها، والتي يتفاداها المسلمون بالانزواء في ذكريات العصور القديمة والبياض الأبيّ لقصباتهم[2]. لقد تمنيت، في هذا القبح المطَّرد للعالم الذي تمارسه الحضارة الصناعية التي نسميها الحضارة، أن يظل هذا البلد بعيداً عن آثارها، وأن يستمر هنا إلى الأبد العصر الوسيط الإسلامي بعقيدته وأشكاله الأصيلة، والحلم الخاص لجماهيره، وهو حلم حرّ لن تحد من مداه أي هيمنة أجنبية. لكني انتهيت إلى أن أدرك أن كل شيء أفضل من هذا الجمود والتحجر الراهنين. فهذا المجتمع قد يستعيد

(1) طوماس كارلايل (1795-1881) كاتب سجالي ومؤرخ إنجليزي كانت لمؤلفاته آثار عميقة خلال المرحلة الفكتورية. وجون روسكين (1819-1900) كاتب وشاعر ورسام وناقد فني إنجليزي. وكان شوفريون متأثراً بهما وبأفكارهما، كما بأسلوبهما في النظر للحياة.

(2) القصبة عبارة عن حصن أو قلعة تخصص لإيواء الجنود. وهي في فاس توجد قرب أبواب المدينة.

رعشته وحيوته بالتماس مع الحياة الأجنبية. وعلى كل حال فإنه لن يخسر شيئاً لأن الموت هو الحال الذي لا يمكن أن يتزايد خطره. وما هو عليه حال المغرب اليوم، لا تكفي النظرة السريعة لمعرفته، ذلك أن شكله لا يزال هو شكل الكائن الإنساني الحي. علينا أن نتوصل إلى معرفة باطنه؛ أن نعرف كل شيء عما يقوم به الوزراء والعمال والخلفاء والمحتسبون من سلب ونهب من أموال الضرائب التي يختلقونها، أو يجبونها على هواهم، بحيث يجعلون الفقراء من الناس يدفعونها في الأول نقدا ثم ثانية عينا، وذلك قهرا بالعصا والسجن. أن نعرف أن من نتيجة ذلك البغاءُ العام، الذي تشجعه السلطات لأنه يدرُّ عليها أرباحا من شهوات الرجال. وعلاماته ظاهرة في فساد هذه الأجسام التي لا تبدو جميلة إلا لأنها مكسوَّة، وكذا في حال الرعب الذي يعيشه من فترة لأخرى الناس الحضريون خلف أسوارهم المتهالكة، كما في عجز الجيش والفوضى المزمنة التي يوجد عليها. الضباط يسرقون قوت جنودهم، والجنود يبيعون للمتمردين خراطيشهم وبنادقهم، ويفرون من الجيش متى شاؤوا. وعلى المرء لتفحُّص هذا الفساد والانحلال أن يستشير، كما فعلت ذلك، الأوروبيين المولودين في البلاد أو المقيمين بها من مدة، والتجار ورجال السلطة الفرنسية، والضباط الفرنسيين والأطباء، لكن أيضاً المسلمين الجزائريين المقيمين بطنجة والقصر الكبير أو فاس، الذين لا يتحدثون إلا عما يرون بسخرية ومقت.

وإذا ما اقتصرتُ على ما صادفته عيناي خلال بضعة أسابيع، فإنني أسجل الوقائع التالية. في ليلة وصولنا، أعلنت مصلحة البريد أن بريد طنجة قد تعرض للسَّلب في الجبل الأحمر. وهو ما يحدث هذه الأيام مرة كل أربع رحلات. وبعد بضعة أيام أبلغ المخزن الأوروبيين أن حياتهم معرضة للخطر مهما كانت الحراسة المحكمة حولهم إذا هم جاوَزوا الأسوار بعد السادسة والنصف. ويومين بعد ذلك، على الدرب المحاذي للوادي قرب باب «سيدي بوجيدة» قُتل أربعة أشخاص في وقت المغرب، أي في الأصيل الرائع ووقت بداية الإظلام ذي المسحة الذهبية في بلاد المغرب. إنه وقت الخوف أيضاً. وبما أن البادية تكون خلاءً فإن قطّاع الطرق والسارقين الذين يدورون على مبعدة من طرائدهم، يتقدّمون منها بمجموعات صغيرة كبني آوى الذين يختفون نهاراً، ويباغتون الدواب والناس، أي كل من لم يحتم بعد بنفسه داخل الأسوار. وهم يتجاسرون منذ السادسة قرب وادي فاس، ويتقدّمون وهم يتوارون

خلف الصخور والبساتين ومرتفعات النهر، مترّصدين المارة، مراقبين طرائدهم في خفاء. لذلك فحَرسنا يعلّمنا كيف نتعرَّف عليهم، ويصفون لنا هيئاتهم والحركات والإشارات التي تخون مقاصدهم. فحين نبصر بمجموعة مشبوهة من الفرسان علينا ألا نتركهم «يقطعون» بيننا وبين المدينة، وأن نتفادى المرور على يسارهم، أي من الجانب الذي يمكنهم منه لكي يطلقوا النار من غير أن يتحرّكوا من على صَهَواتهم فقط أن يصوِّبوا وجهتنا فوّهات بنادقهم. وإذا ما نحن تسلّحنا بهذه التَّكتيكات المتنوّعة يمكننا التجوُّل بأمان. نحن في الحقيقة أقل تعرُّضا للخطر من بورجوازيي فاس؛ فقطاع الطرق البربر هؤلاء ليسوا أناساً متعصبين، وهم لا يمقتون الرومي، وليس لهم على أي حال ما يسلبونه منه. ما الذي سيفعلون بسرجه الذي لا يتوفر على متكأ وبركابه الأوروبي؟ إن طريدتهم الأساس هي فاس، فاس المحتضرة التي يمنعونها من التواصل مع الجنوب، ومع مدينة مكناس القريبة جداً منها، والتي تحتِّم علينا التخلي عن زيارتها. وفي العديد من المرات استطاعوا تجاوز الأبواب الكبرى، والمرور تحت قوس وقبب باب المحروق، التي لا تفزعهم الرؤوس المعلّقة فوقها من زمن. وفي الحال يتم إغلاق الأبواب الكبرى التي تعزل الأحياء الستة عشر للمدينة، لكن الأسواق الأولى تظل تحت رحمتهم.

قبل سنتين، ظن أهل فاس أن ساعتهم حانت. فقد عرفت فاس رجَّةً حول يهودي تجوّل في فاس على ظهر جواد، وهو مطية ممنوعة على اليهود من أمثاله. وفي الساحة الكبرى لـ«بوجلود»، الغاصة بالناس على عادتها وبالمعسكرات والمتجولين، نفرَ الجواد وصدم أحد الصلحاء المتسولين الذين كانت الناس تهرع لتقبيل يده عند مروره. انتُزع اليهودي حينها من على مطيَّته، وضُرب ضربا مبرحا ثم اقتيد إلى حظيرة مليئة بالتبن ورش بالغاز وأضرمت النار فيه حيا. بعدها، بدأ اقتناص اليهود الذين تحصّنوا بالملاح. وساعتين بعد ذلك وصلت جحافل البربر قرب السور، فقد بلغهم أن الملاح سيتعرض للنهب. وكما السماء التي تمتلئ بالطيور الجارحة عقب معركة قاتلة، والتي لا يعرف المرء من أين هي آتية، بدأ هؤلاء البربر عملية النهب من غير أن يعرف أحد من أين وصلهم الخبر.

هنا نعيش ذروة الأمر، قبل غبار التحلُّل الاجتماعي ورمادِه. بيد أن كل بلد من البلدان الإسلامية يعرف مشاهد من قبيل هذه: الجمود الكبير الذي لا تكسر رتابَته سوى النشاطات

التي تمنح الموت. ونحن نخال أن العقيدة هنا، بعد أن كانت وراء مجتمعات ذات نمط معين، أصبحت خميرة خَفتت طاقتها. وبما أن ذروة التطور قد بُلغت، فإن التغير لا يتم إلا نحو الانحطاط، ولا شيء يبقى إلا بقوة الجمود المهيمن، ليتآكل بأثر الأفعال الخارجية، ويتفجر بالمسعى الداخلي للتفكُّك. وفي المدن كما البوادي، كل شيء يحمل السمة المادية للموت: الخراب والتآكل والأراضي القفراء، والأسوار المتداعية، والدور العتيقة التي تنهار، والخراب الذي يختلط بالصخور، والمقابر الرائعة المهملة تحيط بها يعيش ذروة الانحطاط. وليس ثمة من قوة تشكيلية لممارسة البناء وتنظيم المادة الميتة انطلاقا من المادة الجديدة. في المجتمع كما في كل نفس، حين يكون كل شيء قد تكوَّن وتبلور سلفاً تبعاً لقانون معين، فإن كل إمكانية لتَشكُّلٍ جديدٍ تغدو أمراً منكراً، وكل سعي نحوه يصبح أمراً غير مقبول. ليست فقط فكرة الشكلِ الجديد هي التي لا يمكن تصوُّرها، بل إن إبصار شكل أجنبي لا يثير غير رد الفعل العدائي. إن النموذج الأوربي ليس له من سطوة على عقول من قبيل هذه. فهي لن تعمل على السُّمو إلى الرِّفعة المعترف بها، سواء بشكل متهوِّر كما هو حال البنغاليين، أو بشكل ناجح كما هو حال اليابانيين. وحال هذا العالم هو حال الأنواع الحيوانية التي بلغت، بتلمُّس الأشياء وبالابتكارات المتتالية، إلى أنظمة من الغرائز الثابتة. وهذه المخلوقات لا تعترف بتردّد الإرادة التي تكون أمام الاختيار، غير أنها مثلها تتلاءم بصعوبةٍ مع المحيط. وإذا كان لتلك الكائنات أن تصوغ أخلاقاً ما، فإن ضرورارتها الفئوية ستترجِم سلوكها الآلي.

إنه حال العالم الإسلامي حرفياً. ثمة شيء وحيد يمقُته هو التغيير. ومن ثم، ومن ثم فقط رفضُه قبولَ أدوات حضارتنا. لا يتعلق الأمر، كما يمكن أن نعتقد، بنتائج السكة الحديدية التي يرهبونها، ولكن بالسكة الحديدية التي لا يرغبون فيها. إنها ابتكار لم يأت ذكرُها في القرآن. وهي لا تشكل جزءا من المجال أو الكون الإسلامي، فهذ الكون خلقه الله مرة إلى الأبد، وهو يوجد في الزمن في شكله ذاك، وإذا ما كانت تظهر عليه هنا وهناك علامات التّلَف، فلا ضرورة لتجديده بالاختراعات. المسلم كائن لا يتصوَّر أن الاختراع أمرٌ ممكنٌ. وقد صادفت على ظهر إحدى البواخر السورية شيخ إحدى القبائل البدوية، استجاب لأول مرة للدعوات المتكررة لسلطان إسطنبول، فقرر باحتراس شديد أن يسير إليه لمبايعته. إنه رجل لم يغادر أبداً صحراءه التي تمتد من الشرق إلى دمشق. والمدن الكبيرة التي توقفنا بها

كبيروت، تركته في حال من الحلم الروحاني. كنا نراه يغمغم: «يا لعدد الآبار. الله أكبر». وقد اعتقدنا أننا سندهشه حين أريناه آلات الباخرة : فلا شيء يمنحنا فكرة رفيعة عن القوة المنظمة أكثر من الدوران الهادئ والمنتظم لهذه القطع الهائلة من الحديد. لقد أصيب بالدهشة لكنها ليست مختلفة عن الدهشة التي اعترته أمام البحر أو أمام الآبار المتعددة في بيروت. سألنا الشيخ إن كان هذا الشيء العظيم من مخلوقات الله، أو أن الأسلاف قد وجدوا وصفا له في القرآن. هي ذي وجهة نظر المسلم التي تنكر من إنسان اليوم أن يقدم الإضافة للعالم المعروف من إنسان الأمس. وطبعاً لا شيء يصرَّح به بدقة: فلا يقال مثلاً إن الآلات الإنسانية هي من عمل الله أو من وَحيه. فسواء تعلق الأمر بدولاب الغزل أو بحذاء أو بسور مسنَّن، فكل ذلك ذو مصدر غيبي لا يصله فضول الإنسان، أي أنه ذو مصدر إلهي في نهاية المطاف، كما الزهرة والطائر اليوم، اللذين يتعلقان باشتغال الزمن في سيرورته. كل هذا يؤلِّف نظاماً قائماً حيث كل جيل من الأحياء يأخذ دوره في الحياة. أما أن يتفكك هذا النظام، فذلك أمر يخص الخالق الذي يبيحه. وما الذي يستطيعه الأحياء غير الاستسلام والإيمان به أكثر فأكثر؟ إن هذا التصوُّر الرّوحي الإسلامي متأصِّل جداً بحيث أعثر عليه فجأة حتى لدى المسلم الأكثر تأثراً بأوروبا، كذلك الموظف الجزائري في بعثة لفاس، وهو أحد أبنائنا المفرنسين بالإشارة والحركة بحيث لا يبدو شخصاً مميَّزاً.

لكن أحياناً يتبدّى لنا العمق الغني. لقد سمعنا موسيقى مغربية رائعة وقديمة، فسألنا إن كان الموسيقيون لا يزالون ينظُمون الشعر. أجابنا أحدهم: «بالتأكيد». وأضفت: «ويؤلّفون الموسيقى والألحان والمقاطع؟». فعبّر عن اندهاشه: «تأليف الموسيقى؟ لكن لماذا؟ الموسيقى المغربية والأندلسية موجودة وأنا أحفظها كاملة في كتاب. وهي تتكون من خمس وخمسين مقطوعة، وكل واحدة تدوم ساعتين مع تنوعاتها. وأحياناً، في بعض الحفلات، نعزفها كلها لمدة أيام، لكن ذلك يأخذ وقتا طويلاً، فالموسيقى الأندلسية تدوم مائة واثنين ساعة...».

بما أن أول وصيَّة أخلاقية تتمثل في عدم التغيُّر، يدافع هذا المجتمع عن عيوبه ونقائصه باسم الأخلاق. وقد حكى لي الكولونيل الإيطالي الذي يشرف هنا على مصنع السلاح الحكاية التالية: لقد رفض حَمولة من النحاس تحمل أكثر من ثلاثين بالمائة من الأوساخ، فجاءه وزير الحربية مستفسرا عن السبب، فأجابه الأوروبي: «إنها لسرقة، لا يمكن أن يتجاوز

ذلك حدَّ ستة بالمائة». فأجابه الوزير: «آه، إن ذلك قاعدة أوروبية، لا قاعدتنا؛ ففي المغرب يحقُّ لنا أن نتَّبع قواعد المغرب!». ذلكم هو الرأي المبتَسَر الناجم عن الجمود. كان من شأن نشاط الجهاد في الماضي بناء المجتمع الإسلامي. وبعد بنائه، أصبح الهمُّ الأساس متمثلاً في أن يظل إسلامياً. إنها أخلاق ذات طابع شرعي حصرا، تتكئ بكاملها على الشعائر والأذكار، مثيلةً لما صار عليه مجتمع إسبانيا لو أن محاكم التفتيش هيمنت عليه، وعوَّضت أحكام الرب بالأحكام الوحيدة للكنيسة. أما في المجتمع الإسباني فإن الجهاد كان مُهيمنا. لقد حوكم ابن رشد وتوفي في المنفى، واضطهِد الفكر المستقل، ودُمِّرت المكتبات التي كانت تحوي الإرث العلمي والفلسفي لبلاد اليونان ونصوص الإسكندرية، ومعها الترجمات والشروح التي سوف تخلخل بعض الصفحات منها التي نسخها اليهود وتأمّلوها في البلاد المسيحية، كي تمنح لفكرها فُتوَّة دائمة. لقد أحرق علماء قرطبة أكثر من خمسمائة ألف مخطوط أمام جامع قرطبة، فانتصر الجامع ولا أحد صار يناقشه في السيطرة على النفوس. وهكذا صارت الأجيال المتوالية متشابهة في سُلوكها ومباحثها وعلومها الجامدة، مجترّةً لصورة لا تتغير. وصار الخير محصورا في تلاوة الشهادتين، وفي ممارسة الشعائر وتكرارها، تلك الشعائر التي تميز المسلم عن غيره. هذه الأخلاقيات هي ما نجده في مدينة فاس.

حين ضُبط أحدهم متلبساً بممارسة الجنس الخسيس، ابتسم له صحبه، بل حيّوه على فحولته ونكَّتوا عليه. ولو ضُبط وهو يدخن علنا في الشارع العام في يوم من أيام رمضان لتعرَّض للشنق. الآن أدرك أفضل هذه الهيئات الجنائزية، وهذا الشحوب الشبيه بفقر الدم، وتلك النظرات الغامضة والحائرة، التي يمكنها أن تصير فجأة نظرات عداء. وهي تصير كذلك حين يُمس في النفس الخيط الوحيد الذي يجمع نواة الحياة. فعلى عكس البدو، الذين يختلط لديهم الإسلام بعادات بدائية، والذين لن يهاجموا الرومي إلا لكي يسلبوا منه أتاوة ما، يبدو أن الفاسي يغدو خطيراً على الأوروبي بتعصبه الديني. لا ينتظرنَّ أحد منكم أن يتلقى منه السباب والشتائم، ولا الحركات العنيفة، لكن احذروا هدوء هذا الشعب. حين يتجوّل أحد النصارى كثيراً حول ضريح مولاي إدريس، أو يمر محاذيا لمجموعة من الأشباح الباهتة المتحلقة حول عالم من العلماء تسمع لمواعظه، سوف لن ينتبه لخنجر موجه له خارج الغمد، من غير أن يكسر ذلك حال الصمت والسكينة في المكان...

ومن بين الأسباب الخفية إلى هذا الحد أو ذاك، التي أوقفت فجأة مسير تطور هذا العالم، ثمة واحد يبدو بديهيا هنا، وهو مبدأ إجهاض تحمله المجتمعات الإسلامية في باطنها منذ تكوُّنها. وأنا أتحدث هنا عن الأخلاقيات الجنسية للإسلام، الذي لا يرى في الحب غير وظيفته التوالدية والمتعة الجسمانية، ولا يضبط المرء ويوجهه بل يدفعه إلى المتع المباشرة والبسيطة. وعن ذلك تنجُمُ العديد من الآثار والنتائج. وهكذا فإن الغريزة الفطرية حين يتم تشجيعها تقف عند حدودها كغريزة. ليس ثمة من تعاليم تعوقه وتضطرُّه من ثمَّ إلى التحول إلى فكر وإرادة. فمتى ما ظهرت الحاجة الجنسية يتم إشباعها. وهو أمر عقيم من الناحية الروحانية لأنه لا ينتج إلا إشباعاً جسمانياً يتم تدريبه منذ البلوغ المبكر. ومن هذا الهدف المركزي للحياة، لا شيء هنا يتم إلا من خلال الجسماني. والخيانة الزوجية بفاس أندر فيها من الخيانة التي ترويها الروايات الباريسية، لكن ليس ثمة من «جحيم العواطف المزدوجة»، وليس فيها من «متاهة تعقُّد عواطف القلب». وقد فسّر لي أحد المسلمين كيف تتم تلك الحبكات العاشقة التي لا يمكن أن تُتصور بدايتها في بلاد تعيش فيه النساء معزولات ومحجّبات من الرأس حتى أخمص القدمين. لا شيء أسهل من تلك المغامرات. فحين تحتاج امرأة للمال، أو أنها تضيق ذرعاً بملَلها، فإنها تحلم بالمتعة. وهكذا تُسرُّ بذلك لمزيّنَتها، أو لبائعة المجوهرات التي ترتادها، أو لأي امرأة لها التجربة المطلوبة. وأغلَب النساء العواجز بفاس يشتغلن بهذه الأمور. وفي إحدى الليالي، وفي الموعد المحدد، يقطع أحد الذين أغووها الزقاق، بعد أن وصل إليه قافزاً من سطح بيت إلى آخر، ويستقرُّ في سطح بيتها، كقط يشبع رغباته بشكل سريع وأولي. أما أرباب البيوت، الرجال من الأعيان الموسرين، ذوو الحايك الكبير الذي يلفُّ جيّداً أجسامهم، الذين يكرهون الليل كما ضربات العصا، فالأمور أسهل لديهم. إنهم يروحون بشكل محترم لفندق العبيد كي يختاروا واحدة من بين الزنجيات الأمات المكتنزات ممن يرغبون فيها، باعتبار أن أهل فاس معجبون بهن أيما إعجاب. وبضمير لا يتحرك، يتحسَّسون اللحم الغامق ويُساومون في الثمن، ويضعون أصابعهم في أفواههن للتأكُّد من صحة أسنانهن. وتبعاً لحجم ثروتهم، فهم عادةً يسعون إلى تجديد عائلتهم النسوية بهذه الطريقة، بشكل إنساني وأبوي، لأنهم لا يعيدون من ذاقوا عَسيلتها أبداً إلى السّوق، بل تظل تعيش بين ظهرانيهم، خادمات للزوجة الجديدة يُساعدنها في أشغال البيت.

هؤلاء يقدمون المثال في الفضائل البورجوازية وفي ضرورة عتق الرِّقاب وتحرير العبيد الذي نادى به الإسلام. إنهم أغنياء لأنهم مؤمنون متعبِّدون عليهم نعمة الله وبركاته. وقطف ثمار الشهوات هو جزاء المصلِّين وأصحاب السُّبحات والشرفاء أي أولئك الذين يبارك الله نفوسهم. وذلك الذي يخرج من بين أذرع الزنجية يمكنه بعد الوضوء والتلفُّع بالبرنس الأبيض أن يحمد الله على نِعَمه. لا مُتع إلا مُتع الفرج والبطن، ومن بين مُتع الدينا التي خلقها الله لتجميل حياة الإنسان وإضفاء الخير عليها، فإن تلك هي الأكثر عمقاً. يا لها من مسافة تفصل بين أخلاق من قبيل هذه وتصوراتنا الأوروبية. ويمكننا أن نحكم على ذلك بهذه القصة التي عثرت عليها مكتوبة عن أحد أولياء القصر الكبير. كان سيدي فَضّول[1] خديماً ومريداً لسيدي الحاج العربي شريف وزان منذ ثلاثين سنة. وحين كان الشريف يوما في مدينة تطوان، حيث يعيش حياة البذخ والترف، وبعد أن نفد ما كان يملكه من مال، أبصر في سوق النخاسة زنجية أعجب بمنظرها وتاقت نفسه إليها فرغب في شرائها. فأسرَّ لخديمه فضّول بحرجه فأجابه هذا الأخير: «بِعني أنا إذن». وبعد تردُّد وحيرة، أجابه الشريف إلى طلبه، وبيع المريد فضّول بمقدار هام مكّن الشريف من الحصول على الزنجية. إن هذا التقديس الكبير للولي الصالح، وهذا الاهتمام الصادق بهموم بدنه، هي فضائل تجعل المريد ندًّا للولي. لهذا نعت الناس فضّول بـ«المربوط»، وصار الناس يلتمسون بركته في الأزقة والشوارع. إنها علامة يتعذَّر تفنيدها للتوحُّد بالخالق، وبامتلاك قدرات خارقة تمكنه من ارتياد جنان الله مع الصالحين. فصار الرجل مجنونا، وجثمانه لا يزال لحدّ اليوم مرتعا للكرامات في القبَّة البيضاء لضريحه بالقصر الكبير، التي يسهر أهلها بتفانٍ على تقديسه وصيانته.

إن حب الزنوجة هذا يفتح للفكر آفاق جديدة. وبما أني رغبت في أن أستكنه منه المعنى والنفسية، فقد تحدثت في ذلك الأمر مع أحد أهل فاس، الذي أجابني: «وما الذي تراه غريباً في ذلك؟ كان الشيخ ولياً صالحاً، غير أنه كان كائناً بشرياً، وربما كان زاهدا في أمور البدن لمدة طويلة. وبما أن الشهوة طاولته وألحت عليه، فلم يعد بإمكانه التفرغ للصلاة. فوقع بصره على تلك الزنجية وتملّكها، فدخلت السكينة إلى قلبه، وصار قادراً على القيام بواجباته وتلاوة الأذكار، والقيام بالمواعظ والخطب، فصارت حماسته أكثر ذلك اليوم لأنه أضاف لها حمده لله

(1) المعني هنا هو سيدي فضول المساري الكنوني.

وشكره له، لأن الله لا يهمل عبده ويجري الماء في الصحراء ليروي عبده منه».

ما الجواب على هذه التصورات العقلانية للإكراهات البدنية؟ ليس على المرء سوى الصمت والتمتُّع بأن يرى في وضوح هذا المثال علَّة. وهي من بين تلك العلل التي كبحت التطور الاجتماعي منذ زمن. إننا هنا أمام ديانة صارت اليوم مجردة من عناصرها القديمة النَّسَكية، التي تبلور بشكل لاواع عُمق مُثلنا وتوجه حياتنا نحو شيء آخر غير اللذة. بل إننا أمام أخلاق لا تدفع الإنسان إلى تجاوز ذاته، وتتركه كما الأشياء ضحية قوى الجمود، ولا تعود إرادته سوى على الحركة في المسارات الهشة.

لنضف أخيراً الآثار المباشرة والأكثر بداهة، كانحراف الطاقات الحية لصالح وظيفة واحدة. من المحتمل أن قوى الأمل والفرح، والنجاح المستمر لشعب ما يكمن في زهده عن ملذات البدن. وهنا بالضبط يكمن «تفوُّق الأنجلوساكسونيين». فلدى هؤلاء، فضلا عن اللعب في الهواء الطلق، ثمة قانون أخلاقي صارم، ورأي عام حازم، وكلها عناصر تفرض على من يتخلى عنها أن يتوارى عن الأنظار وأن يقاوم الحرج والإكراهات بالنفاق. لكن في فاس البئيسة هذه، في مدينة الظل المتلفعة بالتّقوى والوَرع والمنصاعة للجمود والانحباس، يحتفل الناس هنا بعيد ميلاد ابنهم الثاني عشر، بأن يشتروا له أَمَةً سودانية. وهذه الزنجية تكون هي علاقته الجنسية الأولى، كالساعة الفضية التي تُمنح في فرنسا للطفل عند تناوله القربان لأول مرة. وحين يُدرَك مبدأ الحياة على هذه الشاكلة فإنه يغدو مبدأً للموت، ينضاف للمبادئ الأخرى ليحول هذا الشعب إلى مومياء رسمية هي التي نرى بأم أعيننا.

– 5 –

عادة ما يحدث أن أخرج من باب الجديد، كي أسير بتؤدة بجانب الأسوار الأكثر قدما للمدينة، نحو الهضبة المحروقة بالصخور والقبور التي نراها في الشرق من سطح دارنا، والتي تنتهي معها المدينة هناك.

ومن زقاق «عقَبة الفئران» نتبع منحدرات تجعل السير صعبا، بحيث تنزلق قوائم الفرس وتدق بنرفزة الحصى في الطرق مكسِّرةً الصمت الجنائزي. ودائماً ذلك الانطباع الروحي الذي لا يمكن أن نتخلص منه في فاس. لم يكن المخزن بحاجة لإنذارنا، فالأشياء تتكلّم، وهي تكرّر علينا ضرورة الحيطة والتحفظ وأنه علينا عدم التجول هنا بنزق وتهوُّر. في المدينة التي لا يكف حصاها عن جرح أرجلنا يضطر حرسنا إلى حملنا كما البورجوازيين الفاسيين على البغال. إنها دواب خدومة ذات مشية وهيئة تأملية كما أهل فاس. ونحن لا نمتطي الأحصنة إلا للعدو في البادية. وهذه الأزقة التي نعبرها خالية بحيث لا يمكن أن تقع فيها الفضائح. أحياناً فقط نصادف رجلاً حالما متكئا على الحائط. وهو يخرج رأسه من البرنس ويرفع نحونا وجهه الشّاحب لكي ينظر إلينا بعينين خافتتين لا أثر فيها للتفكير أو الإرادة. كان أحد فرسان السلطان يقودني في التشابك المتعرِّج للأزقة. يسير أمامي بتؤدة ومرونة فوق صهوة جواده. ظللنا نسير في هذه الأقبية الباردة من غير أن نتبادل الكلام، دائماً على المسافة نفسها التي تفصل بيننا. لا يستدير أبداً نحوي، لكن حين يدخل في منعطف يميناً أو شمالاً أبصره جانبيا. إنه شاب ذو نخوة وكبرياء ونظرات نارية، وشفتاه منثنيتان على مينا أسنانه. الجيدُ والوجه المتماسك ذو الطابع المصري (كما هو الحال لدى البربر) قمحيٌّ وسط البياض الخشن للبرنس والرزَّة. والرجلان ثُني منهما السروال حتى تدخلا بحذائهما البالي في الركاب الواسع البدائي. كانت بندقيته موضوعة مقلوبة أمامه على السرج، وهو يتماوج ببطء على سرجه المائل على إيقاع خطو فرسه ساكناً لا يتحرك، رافعاً الرأس، مترصدا كنمر على أهبة الانقضاض على طريدته. يا له من حيوان صيد رائع! إنه أحد عساكر «الجيش» (من قبائل الشّراقة أو الشراردة) الذين لم يروَّضوا بما فيه الكفاية، بحيث قد يديرون الظهر في أول فرصة

تتاح لهم لأسوار فاس وأبراجها، من غير أن يجسر السلطان على متابعتهم، كي يمنح دوّاره البندقية التي ستصلح لهم في غارات النهب والسلب.

منحدرٌ أخير وها هو الرّبيع بلهيبه الأخضر ينبع في كل مكان من أشجار الصفصاف. وعلى مقربة من هنا، أكملت جثة الفرس تعفُّنها بحيث لم يعد ذلك الهيكل العظمي ذو الطراوة العجيبة نشازا في هذه الطبيعة التي استعادت عنفوانها. لم نخرج بعد من أسوار المدينة ومع ذلك يخال المرء منا أنه على جنب غابة، وبخاصة التواريق الواضحة لأشجار الصفصاف المائي المتماوجة والمنبثقة في لون أخضر محمر بين أشجار الصفصاف والنَّشَم. أما الأزهار، فمنها الرؤوس القرمزية لأشجار الرمان، والدّودية البيضاء كما الفراشات في وسط أكمات القصب وعلى الحواجز. في كل مكان ثمة العطور التي تحيي العظام وهي رميم، المنبعثة من الأرض المبتلَّة ومن العشب الصغير ومن إزهار النباتات. إنه الربيع المبكر لإفريقيا الذي يسبق ربيع فرنسا بشهر كامل، أعني ربيعنا في شهر مايو/ أيار الذي يكون قوياً ومنطلقاً نحو الصيف، ووافر العشب بعد التردُّد الأولي، والرعشات الباهتة لشهر أبريل/ نيسان.

ماءٌ جارٍ زُلال يتوارى وراء أكمات أشجار الرمان وتواريق القصب. والدرب الذي نسير فيه ينتهي إلى ضفّته. يبدو نهرا من أنهار ضواحي باريس، نخاله نهر اللوينغ[1] Loing في أيام عنفوانه، يصطبغ بشكل عجيب بكل ما ينعكس عليه، منغمس خفية في كثافة رخوة من النّباتات والأعشاب والأحراش، في الضّباب المنتشر والمعلّق الذي تشكله أشجار الصفصاف المائي. لكن هذا النهر الذي نعاين طافح بالشباب والقوة والفورة، بحيث يطلق صوت السيول الجارفة، بزبَدٍ متناثر أبيض وانحدارات نحو الحصى، وهنا وهناك، فضاءاتٌ هادئة هدوءاً مطلقاً، تتحوّل إلى مرايا خالصة، أكثر عمقاً وشفافية وغموضاً، بحيث يخترف الربيع هذه الصورة طولاً وعرضاً. ويمتزج بهذا الوهم الرائع زهور النيلوفر والسَّوسن الصفراء، بحيث تبدو الوحيدة التي تنتمي للواقع.

ها هي أسوار فاس المسنَّنة تترامى عبر هذه البادية، وها هو باب الجديد، باب الجنوب، عبارة عن قبّة غائرة العمق، شبيهة شبها تاما بتلك التي كانت تنتظر بغرناطة رجوع الأندلسيين في الغابة المقدَّسة للحمراء. بيد أن هذه القبة ليست مهملةً منذ أربعة قرون. ثمة

(1) أحد روافد نهر السين الذي يخترق باريس.

عساكر مغاربة يحرسونها (وهم غافون)، ممدَّدين على طولهم على مقاعد حجرية طويلة.

ومن الجهة الأخرى كانت المفاجأة الأكثر رومنسية، إذ وجدت نفسي أما فضاء استيهامي شكسبيري. ففي المكان الذي ينهمر فيه ماء الوادي بين الصخور ويدور فيه بتقلُّبات شديدة، يقطع سور المدينة مجراه العميق في شكل قوسٍ طويل جداً تنتظم قمَّته تسنُّنات خطية رائعة. ومن هناك تتساقط كوم من اللّبلاب لا بد أنها تعمّر مئات السنوات، بالنظر إلى ضخامتها وثقلها وطولها بحيث تلامس سيل النهر. بيد أن هذا الستار من اللبلاب ينزاح في الجانب ليظهر القوس الذي لا يؤطر غير الخضرة والانعكاسات على الماء. وهناك تتقاطع أسراب طيور المازور بمناقيرها التي يمتزج فيها لون اللازورد بلون الزُّمُرد على صفحة الماء، ومعها اليراعات بخفتها الفائقة ولونها الزمرُّدي، بما تحمله في أجنحتها من نور مرتعش...

إنها لوحدةٌ كاملة بين هذه الطبيعة والعمل الإنساني القديم. فالطبيعة تتكئ على هذا القوس نصف المهترئ كما لو كانت تتكئ على صخرة من صخورها. وهي تعلق عليه ورقاتها الربيعية، وتمرُّ مياهُها متلاعبةً تحتها، ودواماتها وتعرُّجاتها متحت منه مُنحنياتها، بحيث نخال هذا القوس أقدم من النهر. ومن هذه المياه وهذه الأشياء الخضراء اليوم، ومن هذه الحياة المتجدِّدة مرة أخرى، تنبثق التسننات والأبراج القديمة للسّور، غامقة كما ماضيها الغامض.

وبعيداً يتفتَّق سحرٌ وفتنةٌ أخرى. إننا نكاد نرى الطّراوة الصائتة لمرعى نرويجي في وقت ذوبان الثّلوج. في اليمين واليسار تنبثق شلالات صغيرة من المرتفعات، بمياهها المزبدة. ومن بياضها المتبخّر المتناسق يولد غدير يجري محاذيا للعشب. ومن كل جانب ذلك الماء الزلال الرقراق الذي يشكل هنا ماء الحياة والذي يذكرنا هنا، قرب فاس المسلمة الميتة، بالحوريات الإغريقية.

وفوق، على طرف الغابة الصغيرة، أبصرت بأشخاص أقلّ حياة من الأشياء. وعباءاتهم العربية تثير الدهشة. ففي هذا المنظر الطبيعي الشمالي البهيِّ الشديد الخضرة نسينا كل ما يحيط بنا. إنهم الصبّانون. وهم يدعسون بأرجلهم العارية وبإيقاع لامبالٍ الأثواب المطروحة في الماء الرقراق الذي يمتد فوق الشلالات الصغيرة. وعوض أن يقوموا بجَهد ما يبدون كأنهم يقومون برقصة في عيد من الأعياد...

قمنا بخطوات قليلة وانعطف الدرب. ووجدنا نفسنا فجأة خارج الفضاء الربيعي، ومن جديد في الأرض الإفريقية المصفرَّة، حيث يدفع النهر برعشاته المائية السريعة الرقراقة بين الأحجار، قبل أن يدخل في البساتين. ثمة دائماً قطعان كبيرة من البقر يُأتى بها للارتواء، فتمكث هناك وقتا وقوائمها في الماء، بين الشطين المليئين بالحصى. ثم مررنا على جسر عتيق يشبه ظهر الحمار.

بعده ظهر لنا تلٌّ لا تنبت فيه غير النباتات ذات اللون الرمادي المائل للبياض، من زيتون وألوة، ثم طريق غير متحدِّد، تتقاطع فيه مسالك ضيقة، يصعد سفح الجبل بين منحدرين مليئين بأشجار الزيتون. إنها أشجار حازمةٌ ورفيعةٌ تبدو وُرَيقاتها المرسومة بدقة وكأنها لا تتأثر بحركة الحياة، يخرج خشبها الكثيف من الأرض الحجرية في شكل عقد متكوِّمة. إنها أشجار نتكهَّن بأن نموها بطيء وتبدو غريبة بعد الرطوبة وانبثاق الخضرة الهاربة. يا لشحوبِ لونها. وحتى في الشمس الحارقة تبدو أشجارا للأصيل وغروب الشمس لأن النور يتأخّر عنها ويخفُت. ونحن نخالها أيضاً قمرا يبدأ في إبراز لونه الفضي في المساء على هوى مداعبات أشعته. إنها مقطع من الجنان المقدسة بحيث يمكن للظلال أن تحلق فيها وتظل هائمة بين السماء والأرض...

لا غرابة في أن القبور محاذية كلها لها. ونحن ندخل شيئاً فشيئاً، كما هو الأمر دائماً في ضواحي فاس، في المجال الأكبر للموت. ها هو منظر القبور والموت يعاود الظهور. وفي طرف الدرب القديم الذي يرتفع في فراغ السماء مع التلَّة، ينبثق جزء من سور المدينة غامقا منقوشا بلون فضّي، وتبدأ من هذا الجانب أيضاً الأراضي المقدسة التي دفن فيها الصلحاء والشرفاء وأعلام الفقه والعلم في فاس القديمة. هنا حقا تنطبع أشجار الزيتون بطابع روحاني وديني. وفي هذا المنحدر الذي تتناثر فيه القبور التي فقدت طلاءها والقبب المزينة بالزليج، يحرُم علينا أن نطأ هذا التراب، لأنها أمكنة حُرُم ممنوعة على غير المسلمين، كما هي الأسواق في مداخل الجوامع والأضرحة الكبرى لمولاي إدريس والقرويين وسيدي أحمد التيجاني في قلب المدينة القديمة.

سرنا ببطء في عز الوحدة محاذين للأسوار الشاهقة القديمة التي تنعطف نحو باب الفتوح.

إنه دائماً سور المدينة الحصين، وأنا أراه ينعرج هنالك في البعيد. لكنه، من هذه الجهة الجنوبية من فاس، لا يحصِّن أي شيء غير الصخور والوِهاد والحصى. السور يظل حول هذا الموت واقفا، كما الأحجار الخارجية لبيت احترق داخله. ومن هذه الأبراج المتراصِفة على مسافات منتظمة، تراه يقيس المدى الذي كان في الماضي مليئا بالسّطوح المتراصّة والصوامع، في الزمن الذي كانت فيه فاس أكثر شساعة، وعاصمة لإمبراطورية حقيقية. إنها اليوم أسوار عبارة عن قوقعة أفرغت من محتواها، فغدت متصدّعة ومتآكلة ومتداعِية وقاتمة بفعل وطأة القرون.

كان أحد الرعاة يوجِّه أمامنا قطيعا من الماعز (إذ يبدو أن من هذه الأسوار العتيقة تنبعث تأثيراتٌ غريبةٌ للموت، فما يحيط بها من ظلالٍ موحشٌ وبائسٌ مثلها). سرنا بجوار السور البالي الذي ينحدر أحياناً نحو الوِهاد، كاشفا لنا من فوق تسنُّناته المناطق المحروقة التي يحويها، ثم يصعد صعودا حتى يغطي علينا نصف السماء. إنها أبراج الموحدين[1] وقد تآكلت من فوق كما نصل سكين، وهي تمثل الجزء الأقدم من أسوار فاس بكاملها. يبدو أن شيخوختها المأساوية قد عرفت العديد من الكوارث. والكثير من هذه الأبراج تبدو كما لو أنها قُصفت بالمدفعية، فهي انخرَمت حتى الأسفل بشقٍّ واحد، وصارت فاغرة فاها في الأعلى، بحيث صارت آيلة للانهيار في أي لحظة. جوانب أخرى من الأبراج تبدو منبعِجة، فلم يبق من أسوارها الأربعة سوى اثنين يرتفع من هيكلها رأس متصدع كما كتلة جليد متشقِّقة. كما انمحت أيضاً خطوط كاملة من التسنُّنات تاركة قمة سور محدودبة.

إنه منظر مسكِّن للأعصاب... ففي اليمين تتراكب القبور القديمة والجديدة، بشواهدها غير المكتوبة، بحيث نخالها صخوراً طبيعية تنبثق من الأرض، بما أن الحياة في بلاد الإسلام هذه تعود بشكل مِطواعٍ وبسيطٍ لعدم المادة. لكن، هنا وهناك على إحدى القبب لا تزال تتهادى الزرقة اللطيفة، الزُّرقة الشاحبة للزليج القديم. يا له من لمعان وقور في النور المائل للمساء، المنبعث من تلك المنحدرات الصفراء التي تخترقها شبكة من المسالك. وحول ذلك غابة الزيتون المقدسة تتلقى في صمت هذا النور الهادئ. وفي الأفق الواضح يغفو لون

(1) الموحِّدون هم الأسرة التي حكمت المغرب والأندلس من 1147 إلى 1269م. وهم ينحدرون من حركة دينية ذات أصول بربرية. وقد عمّ نفوذهم شمال إفريقيا وغربها. وعرف العمران في عصرهم تطورا ملحوظا بحيث شيدوا جامع الخيرالدة باشبيلية، والكتبية بمراكش وحسان بالرباط.

أوراقها الفضي. وفي الجانب الآخر، تبدو الأسوار الموحدية بجلالتها الشاهقة. أراها تنعطف في البعيد لتُظهر من ثم وجهَها الداخلي، بقتامته المأساوية في الشمس، وبلون الوحل الجاف، وبثنايا من الظل الأسود.

جاوزنا باب الفتوح خلف القطيع الرائح لحظيرته، ومن جديد ولَجنا مدينة فاس. نعم، إنها تسمّى فاس، لكن هنا، كما في التَّلّة خارج الأسوار، لم يكن ثمة غير القبور، وقبب الأضرحة، ثم مقبرة أخرى، هي مقبرة اللاجئين الأندلسيين الأوائل، وهي بذلك مقبرة قديمة لها أكثر من سبعة قرون، غير أنها تبدو حديثة إذا ما نظرنا إلى البيوت والمساجد، والحي الناشط الذي كان هنا فيما قبل.

-6-

وصل من طنجة البارحة رجل فرنسي، صاحَب في الطريق السي[1] محمد المُقري أحد معارف السلطان ووزير في القصر، الذي كانت تتبعه سبع نساء متحجِّبات بشكل أثقل من العادة. ومحمد المقري هذا كان قد غادر فاس من شهرين في مهمة غاية في السرّية بحيث أثارت فضول الدبلوماسيين ومراسلي الصحف في طنجة. وفي أوروربا، قامت الصحف بافتراضات: هل سافرت هذه الشخصية إلى برلين؟ هل تحادث مع السيد ديلكاسي[2] Delcassé؟ أي مؤامرة جديدة تسعى لحبكها السّياسة المغربية؟

وإذا كانت مهمته غير حاسمة في مصير أوروبا وإفريقيا، فهي كانت مهمة شريفة لأنها تشهد على ثقة السلطان فيه. فبما أن أموال البنوك المقترضة من فرنسا قد جاءت لنفخ خزينة السلطان، فقد أمر هذا الأخير، الذي يحب فيه الرقة والحزم، بالتوجه إلى بلاد الشراكسة ليصرف فيها ما يمكنه من تشبيب حريمه. وقد كان المقري ماهرا في المفاوضات، وعرف كيف يكتشف في بلد الجمال هذا شخصية محنَّكة عرضت عليه زهورا شابة رائعة.

لهذا ساوم هذا الرجل العارف وقارَن، ليعود مرفوقا بست حسناوات تتبعهنّ حاميتهن. فقد جرت العادة، لمصاحبة الفتيات اللواتي يرحلن نحو المجهول ومراقبتهُن وتشجيعهن، أن تصحبَهن المرأة التي توسَّطت في الصفقة. سارت المجموعة أولا حتى إسطنبول حيث تم الانتقال إلى مرسيليا، لكن قبل ذلك، وحتى لا تثار الشكوك حول الموكب في السفن الأوروبية، من اللازم إضفاء الطابع الشرعي على الصفقة، وذلك لدى عدل مأذون بحيث يتم احترام كل الطقوس الدينية وتغدو المرأة الوسيط الزوجة الرفيعة. ومن ذلك الوقت يكون رب عائلة هو الذي يسافر بمعية حرمه وبناته ووصيفاتهن. هن كن مكوَّمات في عباءاتهن، لا يبدين من الشقِّ الأسود سوى عن عيونهن، وهو بوقاره ولحيته المبيضَّة يبدو زاهدا في ردائه الأبيض، ولا يتحدث إلا في النادر، ولا يتحرك إلا ليمنح بركته ويدعو الله.

(1) تبسيط لكلمة «السيد».

(2) ثيوفيل دوكلاسي (1852-1923)، وزير الخارجية الفرنسي آنذاك.

وفي مرسيليا، حيث لهؤلاء المبعوثين اتصالات، قام المقري بطلب مراحيض لحميمية الحريم. وأحياناً، تأتي إحداهن، مرسلَة من قبل مموِّن ما، تكون مسيحية أنهكتها المغامرات والمقاهي الغنائية الأوروبية، وفتنتها فكرة الخلوة الحرَّة بقرب رجل كريم ومختلف عن الأوروبيين، فتنضاف إلى المجموعة الغريبة. ومن طنجة إلى فاس لا يتوقف الجمعُ عن المسير حتى يصل الموكبُ في أقرب وقت ممكن، ويكونَ السيد منذ الوهلة الأولى راضياً.

في المدينة، عبرت الحسناوات الحواجز والأسوار الهائلة العديدة للقصر، ليس من غير إحساس بالرعب. وتهيأن لتلقي الأفضال الجزائية للشريف (السلطان) الذي أصبح سيدهنَّ. بيد أن راعية القطيع سوف تستقرّ لدى ذلك الذي تعتبره منذ إسطنبول زوجها. لقد أخذ مأخذ الجدّ هذا الالتزام الشرعي ولا يبتغي لذلك تطليقها؛ ففي دواخله العربي قام بحساب عميق. إنه يعلم أن الحبيسات الجديدات، اللواتي سيعشن السأم ولا يعرفن أي امرء في فاس، لن يلبثن أن ينادين على صديقتهن القديمة كل يوم. لذا، ومهما كان الأمر (والمؤامرات كما نعلم لا تنفك تحيط بالمقرَّبين من السلطان)، فالمقري يعول عليها كي تظل في علاقة طيبة بالحريم. لقد أصبح يتوفَّر على أفضل ترياق ضد سمِّ الدّسيسة والإقالة: فتنة الحسن والجمال، على الأقل طالما ظلت أولئك اللواتي كنَّ بناته بين إسطنبول وطنجة بالقرب من السلطان. والحال أن هذا الأخير شخصٌ مزاجيٌّ، وقد يسأم من رفيقاته أولئك، بحيث يمنحهُن أزواجا لبعض حاشيته.

***

22 أبريل/ نيسان. رحنا اليوم لزيارة السيد بُلبل، وهو رجل من أعيان التجار اليهود استضافنا للاحتفال بعيد الفصح مع أسرته الكبيرة في بيته بالملاح.

وللذهاب إلى الملاح خارج المدينة القديمة، فإن أقرب المسالك هو الطريق خارج الأسوار. علينا الخروج من المدينة عبر «باب الحديد»، والدخول للملاح عبر «باب سيدي نافع». وبين هذين البابين، تمتد البادية الربيعية التي تسيل فيها بصخبٍ مياه الجداول التي رأينا كيف تتجمع في الأسفل لتدخل فاس من جهة «باب الجديد». إنه أشبه بقطعة من منطقة «أنجو» Anjou الفرنسية في نهاية شهر مايو/ أيار، لكن بكل هذه الخضرة الناصعة لأشجار الصفصاف والسَّوحر والدَّردار، وهذه الأحراش التي تشبه أحراش فرنسا، يمتزج بها من جانبي الممرِّ الصبارُ ذو التّعاريج البارزة والداكنة التي تشعل فيها الأزهار شراراتٍ رائعةٍ صغيرةٍ، ونسيمُ رائحة أزهار البرتقال. تنساب بهجة الماء، ومن كل مكان يرتفع خريره السائل الرطب. إنها مياه لا تنضب مع الصيف، مياهٌ ذات لون أبيض نحسُّ ببرودتها توًّا، تنزل من حقل لآخر عبر درجات صغيرة غنّاء بحيث يعلوها الزبد الأبيض. وكما في صباحات غاباتنا الفرنسية، ثمة الشَّقشقةُ الدائمةُ للعصافير. كم نحن بعيدون عن فاس وعن مقابرها الشاسعة في فورة الربيع هذه. ولا أثر لكآبة المدينة ولا لأسوارها.

لكن بعد نصف ساعة من الفتنة والسحر، ها هو منعرجٌ يبدي لنا تلك الأسوار. ها هي ترتفع فوق ركام أخير أخضر، وهي نفسها تشرف عليها القلعة العتيقة التي تحمي الملاح، أو بالأحرى التي تهدِّده. وهكذا انتهت البادية بحيويتها، فلا أثر للماء المتدفِّق ولا للعشب. فقط منحدرات من الحجر والتراب تترامى، وأجراف شبه مهدمة بجوارها تتسكَّع أشكال بطيئة من العَجزة اليهود والمسلمين. إنه منظرٌ خرِبٌ يتضح مرآه الجنائزي، حين ندرك الطبيعة الحقيقية لتلك الرُّبى والأجراف. ليس ثمةَ غير عظامِ الحيوانات تتآكل هناك منذ سنين، وفوقها الجثثُ الحديثة تستكمل جفافَها وتحلُّلها تحت الشَمس، وخاصة سيقانُ عديدة للحمير والجياد، لا تزال مغطاةً بشعرها، كما تلك التي رأيناها على طرق البادية والتي كانت

تعلن لنا عن قرب مدينة فاس. شققنا طريقنا وسط الجثث والسور الرهيب الذي سيَّج به الأسياد المسلمون الملاح، غير أنها لا تحزن أحدا هنا. كل هذا العفن الجنائزي! إنها النفايات اليومية العادية لمدينة مغربية كبيرة، وهي فيّاضة لأن هذا البلد الأكثر تخلفا من فرنسا في عصر الكارولنجيين لا يتوفر على العربات والطرق المعبدة. لهذا، فالسبيل الوحيد لتنقل الناس والأشياء هو ظهور الدواب. وفي الأعالي، فيما وراء الأسوار التي تصنعها الهياكل العظمية للبغال والحيمر، أبصرتُ بدوابّ حيَّة. إنها تسير بخطى وئيدة في مجموعات، كما هو الحال دوماً عند قدم أسوار المدن العربي، رازحةً تحت قففٍ مليئةٍ، أو تحمل الأحجار المربوطة فوق ظهرها بالثلاث أو الأربع. وقرب الدواب الهادئة الشغالة، تبدو مجامع العظام طبيعية، كما تبدو طبيعيةً في فرنسا قشورُ الجزر والكرنب قرب حقل الخُضَر. بلغنا الباب الجنوب الغربي، «باب سيدي بونافع» الذي يقود إلى فاس، بنفقه المقوس المعتم، لأنه يتعرَّج بزاويةٍ مستقيمةٍ، بحيث لا نرى مدخله حين يظهر مخرجه. إنها مأثرةٌ رسميةٌ حقيقيةٌ بحيث يبدو من الداخل أشبه بكنيسة. وبه نور ضبابي كما في الكنائس أيضاً، بحيث يدخله النور من تحت عبر الأقواس غير المرتفعة كثيراً كما القبَّة الداخلية التي تتقاطع امتداداتُها. في هذه العتمة الخفيفة ينكشف لنا أشخاص ضبابيون ملتصقون بأسفل الحائط؛ إنهم الحالمون والمدخِّنون وشاربو الشاي. حلاقٌ يحلق شعر زبون يسلمُ له رأسَه. وآخر يجُزُّ شاة سوداء. جملٌ عالٍ يمرُّ مقدِّما عنقه ككائن مفارق وخيالي في هذا المبنى المغلق تقريباً الذي نخاله سفينة قوطية.

حينها ظهر لنا طرفٌ من حيٍّ مسلم، في أقصى فاس الجديد حيث تعيش مع عائلات «الجيش» قبائلُ نصف بدويةٍ. كل الناس منهمكون بشكل كبير في الزقاق في مشاغلهم في حركة دائبة. على الأرض تباع حزَم النعناع الأخضر مع البيض والحلزون. وحول هذه الأسواق القروية، يتسارع المئات من الأشخاص السُّمر، منحني الظَّهر بفعل النظر للشمسِ الحارقة؛ أرجلهم حافيةٌ، وعباءاتهم متسربلةٌ داكنةٌ ومرقٌّ. يا له من اختلاف بالغ مع بورجوازيي فاس البالي، ذوي اللون الوردي أحياناً، الذين يقيسون حركاتهم وإشاراتهم، والذين يمنحون لأنفسهم وقارا كبيراً بسبحاتهم في اليد، والذين بسلاهيمهم الجميلة المرمية على ظهورهم يمشون بخطى عضو روماني في مجلس الشيوخ. لكن هنا، كما في فاس البالي، تظل النساء دائماً عبارة عن أهرامات شاحبة متحرِّكة، ينفتح في قمتها شقٌّ عرضي لامع السواد. وكل هؤلاء

الناس ما أن يصادفونا حتى يغرقوا في صمتهم ويديرون وجوههم عنا.

***

لكن ها هو مدخل عالم آخر. لقد جاوزنا لتوِّنا باب الملاح بين مصراعيه الهائلين المزيَّنين بالبرونز، اللذين يدفعان ليُغلقا كل مساء، كي يكون هذا «الغيتو» كل ليلة محكم الإغلاق، ويكون يهود فاس بأكملهم محبوسين هناك وراء المزلاج الحديدي البدائي. نعم، إنه مدخل عالم آخر وحقبة أخرى. أيُّ مسافة تفصلنا فجأة عن المدينة المغربية الكئيبة، وعن شعبها الخامل وعن دورها و«رياضاتها» المتروكة في السرّ وراء أسوارها الشاحبة، ونسائها تحت أكفانهن الصوفية الثقيلة!

يا لها من حركة دائبة وفائضة في هذا الغيتو! الحياة تظهر فيه وتنشط بحرية، كما في المساء في مدينة أوروبية جنوبية. وأنا مندهش لأني لا أتمشى في ممرٍّ كئيب مطلي بالجير، منغمسا في الكآبة والسكون بين واجهات ميّتة. وهذه النوافذ المتزاحمة من دون مصاريع في الطبقات الثلاث أو الأربع من البيوت، تذكرني بالأحياء الآهلة بالسكان بمدينة نابولي أو اشبيلية. ومنها تطل العديد من الوجوه لتراقبنا ونحن نمرّ، فتُنادى الواحدة الأخرى. هذه الدور عبارة عن خلايا نحلٍ مليئةٍ وصاخبةٍ، بحيث نخمِّن ذلك في كل زاوية من زواياها. أسرٌ كثيرة تتقاسم بيوتها، وفي الغالب غرفها الضيقة. عشرة آلاف يهودي يعيشون في هذا الملاح، الذي يمكن أن نتجوَّل فيه بكامله في ربع ساعة.

ومع ذلك فالحياة هنا ليست شقيَّةً أو محبطةً، كما في الأحياء الغاصّة بالسكان في مدننا العمالية. ووجوه لنساء المطلات من تلك النوافذ شاحبة، غير أنها مفعمةٌ بالحياة والفضول، تحت وشاحاتها المتعددة الألوان كما رؤوس الببغاوات! وحين أرفع رأسي عالياً، تبدو لي السطوح آهلة بالوجوه الذابلة، تلك التي تطل وسط لمعان ذهب الحلي والحرير المخطَّط.

لكن ها نحن محاطون بحشد من الصبيان يتبعوننا، والصغار منهم يرسلون لنا القبلات. أما الكبار فيصرخون فينا ب«البونجور» (صباح الخير بالفرنسية). هؤلاء المرشَّحون للحضارة يحتفون بالأوروبيين الذين يتعلمون لغتهم في مدارس الرابطة الإسرائيلية. وكل هذا يبدو لنا ممتعا بعد عدة أسابيع من إكراهات فاس الغريبة والمنغلقة عن قصد مسبق.

أحسسنا أن بيننا وهؤلاء الناس يمر تيار الألفة وتقوم علاقة التعاطف الإنساني بسرعة، وأنه بإمكاننا «إقامة علاقات تشارُك». ومهما كانت حياتهم مخالفة لحياتنا، فلا شيء يقرُّ ذلك إلى الأبد خلاف فروقنا مع الحياة الإسلامية. إنهم مثل إخوتهم بطنجة، قابلون بطواعية لأن يتلقّوا امتيازات أوروبا وتأثيرها. فالأيادي ترفع لتحيتنا، وعيونهم تحدثنا ونحن نجيبهم، وأي متعة أيضاً أن نرى الوجوه النسوية أخيراً سافرةً وواثقةً من نفسها! هؤلاء النساء لسن فقط من غير نقاب، بل من سواعدهن وأعناقهن ومن بدنهن الدافئ الكامد يظهر شيء، بين اللون الذهب والأحمر للحلي. كانت تلك الوجوه بالغة التعبير، مليحة التقاسيم، تشبه الوجوه الإيطالية، غير أنها أكثر رقّةً ولم تلفحها الشمس، وذات عيون حوراء واسعة. لكن روعة ملابس العيد أمر ينتمي إلى الشرق، لا إلى إفريقيا وإنما لآسيا. إنها ألوان أولية أخاذة تظهر بجرأة في شمس هذا المغرب كما في شمس الهند، وفساتين خضراء مرسوم عليها نبات الخشخاش، وأوشحةٌ مزخرفةٌ. والصغار في عيد الفصح هذا يلبسون قفاطين من القطيفة وقمصانا من الحرير الذهبي، تبدو كما لو كانت قطعةً من الشمس سقطت في هذا الزقاق القديم القذر للعصور الوسطى.

وبمقدار ما كنا نتقدم في الحي، كان زحام اليهود يزداد كثافة. هناك بالأخص النساء والشبان والصبيان. كل هذه الأجسام الفاتحة البياض تتحرك من حولي. هل بإمكاني أن أجد لها نموذجاً عرقياً؟ وهذا النموذج، هل هو الذي ننسبه لبني إسرائيل؟ تفحصتهم بسرعة؛ وخلال دقائق معدودة بحثت عن نسبة الملامح التي تخصهم. كم هي ضعيفة تلك النِّسب! عددت ثلاثين وجها، وتفحصت في منحى الأنف فلم أعثر على المعقوف منه إلا خمس مرات. الشعر بكل التلاوين، من الأبيض الأمهق albinos الذي يبدو هنا استثنائيا، حتى الأسود الكحيل المتجعّد للنموذج العربي. ثمة الكثير من الشعر الأشقر، ومُقلٌ ذات زرقة شفافة. لكن هذه العيون سواء كانت سوداء أو زرقاء فإنها مخيفة، لأنها بليلة ويبدو لونها كأنه يذوب. لا شيء فيها من البريق السّامي الحقيقي. إنها عيون واسعة جدا، بحيث نخالها زهورا ذابلة في الظل. لكن عيون الشُّقر فيها شيء ما من الحدة في شحوبها المتورِّد. إنها عيون ابن مِقرَض، أطرافها حمراء بأهداب بيضاء ترفرف لنور النهار الذي يؤلمها. ويا لها من أبدان ذابلة، شفافة ومفتقرة للدم. ثمة لون وردي خافت يضمِّخ أحياناً الوجنتين. والصبيان بوجوههم الملساء

الهادئة. إنه فعلاً عرق حضري، فملامح هؤلاء الصبيان والصبايا وألوانهم رقيقة ذابلة كما ألوان الأطفال الذين يولدون قبل الوقت، ولذيذة وفيها شيء من البلاهة، كما الأطفال الذين يلهون في الحدائق العمومية بباريس. أما الشباب، بقفاطينهم الرمادية والزرقاء والخُبّازية، المتلفعون بمعطف أسود يرمون بطرف منه على أكتافهم اليسرى، فهم في وِضعتهم الشاردة يذكرونني بالطلبة الإيطاليين في القرن الخامس عشر. كما أنهم يجعلونني أستحضر جدارية من جداريات بوتتشيلي Botticelli. إنها مظاهر يهودية طبعاً، لكن إذا لم تكن ملامحهم كذلك عند التحليل، فثمة شيء من الوهن والانحلال والنقص في الأنفة، لكن دائماً ثمة ذلك التعبير الذكي الفطن والمتحضِّر. لكن الأكثر يهودية منهم هم أولئك العجزة الطاعنون في السن في هذا العالم اليهودي البربري، الذين يشبهون كثيراً أحباراً شائخين رأيتهم في القدس (ومع ذلك فالأنف له ملمح آخر)، في عباءاتهم الكهنوتية السوداء، وبنظراتهم الجانبية، يسيرون جنب الأسوار من غير أن يمتزجوا بالحشد الذي يتبعنا، ويبينون جهرا عن عدائهم لنا، كما المتعصبون المسلمون. لهم لحى طويلة بيضاء، ونظرات عميقة، ووجوه متأملة وبئيسة تخترقها آلاف التجاعيد كما بعض شخصيات الفنان دورَر، لكن لهم فظاظة وحِدَّة تذكرني بالطير الجارح الشائخ المتوحّد. همُ الأشخاص الوحيدون النشيطون الذين رأيتهم في هذه المدينة.

إنه بالجملة النموذج العرقي اليهودي، بدرجات مختلفة، لكن فقط الجانب الأخلاقي والاجتماعي للنموذج، ذلك الجانب الذي ليس تاريخيا حقا ولا يدخل في باب الأنثربولوجيا (علم الأعراق). وهو نتاج تاريخي وليس عنصرا صميميا، حصيلة القرون المتوالية عن فكرة معينة للدين، وعن نظام المعتقدات والأخلاق والمجتمع الذي تتحكَّم فيه. ولنضِف إلى ذلك كل الإلزامات والإكراهات التي مارسها المجتمع الإسلامي المحيط، وهي الإكراهات نفسها التي عرفوها لمدة طويلة في أوروبا المسيحية، كالإهانة العتيقة والعيش المنعزل في الحي اليهودي. إنها الحياة التي انحصرت في سلوك الخنوع والعبودية وفي الأعمال الحرفية الممقوتة، وأنشطة المكر والتفكير، بحيث انكمشت المجموعة بكاملها على نفسها ولم تُعِد إنتاج نفسها إلا من المادة نفسها، ومن الحلم والنشاط المحدود للفرد، ومن أهمية العائلة. وفي المرتبة الثالثة ثمة الطابع الحضري، ونمطه الخاص والمنحرف الذي ينتجه الغيتو، والمساوئ والمفاسد الخاصة بكل غيتو، كما بأحواز المدن الكثيرة والبئيسة المحيطة بمدننا الصناعية الأوروبية.

إن مجموعة كهذه كافية لتفسر لي أن يهود فاس هؤلاء، بهذه الخواص الإثنوغرافية الشبيهة بجيرانهم المسلمين، هم يهود بشكل عميق. إنهم يهود بالرّوح والثقافة إن لم يكونوا يهودا بالدم. وهم يهود أساساً وجوهراً، وربما كانت حالتهم هي حالة كل المجموعات اليهودية في العالم (ففي الهند نحن نصادف بعضهم ببشرة نُحاسية لا تمنع هيئتهم من أن تكون يهودية). لنفكر في أن أربع أو خمس سنوات من الرهبنة أو الثكنة العسكرية يمكنها أن تزرع في الإنسان مظهر وروح الراهب أو الجندي؛ كما أن أمريكا وأستراليا لم تتجاوز قرنا من الزمن كي تبدأ في رسم معالم نموذجها العرقي تحت تأثير بعض الشروط الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية، وكذا بفعل جاذبية مُثُلٍ بلوروها جميعا وأرادوها لأنفسهم. من يستطيع إذن أن يقيس الآثار الممكنة على مجموعة بشرية منغلقة من زمن بعيد، لديانة تتدخل حتى في تفاصيل المجتمع والحياة الخاصة لحلها بدقة، ونظام من الإكراهات والإلزامات عتيق ومزدوج: النظام الذي تفرضه على الحي اليهودي شريعته، والآتي لها من الداخل، والنظام المنحرف وذو الأثر السيء على النفس الذي يأتيها من الخارج مفروضا؛ ثم الآثار التي تخضع لها الأجسام، والآثار المتكرِّرة للمحيط المادي الاستثنائي المتمثل في الغيتو، منذ خمسين جيلاً؟ هنا تكمن الأسباب العميقة التي تترجمها خارجياً هذه الهيئات وهذا السلوك اليهودي، لا في الضرورات البدائية للعرق. إنها أسباب عديدة وبالغة التشابك، ومختلفة الفعل بحيث لا تمس مخيلة الجمهور. فلتقرير وجود نُوى يهودية في مجتمعات مختلفة، تمَّ لزمن طويل وبشكل سريع، تكرار التفسير البسيط والمباشر والغريب والشعبي القائل بالقبيلة اليهودية، أو ببطن من بطونها المتجمع في أمكنة بعيدة. لهذا، كيف يمكن أن نعتقد في أن سلالة إبراهيم قد تزايد عددها بشكل كاف بحيث تتكون أحياء يهودية في عمق بلاد البربر هذه التي لم يستطع فتحها كليةً لا الرومان ولا العرب؟ إنني أتصور بالأحرى أن التبشير بالدين الموسوي بدأ على الشواطئ المتوسطية، في العصر الذي بدأ فيه انتشار المسيحية، إما بواسطة اليهود المنحدرين من سوريا، أو بواسطة المعتنقين الجدد لليهودية بالإسكندرية والشرق الأوسط ومقدونيا، ثم من الساحل في داخل كل بلد، بالدعاية لدى أعراق الأهالي، وكل ما نتج عن ذلك من نتائج اجتماعية، حتى اليوم الذي توقف فيه اعتناق اليهودية مع المنافسة الكاسحة للمسيحية ثم فيما بعد للإسلام.

أوقفنا جيادنا لأننا بلغنا دار السيد بلبُل، وها وهو ينتظرنا عند عتبتها سمينا ومتأنّقا،

مرتدياً سروالا وسترة ذات لون كستنائي رائع، وذات نياشين وصفوف من الأزرار، وقبّعة على الرأس ذات لون خبازي ليس بأقل روعة، وخُفّا مذهّبا في الأرجل. إنه هندام غريب بل جسور، قد يجلب عليه القرع بالعصا إذا ما هو تجول بهذا المظهر في الأحياء الإسلامية، باعتبار أن اللون الحزين الأسود هو وحده المسموح به لليهود بالمغرب.

بدا السيد بلبل بشوشا ومشعّا من الرضى عن نفسه. وحوله هرعت عائلته لاستقبالنا. كان هناك بالأخص النساء: ركام وخليط من الذهب والحلي يخرج من عتمة ممرٍّ. وكلهن يرغبن في تحيتنا على الطريقة الأوروبية ويسعين إلى إظهار معرفتهن بعوائدنا. امتدت يدٌ بعد الأخرى، لكن ما أن نحس بملمسها الر طب البارد حتى تنسحب بحركة سريعة كما لو كانت حيواناً صغيراً منزلقا. كانت الجدّات أيضاً في أبهى حُللهن، غير أنهن كن ذوات وقار وصرامة، والخيوط الذهبية لحزامهن أصبح مع السنين ذا لون كامد. ومن الواضح أن لباس العيد هذا الذي يتطلّب من كل امرأة ثروة هائلة، لا تملك منه الواحدةُ منهن إلا واحداً، بحيث يمرُّ بالتوارث من جيل لآخر. كانت تلك الحوريات اليهوديات العُجُز محمَّلات بالدّيباج والمعادن والمجوهرات، وكن بشوشات. وعلى أفواههن الخالية من الأسنان شفاهُهن الدقيقة التي تدخل في الفم، والتي تطلق باتجاهنا بابتسامات طيبة، وعيونهن تفصح لنا بأشياء رقيقة عذبة.

كم هي آهلةٌ بالسكان دار السيد بهلول! في البهو كما في الطابق الأول، كانت نساء أخريات ينتظرن مرورنا، لكنهن كن خجولات، يرغبن في النظر إلينا خفية، هُنَّ الأشبه بالحُزَم المذهَّبة، ذوات الوجوه الرقيقة الفُضولية خلف أعمدة الدّربوز. قام السيد بهلول، الذي أطريته على أسرته الكبيرة، بتعداد أفرادها: هناك أبوه وأمه، والعمّات والخالات العجائز، وسبعة أبناء بينهم ابن ذو السادسة عشر عاماً متزوجٌ غير أنه مع ذلك لم يترك دار أبيه (فالعروس هنا كما في الهند واليابان تعيش في دار أصهارها، تحت إمرة حماتها). ثم هناك الخادمات ومنهن عجائز لا يشتغلن بل يحتفظ بهن ويُداوَين بشكل أبوي، ومنهن الصبايا الجميلات (وأنا هنا لا أريد أن أشكك في فضائل السيد بهلول، لكن قيل لي بأن العوائد الإسلامية قد تفشَّت في الملاح وأن تعدّد الزوجات ليس محرما فيه، فأحبار المغرب يتذكرون أن إبراهيم لم يكن مكتفيا بمعاشرة سارة وحدها).

أحسست بالبرد والرطوبة في هذه الدار؛ يبدو أن هواءها لا يتبدل وتخترقه روائح عديدة لا نكهة لها ومزعجةٌ. قد يقول قائل بسهولة، إنها روائح الغيتو والوسَخ اليهودي، مستمتعا بمقت هؤلاء الناس الطيبين الذين يستضيفون الرّوميّين استضافةً حارةً. لكنني فجأة استعدت ذكرى هذه الروائح التي استنشقتها سابقا وكانت أكثر عطانة في مدينتي بريست Brest وآنسّي Annecy بفرنسا، في الممر والسّلم العطن بالدور القديمة، التي لم تكن تملك أي طابع فرنسي. ثم إن علينا الاعتراف بأننا إذا لم نكن نعرف ما تخفيه تلك الأزياء الفاخرة، فإن الوجوه الشاحبة التي تظهر وسط الديباج، والأيدي الناعمة حولنا كانت بادية النظافة. فمن الأكيد أنهن قد أخذن نظافتهم على الأقل بمناسبة عيد الفصح، وذلك الاهتمام بالنظافة يستحق التقدير، إذا نحن علمنا أن الأسياد المسلمين قد عملوا ما في وسعهم كي يلصقوا بيهودهم عادة الوسخ والقذارة، بمنعهم من ارتياد الحمامات، مدنّسين مدخل الملاح بمزبلةٍ ومغلّفيه بأسوار من الدواب الميتةِ.

وفي غرفة الضيوف في الطابق الثاني، ها نحن الآن جالسون بشكل احتفالي على الكراسي والكنبات من خشب رفيع ينتمي إلى الأمبراطورية الثانية، وهو الأثاث الذي رأيت مثيله لدى أرمنيين في آسيا الوسطى ولدى المارونيين بسوريا ولدى الأقباط بمصر، وكلهم شرقيون يتعرضون لتأثير البذخ الغربي ويقولون لا للأثاث التقليدي. ثمة منضدات صغيرة، والعديد من المرايا في إطارات مذهَّبة أمريكية، وصوانات من الخشب الأصفر، وكل ذلك جيء به من الساحل على ظهر الجمال. ثم هناك العلامات الدينية، وصور حجرية ملونة ألمانية حيث يلمع داود وسليمان بالتيجان، وكتابات عبرانية بحروف مربعة (وتلك الموجودة قرب الباب موضوعة تحت الزجاج وهي تكرر الشهادة الأزلية «شمع إسرائيل»[1]. لكن ما أدهشنا في هذا الأثاث المتنافر هو أننا رأينا في قعر الغرفة سريراً بروطانياً حقيقياً، وهو عبارة عن سرير مغلق ذي مزاليج ومزيَّن بالمنحوتات والزّخارف. وكان إطاره المركزي مفتوحا؛ وفجأةً، في العتمة الداخلية أبصرنا بامرأة مستلقية لم أنتبه لها في البداية. إنها السيدة بلبل التي جاء بنا زوجها للسلام عليها وتقديمنا لها. كانت هي أيضاً تتحزَّم بزنار من الديباج الباهت، لكن

(1) معناها «اسمع يا إسرائيل»، وهي آية مقدسة من التوراة تعلّق في مدخل البيوت اليهودية. وتعتبر المقابل للفاتحة في الإسلام..

أيُّ تعبٍ كان في تلك البسمة الذابلة والعذبة! (وقد فسَّر لنا همسا صديق جاء إلى هنا البارحة لتنظيم هذه الزيارة: السيدة بلبل في حالة نفاس، فقد وضعت البارحة بنتا، وهو حدث محزن ومُشين. لهذا فإن الأم التعيسة قضت اليوم السابق كله متمددةً على البساط، منكرةً، تبكي سرير الشرف، والغطاء المذهب المنسوج، والتهاني التي كانت ستتلقّاها لو كانت وضعت ولدا. لكن البنت توفيت تلك الليلة لحسن حظها وأصبحت السيدة بلبل مريضةً يُعطف عليها، ومن سريرها تشارك الأسرة بكآبة مسرّات العيد).

جلسنا حول مائدة مغطّاة بالحلوى والحلويات. قُدمت لنا أشياءُ معطّرةٌ، نخالها طُبخت في الصابون. وركَّزنا مخيلتنا على الرموز التي تشكل قيمة هذا الطبيخ المقرِف، لتقوية قلوبنا، بلا جدوى. إنها مأكولات تذكرنا بالحدث الجليل الذي نحتفل به اليوم، والأشياء القديمة الخارقة التي لم يفتأ بنو إسرائيل يحلمون بها، باعتبار أنهم الشعب الوحيد الذي لا يزال حياً والذي كان قبل وجود أثينا وروما على اتصال بالفراعنة عبَدَة إيزيس وحاثور. فهذه الكبب التي عجن فيها التمر والبندق واللوز، يبدو أنها تعني اللحمة التي كان الأجداد المضطهدون، في الأزمنة الأولى لمعاداة السامية يهدونها لتلك المعابد التي زار الولباة البرومانيون أطلالها قبلنا. ولسوء الحظ أننا وصلنا في نهاية العيد. فقد قيل لنا إنهم كانوا من لحظة يقومون بالأناشيد ويشخِّصون المشاهد الساخرة والمجيدة بالمحاكاة الصامتة، التي تستعيد جروح مصر، وفرعون وهو يلاحق بني إسرائيل ومعها هزيمته النكراء.

لكن في غرفة الغيتو هذه، القبيحة بحيث تعجز عن نسخ الأشياء الحديثة لأوروبا، كانت تلك الوجوه وتلك الوضعيات كافية لي. فهي أفضل من الأناشيد والحركات المحاكية، تحدثني عن حضارة خصوصية، وعن شعب وقور في شيخوخته. كان الرجال أيضاً بشكل أليف معنا حول المائدة، لكن النساء حين نراهن عن قرب يبدين غريباتٍ ونائياتٍ، حارساتٍ للنموذج العرقي والأفكار التي يجسِّدنها. كنا مصطفّات جنب الحائط، مثقلات بالتطريزات والأثواب الفاخرة، وكن متصلبات مثل التماثيل، عبارة عن أشياء جامدة لا تصلح إلا للزينة ولمنح الغرفة طابعا فاخرا، ولحمل الذهب والقطيفة لتمجيد الرجال والشعب اليهودي. إنه البذخ المفرط للحُلل، والفساتين الواسعة الثقيلة التي يغرق فيها القِوام حتى الرقبة، بحيث لم أرَ أبداً زينةً أكثر ثقلاً ودقةً إلا لدى نساء بروطانيا ولدى النساء النرويجيات في حلَّة العرس.

إنها العُدَّة نفسها من الفساتين والقفاطين المتراكبة، لكن الحلي هنا حليّ حقيقية، بألوان زجاجية زاهية متفرقة، من أخضر مزرق وقرمزي، وزبرجد ورؤوس من الزمرد المزينة بالفضة. وهي فضةٌ عتيقة مصوغة بطرقات دقيقة، ومصهورة بطريقة صهر الحديد. ومن هذا البذخ الذي لا حياة فيه، حيث تختفي خطوط الجسد، يظهر الذّراعان عاريين، باردين وأكثر شحوباً بفعل التباين بين هذه الروائع. والوجوه، تلك الوجوه المشكَّلة بطريقة احتفالية، بحيث يحسِّن ذلك التبايُن نفسه من تعبيراتها المتأنِّقة. كن هناك صامتات، يتركن الرّجال يتحدثون، كما لو أنهن لا ينصتن لأي شيء، بحيث بدين بحُللهن الدينية كما لو كنَّ معروضات في معرض، أو كما لو أنهن وصيفات في طقس مجون نسوي في إحدى المعابد القديمة بآسيا الوسطى أو سوريا. إحداهن، شابة مثقلة الوجه بالمساحيق، كانت صرامتها تزداد بثقل حُلَّتها، بحيث تبدو شبيهة بإستير Esther وقد تزيَّنت للقاء أسّوريوس(1) Assuréus. أظن أن وجودنا كان يحرجها. فقد ظلت هناك جامدة في صرامة حيوان، بلهاء ورجلاها منفرجتان تحت ديباجها الثقيل. أحسَّ رب العائلة أنني أنظر إليها، ومعتقدا أنني مندهش فقط لثيابها وجواهرها الباذخة، اقترب منها وانتزع منها نَوطا متدلِّيا كبيراً بدأ يقيس ثقله في يديه بفخرٍ وتؤدَةٍ وقدَّمه لي. انصاعت الفتاة لذلك من غير حركة حيَّة أو لطيفة، ومن غير أن ترمشَ عيناها. ثم دعاني السيد بلبل بحركة من يده لأقوم بذلك بدوري، فانحنيت على فستانها، ولمست أحد ثنياته المذهَّبة، على طريقة صائغ محنَّك بالملاح، وكما العارف التاجر، عيَّرت روعته وثمنه. ابتسم السيد بلبل علامة على الرضى، غير أن المخلوقة الحسناء ظلت مثل شيء لا يتحرك.

كانت النساء الأخريات أقل نفوراً، فقد جاهدن في الابتسام حين قدَّمهن لي السيد؛ ذلك أنه كان يقدم لنا الأفراد ويشرح لنا كل شيء يتعلق بالعائلة: الجدات والعمات والخالات (اللواتي يرتدين الحُلل الأشدَّ بهاء)، والأخ الصغير، والبنات، والكنّات والأحفاد. وبينهم كان ثمة أمٌّ لم تتجاوز عامها الثالث أو الرابع عشر، تحمل رضيعاً غريباً يشبه يرَقانة مصفرَّة، ملفوفاً هو أيضاً في القطيفة. وهناك أيضاً أبان صغيران، أشبه ما يكونان بتلاميذ الثانوي لدينا. لهما محيّا يشع بالذكاء غير أنه متعب، يتبختران في قفطانين طويلين من الحرير الأصفر،

(1) يحيل المؤلف هنا إلى التوظيف الذي قام به راسين في مسرحية «إستير» لهذه الشخصية التوراتية في علاقتها بملك الفرس أزيروس.

فضفاضين كلباس النوم ومطرّزين بشكل فاخر بالزهور. أما الفتاة الصغيرة التي كان عليها أن تلعب بدماها (فهي لم تتجاوز العاشرة)، فكانت مخضَّبة بالحناء، وهو ما يعني أنها فتاة مخطوبة ومقبلة على الزواج. وجهها لطيف يشبه وجه الفأرة، تحت اللون الفاقع للوشاح الحريري الأخضر الفاتح الذي يغطي رأسها، ينم عن الخجل والدهاء. وحين يتم الحديث لها عن عرسها المقبل تحني الرأس وعيناها تشعان من الجانب، ويحمر وجهها تحت وشاحها. هذه الذبابة الرقيقة تعرف عن أمور الكبار ما لا تعرفه البنات الصغيرات من سنها في فرنسا؛ ففي الظل الدافئ لغيتوهات الشرق وما تبيحه من تجاورٍ وتماسٍّ، تنمو النَّبتة الإنسانية المفتقرة للشمس بسرعة تتجاوز نموها في الأوساط المسلمة. وعلى المرء إذا أراد أن يسمع بزواج مبكِّر كهذا أن يسير حتى الهند. والهيئات هنا لها شيء من الطابع الهندي الرّخو؛ الخمول نفسِه للملامح، والمقلاتِ العكِرة والدامعة نفسها، والبشرةِ الناعمةِ التي لا لون لها كما لوكانت خالية من العضلات، وتكاد تذوب.

ثم جاء العديد من الأشخاص الواحد تلو الآخر، متشوّقين لملاقاة الأجانب. دخلوا منزلقين بمشية سارق، محاذين الحائط، من غير أن ينسوا وهم يتجاوزون الباب أن يطبعوا قبلة على المرآة التي تغطي الـ«شمع إسرائيل». ذلك هو الحذر الذي يطبع خطاهم، بحيث أنا متيقن أنني إذا ما استدرت فسأكتشف دائماً شخصا جديداً خلفي وصلَ لتوِّه من غير أن أنتبه لذلك. مثلاً هذا الأشقر ذو الشعر المتناثر الذي ترفرف أهدابه كما لو كان النور يؤلمها، وهذا الشاب ذو اللحية الصهباء التي تشبه لحية المسيح والذي يحني جبهته المرمرية وينصاع للحلم. هو ذو جمال عميق كما يظهر ذلك أحياناً لدى اليهود. إنه جمال مثالي، كما لو صاغته الروح ونحتته دافئا، بسيطا بحيث ذكَّرنا أن اليهود كانوا عرقا روحانيا أكثر من الأعراق الأخرى، وأنهم كانوا أول من اهتم بمشكلات الضمير، وابتكر للناس فيها وراء الجور وفساد الأخلاق وضلالها، مملكة الرب والعدل.

كان آخر من دخل الغرفة الحَبر الأعظم، تسبقه إشاراته المتمثلة في «سيهاره» الفضفاض واللون القرمزي لغطاء رأسه الهائل الذي يشد على صدغيه. وهذا الشخص لم يتوار للدخول كما فعل الآخرون، فقد تقدم مباشرة للسلام علينا. كان في الخمسين من العمر، بلحيته التي تشبه لحية الشيطان وبؤبؤ عينه الأسود الحاد النظرة، ومشيته المتَّزنة الحازمة. إنه سيد الملاّح،

ويحكم في عشرة آلاف يهودي. عليهم فقط أن يدفعوا الجزية للسلطان وأن يطبقوا تعاليم الحاكمين المسلمين، وألا يبرحوا ملاحهم كي لا يهتم المخزن بهم. فهو مثله في ذلك مثل الغزاة الرومان في الماضي، يكره التدخل في الخلافات والشؤون اليهودية. وهو يفوِّض للحبر الأعظم سلطته، إذ هو رسميا شيخ اليهود، ويساعده في مهامه مجلس من ثلاثة أحبار وأربعة تجار. يفرض سيادته ويحبس ويحكم بالغرامات، وسلطاته تخدم أساساً الشرائع الموسوية. نحن نفهم أن يكون ذلك الحاكم المطلق حريصا على امتيازاته، وفي صالح الجالية اليهودية، حيث يتم الحفاظ على الروح اليهودية ويتم تركيزها، في طابعها الوطني المعادي للأجانب وللتجديد، وللأفكار الليبرالية التي ينادي بها يهود أوروبا والجزائر. والرابطة اليهودية لها هنا مدرسة. وتدرِّس فيها معلمتان جزائريتان حاصلتان على شهادة من جامعات فرنسا جاءتا للانحباس هنا في ملاح فاس كمبعوثتين للحضارة. وهما لا تلاقيان من لدُن الأحبار سوى العداء والمقت والممانعة. إنها التضحية الأكثر قسوة والأقل اعترافا. فهما امرأتان ضائعتان في نظر أهلهما، إذ لا تحصلان على عطلة (إذ السفر من فاس إلى طنجة لوحده أغلى وأطول من السفر من فرنسا إلى أمريكا). هما اللتان تربَّيتا في مدرسة عليا بباريس، ها هما تتقاسمان الغيتو العفِن، الذي تستشري فيه الأمراض، والفقر العام، محبوستين هناك، فقيرتين من بين الفقراء، تدرِّسان في حجرة واحدة في الطابق الثاني من دارٍ تفوح منعها العَطانة، كل غرفة منها تقطنها أسرة بكاملها وسط الهرَج والمرَج. ومع ذلك فهما مسرورتان، قانعتان مكتفيتان، ودائمتا النظافة كما قيل لي، بهندام جسور جميل، كما أبصرت بهما في المرة الأولى التي زرت فيه الحي اليهودي. وهما تدرِّسان الفرنسية والإسبانية، اللغتين اللتين يستطيع بهما هؤلاء اليهود التواصل مع أوروبا، وتعلمان تلامذتهما خاصة النظافة والوقاية، والأفكار ذات المصدر الأوروبي، وإرادة النهضة والتحرُّر. فلنشكرهما بالسلام الفرنسي الذي فاجأَنا به تلامذتُهما من لحظة في هذا الحي الهامشي لفاس المعادي لنا والصامت، وبالاستقبال الحار الذي خصتنا به شبيبة الملاح!

أنهينا عشيتنا لدى الحبر الأعظم، الذي كان يمارس السياسة المحلية وهو يستقبلنا بكرم. هو أيضاً قدم لنا أكلة خفيفة كثيرة العطور، وأسرة تكاد تكون عبارة عن قبيلة، وجماعة عديدة من الحفَدة.

وبينما كنا نشرب خمر عيد الفصح، غمرتنا أناشيد غريبة صاخبة ذات نبرات كهنوتية، كانت تبدو وكأنها تنبثق من الحائط. رفع الرجل ذو القبعة الحمراء السّتارة، فظهرت فتحة في الباب لا تفضي إلى الشارع وإنما إلى قبَّة بيضاء. إنها معبد يهودي ليست دار الحبر سوى ملحقة بها. فهل تواعد كل عجزة الملاح على اللقاء تحت هذه القبة التي بُيِّضت بالجير؟ أبصرت من فوق بجماجم حادة، وعباءات سوداء، ولحيٍّ بيضاء، ووجوه ضامرةٍ بئيسةٍ. لكني لا أدري أي هيجان يخترق كل هذا الحشد المرتعش والمترنِّح في رقصة مقدسة، بإيقاع الظهر الذي ينحني ويستقيم في ارتجاج سريع. ثمة شيء ينضاف إلى انطباع الهوس هذا هو أن كل واحد منهم يبدو منعزلا، منغلقا في حلمه الخاص. لم أحس أنني أمام طقس من الطقوس الجماعية وإنما أمام مراسيم احتفالية منظَّمة. أغلبهم يقفون إزاء مظلة اليهود وبعضهم يدير لها الظهر. وها هم بعضهم ينطرحون على المقعد برخاوة، مقصوفي الظهر متابعين حلما كئيبا. وعلى مصطبَّة يقف عجوزٌ منهم مشرفا عليهم كلهم، من الشحوب والضمور بمكان، وقد فتَّته قرن كامل من البؤس. ظل هناك ورأسه غائر بين كتفيه، شاردا من الحلم والوَهن، كأنه نسر شائخ مريض على مَربضه. كان مصير سلالته بكامله محفورا على جبين هذا الوجه الرائع.

هؤلاء اليهود القدماء! هنا توجد النواة الحارقة حيث تحتَدُّ عصبيتهم. فبين حيطان هذا المعبد يلزم المحافظة على الجو الأكثر إثارة وتهيُّجا. وقبل أن يدعوهم ربهم إلى جواره، بعد أن يتجردوا من كل الهموم الدنيوية، يأتون ليخضعوا لتأثيرها الخاص، ليهيِّجوا في أنفسهم الندم وأمل صهيون، وكل الحنين الوراثي. وهذا النودان والتأرجح الرتيب (الذي يمثل حسب ما قيل لي ترنح الجمال التي كانت تحمل من مصر شعب الله)، وهذا الهرج المتواتر المذهل، الحريُّ بدراويش صوفيين، ينتهي إلى الرمي بهم في الفرضية الدينية. هل لأن الفكرة المتسلطة للأرض الموعودة تتملَّكهم؟ هؤلاء الضامرون العجزة الحادّو الطبع أكثر يهودية مرّتين من الآخرين. إن نموذجهم العرقي له نبرة أخرى هوجاء حاسمة. نعم، أعتقد أن الفكرة الجماعية العتيقة التي تتملَّك الصَّبي من المهد، وتتغلغل في الرجل طيلة نموه، لم تكف عن التأثير في الخارج، واستكمال صورتها حتى بعد السبعين من العمر. حينها فقط يكون قد حقَّق مصيره الذي لا يتمثل سوى في تجسيد نموذجه العرقي.

لكنَّ كل ما يشدُّ انتباهي هنا كنت قد وقفت عليه في الأحياء اليهودية بفلسطين. فمنذ زمن

طويل، وفي إحدى مساءات شتنبر بمعبد من المعابد اليهودية بالقدس، رأيت الوضعيات نفسها، ونفس هزهزة الظهر، والحلم نفسه في العيون، وشرارة الغضب نفسها ضد الدخيل. كانوا هم العجزة أنفسهم، والرجال أنفسهم لأنها كانت الأفكار نفسها. إنها فكرة شبيهة بتلك التي ردَّدها لي تجار مسلمون في دمشق وفي أسواق فاس. ها هم الناس الحقيقيون للتاريخ، القوى الكبرى الدائمة التي تحدِّد أشكال الإنسان، والتي بها تعود هذه الأخيرة من خلال الديمومة والفضاء، متشابهةً كما بنفسج الغرب ببنفسج الشرق، وكما بنفسج اليوم ببنفسج العصور الماضية. إنها نفسها حقاً، بل إنها كذلك بحيث إن القوى المطواعة التي تُنَمّي المادة البشرية من الداخل أكثر إلحاحا، هي ليست مختلطة ومتناقضة وفوضوية، كما في غربنا الحديث، وإنما كل واحدة منها بسيطة وخالصة من كل تناقض، تسود لوحدها كما في أوروبا خلال العصور الوسطى، وكما الإسلام واليهودية في الشرق، البارحة واليوم.

23 أبريل/ نيسان. عيد الفصح المسيحي. لا ناقوس هنا لعيد الفصح يدق أجراس البعث. واليوم ليس بيوم الأحد. أمام نافذتي كان بناءون يسوّون الجير الطريّ لسطح دارٍ انتهوا من بنائها. وبدقة، يرفعون جماعةً مدقاتهم ويتركونها تنزل، في الحين الذي كانت فيه أفواههم تطلق اللازمة الخافتة والناعسة التي تميز العمل القديم الإيقاعي.

ليس ثمة من ناقوس لعيد الفصح، ولا شيء يتحدث هنا عن العيد. وفاس تمتد أمامي، شاحبة وبلا أصوات كما الأيام السابقة. كم هي بعيدة أوروبا! والمسيحية ليس لها أثر هنا في هذه المدينة، سوى ما كان يكنُّه في نفوسهم الأسرى الذين اعتقلهم القراصنة، عبيد أوروبا الذين بنوا تحت ضربات الكرباج من ثلاثة قرون الحصنين اللذين أراهما في شمال وجنوب المدينة، واللذين يسميان لحدّ الآن قلاع النصارى. لقد كان للهند والصين ديانتُهما المسيحية. فهل مورست الصلاة العيسوية أبداً في مدينة فاس؟

ليس ثمة من ناقوس لعيد الفصح. ومع ذلك فالأمر يتعلق بالانبعاث السَّنوي المجيد. هناك مئات الفواكه الذَّهبية تتدلى تحت نافذتي بين أوراق لامعة. اللون الذهبي الباهت لحبات الليمون، أو الأكثر حمرة لحبات البرتقال. والزهور كالنجوم بين هذه الأوراق قرب الفواكه، إنها ميزة هذه النباتات الرائعة. وفي هذه اللحظة التي يتم فيها تمجيد الحبّ والحياة، تصعد رائحتها كروحٍ في حالة وجد. وكانت الشحارير تتعارك وتشقشق بلا انقطاع في الخضرة المبرنقة اللامعة، ووسط الليمون والزهور ذات اللمعان الخارق. عصافير أخرى كانت منهمِكة ومن مناقيرها تتدلى الدّيدان الصغيرة وأوراق العشب. أحدها ينطلق من أحد الأفنان نحو الكوّات الزجاجية التي تنير غرفتي من الأعلى. ومن الداخل أراه ينقز على عشه. ثمة ثمانية كوات أخرى مشابهة فوق السَّقف مباشرة. وكل واحدة منها تحتوي على عش، وأنا أميز حركات غامضة لفراخ العصافير التي تولد، وأعناق خالية من الريش ترتفع، ومناقير ممدودة فاغرة فاها من الجوع.

البناؤون أيضاً يغنّون ويعملون في الهواء الرطب الخفيف لشهر أبريل/ نيسان تحت سماء

رائعة، هناك حيث يتابع الأطلس المتوسط خطَّ الأفق الرقيق. الهواء رطبٌ وخفيف كما الطيور. لكن يا له من تعب متأصل، ويا له من فتور في حركات هؤلاء الرجال، ويا للجملة الحزينة التي يرددونها! إنني أحس وأنا أنظر إليهم وأسمعهم أنَّ دفقَ الحياة الذي يصعد الآن في الطبيعة لم يعد يمرُّ في أناس فاس.

منذ أسبوعين، حين فتحت نافذتي لأول مرة، كانوا هناك. وهم هناك كل يوم من الصباح إلى المساء. وإذا ما استفقتُ في الفجر، أصادف أصواتهم الاثني عشر المتناغمة المتهادية، بإيقاع وحركةٍ لا يتغيران وبرتابةٍ ملحاحةٍ تكاد تُنوِّمني. وفي النهار أكاد لا أحس بهم، لكن ما أنْ أرفع عيني عن كتابي أو عن صفحتي، حتى أستعيد وجودهم من جديد في وعيي، كما نستعيد دقات ساعة حائطية سهونا للحظة عن إدراكها. والآن أصبحت هذه الأنشودة تشكّل جزءا لا يتجزأ من الأشياء القارَّة بمحيطي. إنها هي أيضاً هناك أمام نافذتي كأشجار وحبات البرتقال، وكشحوب مدينة فاس، والقبور الكالحة المحروقة في البعيد. إنها أنشودةٌ سكونيةٌ ومستسلمةٌ كتنهيدة تعبٍ بعد الصّمت، كأنها هنا من الأزل بمثابة التعليق الإنساني على ذلك المنظر العتيق.

للمرة العشرين أتوقَّف للنظر في هؤلاء الرجال الذين يشتغلون ويغنون. عملهم بالأحرى رقصة ذات طابع طقوسي، بطيئة وتتكرَّر هي نفسها بلا كللٍ، يقودها ترتيل يكاد يكون ذا طابع طقوسي. إنهم أولا ذوو لباس شبيه بلباس القُسُس، وجلابيبهم الريفية أشبه بالبَطْرشيل[1] وبرانِسهم الطويلة صالحة للمهام الجدية كالصلاة، ثم الحلم في صمت عند أسفل الأسوار الهائلة. نحن لا نتصوَّر هؤلاء البنائين يهدرون الجبس، أو يحملون حجرا بضربة كتف، أو يجدّون في عملهم بحركات العمل السريعة والقوية. إنهم واقفون، مجتمعون كلهم الاثنا عشر رجلاً في حلقة ضيقة تتهادى في حركتها، يرفعون جماعةً مِدقَّتهم التي لا تسقط إلا بثقلها ذاته. ودائماً يأتون الحركة نفسَها، خلال ساعات وساعات، بضربات متباعدة، من غير أن ينظروا لما يقومون به، كأنهم لا يرغبون في ذلك أو لا يعرفون، غافين كلهم في الحلم نفسه، هاشّين برؤوسهم. أفواهُهم فاغرة، وكل واحد منهم منغمسٌ في رتابة وإيقاع الأنشودة. إنها أنشودة الحرفة المنذورة لهذا العمل الخاص، التي لم تتغير بالتأكيد منذ قرون. والدار تشيَّد

(1) قطعة قماش منقوشة يضعها الكاهن على صدره.

هكذا شيئاً فشيئاً على إيقاع رقصة منوِّمة تقليدية، بحيث يمكننا القول إنها ترتفع هكذا مع الإيقاع والموسيقى، بل يمكننا القول بأن تلك الموسيقى العتيقة تأخذ الآن شكلا محسوسا ومكتملا وإن كان عتيقا أيضاً، هو هذه الدار في زقاق مظلم، التي سوف لن نميزها بعد فترة عن الدور العربية العتيقة الأخرى...

وفيما وراء هذه الفرقة التي تتابع عملها وشكواها، تنحدر فاس وتنتهي عند الهضبة المحروقة لباب الفتوح. وهناك، غير بعيد عن الصومعة البدائية لجامع الأندلس، تبدو الأرض مقعَّرة بتجاويف واسعة نخالها مناجم حجر قديمة، غير أن فيها تقاويس شامخة متصافَّة لا يقف عليها أي شيء. إنها فنادق[1] عتيقة كانت بلا شك ذات أهمية خاصة في العصور الوسطى، حين كانت فاس تمتد على هذه الهضبة التي ليست اليوم سوى مقبرةٍ (عتيقة هي أيضاً) بين الأسوار الكالحة التي تعرَّت جذورها. وخلف تلك الحفر تبدأ القبور متمازجة مع الصخور التي تتناثر في هذه المنطقة. تعرفت على الأضرحة التي فقدت طلاءها، والمسجد الأزرق الصغير الذي تحيط به جماعات النساء كل جمعة، يأتين هناك عند نهاية العشية للصلاة، ولزيارة ضريح الولي الصالح، وربط خرق ملوَّنة جديدة على زيتونته، لكن بالأخص ليأخذن راحتهن على الطريقة الإسلامية، بالارتخاء وسط القبور. في هذا الوقت يكون نور فاس في حال اندحار، وتشحُب المدينة أكثر في البخار الضبابي لواديها. آنذاك وكما العادة تغدو الهضبة الكئيبة قفراء؛ أجزاء من السور تعلو من ورائها، وأطلال الأبراج تكاد تمتزج بالأرض المحروقة، وقطع من السور ممزقةٌ تعود لعصر المرابطين.

لكن، حول كل ذلك تتوالى البساتين الرطيبة حيث كانت أفنان أشجار اللوز والخوخ البارحة تبرق بشرارات وردية؛ وهي اليوم خضرةٌ يجعل منها جوار ذلك الخراب أكثر عذوبةً. إنها خضرة وضّاحة، بل هي تنحو من فرط يفاعتها نحو الصفرة، إذا ما نحن قارناها بخضرة أشجار الزيتون والبرتقال، أي بتلك التَّوريقات الخالدة. ثمة خطوط للصفصاف تلج المدينة وتنتشر فيها في شكل جزر وبخار أخضر وامتداداتٍ عبر البياض العتيق الكابي. إنه التناقض الخالد في هذه البلدان الإسلامية العتيقة، حيث لا يموت الماضي إلا بتحلُّل بطيء يكاد لا يُحس، ليترك على الأرض عظامه كلها. وعلينا العودة دائماً لهذا التناقض، ففاس

(1) الفندق كان أشبه بالخان في الشرق. وهو مخصص للمسافرين ودوابهم.

تجد فيه طابعها الاستثنائي. وذكراها الكاملة لديَّ يمكنني اختزالها في صورتين: صورة وادي فاس الجاري والمتعرِّج بين أدغال القصب واللبلاب والدّودية الأرجوانية تحت ضباب الصفصاف؛ وصورة المساحات الإقطاعية التي تعسكر فيها الجمال تحت الصفوف المتحطِّمة لتسنُّنات السور. تبدو لي الأطلال أكثر وقارا بسبب السيول والأزهار والأوراق المنبثقة؛ وبسبب الأطلال، تُفصح لي المياه الجارية بشكل أفضل عن حركة الحياة الهاربة والخارقة. إنه تعارض جميل مؤثر لأن العلاقة العادية فيه انقلبت. المآثر الإنسانية هي التي تتحدث هنا عن الأزمنة القديمة وعن الديمومة، والطبيعة هي التي تقدِّم لنا العارض والزائل. ولأن الإنسان في هذه البلدان العتيقة ظل بسيطا ولم يسعَ إلى ترويض الطبيعة، فإن هذه الأخيرة تعرض حياتها في أمواج وانبثاقاتٍ عديدة، في كل ما تجفَّف من المآثر وتفتَّت تدريجياً ليدخل في عالم الموت الآمن. لهذا فالبساتين العطرة والأنهار السيالة، والأجراف المخضرة تكون دائماً مجاورة للمقابر والأسوار الكئيبة العتيقة.

كم أحسست البارحة بتلك التعارضات من فوق القبور المرينية! كنا قد جاوزنا حقول الزيتون. وكان يسبقني عسكريٌّ مخزنيٌّ حزينٌ، على كتفه بندقيته الطويلة ليدرأ بها عنا قطاع الطرق المحتملين. صعدنا في صمت مسلكا صخريا، بين فُرشات شاحبة من الأحجار الجيرية، بين الأحراش والأطلال من كل الأزمنة. وأسوار فاس التي تتسلَّق هذه الأعالي، تبدو أكثر فظاظة وتهدُّما من الأمكنة الأخرى، وتنحدر تدريجياً، يحيط بها زبدُ أشجار الزيتون الفضّي. وأخيراً بدا لنا السهل الممتد في الغرب، مشرفا على المدينة التي تكاد تلامسه من عقر تجوُّفاتها هذه.

إنه امتداد المناظر الطبيعية وعذوبتها التي يصعب وصفها. ثمة الفضاءات الخلاء، معزولةً كقطعة من إفريقيا. وهذا السهل، الذي يشبه بحرا هادئا يبرد في صمت الأصيل، ينصاع للأشعة الأخيرة للمساء المنبعثة من هذا البريق المنسجم والمخضرّ للعشب. كانت سلسلة جبال الأطلس تحدّه من الجنوب، عند الخط الأزرق الخفيف السائل، حيث يسرح البصر قاطعا الفراسخ تِلوَ الفراسخ بحرّية، تماماً كما من لو أنه من أعلى الجرف يجب أن يتبع خط الأفق البحري، الأمر الذي يتم بسعادة أكبر، نظرا للمرونة الرائعة للتموُّجات الحيَّة. ونحو الغرب المستنير، على بعد مسافات لا يمكننا تقديرُها، تبزغ ثلاث تقطُّعات حادة وبنفسجية

من اللامنتهى كما لو كانت جُزُرا مغلَّفة بمنحنى الأرض. وحين نعبر مرة واحدة هذه الفضاءات الشاسعة، نُيَمِّم وجهنا نحو الشرق. وسطح الأرض من هذه الجهة ينفلت من النّظر وينحدر بشكل غريب ليكشف عن قعر قفر ومضيء تلُمُّه فيه تعرُّجات نهر سَبو. ثم هنالك سطوحٌ من الحجر، وجبالٌ وردية إفريقية في شكل مدرَّج؛ والقمة العليا التي تظهر في الأيام الصَّحو، والتي تشرف على كل ما حولها، من غير أساس مرئي، وكأنها نابعةٌ من الأثير. إنها قمة عالية جدا، بعيدة وخفيفة، بحيث نخالها بخاراً رقيقا، سيصبح لتوِّه شفافا عند لمعان النجوم الكبرى، لو أن الثلوج اللامعة في القمَّة لم تخطِّطها شيئاً ما.

انتهينا من تسلُّق المنحدر الأول لجبل زلاغ، الذي كانت صخورُه تتحوَّل تحت الشمس الغاربة إلى لون أرجواني حار. وها نحن نلامس القوسين المنهارين اللذين بناهما السلاطين المرينيون. ومشينا على أنقاضهما الزرقاء من الفسيفساء، وكل ما يوجد في الواجهة من الأطلال يبدو كما فضاءٍ ينحدر وينتهي انحدارُه عند أقدامنا، لتظهر وراءه فاس كاشفةً عن نفسها. يا لها من شبح حزين داكن في قلب جمال هذا العالم الذي يغفو في النور! وياله من مركز مظلم لهذا المنظر الوضيء! كانت المدينة تنحشر في وِهادها، معزولةً عن الشمس التي كانت أشعتُها النابعة من المرعى العالي تمرُّ من فوقها كي تسير بعيداً لتترُك ألوانها على مشرق الدَّرجات الهوائية الحجرية. لا أثر للحياة على الاكفهرار المنطفئ. فمن دون مداخن (سوى المثلث الأخضر لضريح مولاي إدريس)، وبهذه البيوت المقطوعة الرأس كلها، تبدو فاس أشبهَ بمدينة محروقة منذ زمن، لم يتبقَّ فيها غير أسوار لها لون الرماد. كل هذا ظل هنا وبقيَ في الزمن، في هذا الوادي المحروم من النور، بين ربوات القبور المنتشرة والخضرة الجديدة (فالطبيعة تستمرُّ في الحياة)، في قلب بلادٍ بكرٍ ومغلَّفة بالنور. ومدينة الظل هذه ظلت وحيدةً معزولةً، فهي لا تتَّصل بأي طريق مع باقي العالَم.

تحتنا وفيما فوق فاس، كان يرتفعُ هيكلُ حصنٍ عظيم. كانت قمته قد تجوَّفت بالتآكل، لتغدو عبارة عن نصلين حادَّين كما في جبال الألبّ حين تتآكل قمة جبل من الحجَر الجيري. كان سفحه يمتزج بالصخر بحيث يمدِّد مظهره الشاسع الصّلب ولا شيء يميِّزُ بينهما. هنالك الأحراش الزرقاء نفسها المتسلِّقة للصّخور والبرج، والجروح نفسها في شكل تجاويف فاغرة يبدو أن العديد منها كانت عبارة عن قبور. إنَّه تشققٌ واحد يمتدُّ من الصخر للسور، والنور

الساطع الذي يغلِّفهما معا يستكمل الخلطَ بينهما. إنه الشاهد المأساوي على عالمٍ غابرٍ! كان يسهر على جثمان هذه المدينة، ويمنح الأبَّهة للطبيعة بحيث يغذّي سكونها.

ومن جانبي هذا الطَّلل، يمتدُّ سورُ المدينة العتيق مكلَّلا بحصونٍ متشابهة، محمَرّا ومُتآكلا بين الصُّخور المتآكلة بدورها. والبصرُ يهبط ويصعد متابعا إياه، فيغيب عنه في أكَمات الزيتون وفي الأجراف، ثم يستعيده في الأعالي، ليتعرَّف عليه في البعيد خلف الأراضي المحترقة لباب الفتوح حيث لم يعد يسوِّر شيئاً عدا مقبرةٍ قديمةٍ.

وعند أقدامنا، في ثلمات هذا السّور الخارجي، هنا وهناك، يوجد رجلٌ حالمٌ، يتسلَّق بين التشقُّقات والأحراش، ليجلس هناك يتأمَّل المساء. إنه يتأمل الأصيل والمدينة الغبراء، والغابة الربيعية حولها، ومن وراء ذلك الشَّساعة السّاكنة الدائرية... فعلنا كما هؤلاء الحكماء الذوّاقين، فاستسلمنا لخدر الفضاء اللامتناهي، بجباله في الشرق، وبالمنبَسط الأملس كما بحرٍ هادئٍ تجمَّد في الأصيل...

إنه سكون شاسع كما المنظرُ الممتدّ أمامنا. ففي هذا العلوِّ، لا نسمع شيئاً أبداً غير صفيق أجنحة جواثيم غير مرئية، ضائعة قربنا في هوَّة النور، ومرفرفة وراء حشراتها المفضَّلة.

***

حين يعسعِس الليل ويحين وقت إغلاق الأبواب ويكون المرء قرب الأقواس المرينيَّةِ هذه، عليه أن يهرع للدخول للمدينة من باب عَجيسَة. عليَّ إذن أن أنزل المنحدر الصَّعب، خطوةً خطوةً، ماسكا دابَّتي جيداً من عنانها. ثمة أحجار تَتهاوى، ومُنحدرات من التراب المغبرِّ، ثم بين الهياكل العظمية لحمير وكلاب ثمَّة سريرُ غدير جاف أصبح عبارة عن مسلك. وبمقدار ما كنت أنزل المنحدر، بدأت أحجار كبيرة تختلط بالصَّلصال الرَّملي الذي صار يتكاثر في السطح. وبالرغم من قِدمها وتآكلها، نحدِس بأنها نُحتت في شكل تابوت. من المستحيل عليَّ تفاديها؛ فليس هناك من مسلك غير هذا الذي خُطَّ من تلقاء ذاته على مرِّ العصور، والذي يسير بنا إلى المقابر. من المستحيل أيضاً عدم المرور قرب حلقة من الحلقات الدينية المعتادة التي تتكوَّن هنا كل مساء، حول فقيه عجوز يقرأ ما بين يديه ويعلِّق عليه بصوت جهوري. ففي هذا المكان الجنائزي، طالما الليل يقترب، كان هؤلاء الأحياء المتدثِّرون بعباءاتهم، والمنحنون

من غير أن يحرِّكوا ساكناً، يشبهون إلى حدٍّ ما الأموات الذين ينبعثون في أكفانهم في الليل على جوانب قبورهم...

ولقد عانينا الأمرَّين حتى لا نمرَّ من أمامهم خوفا من قطع رؤوسنا. فما أن أبصر بنا الفقيه حتى سكت عن الكلام، ومن غير أن يتحرَّك أيُّ وجه من بين الوجوه، رفعت الأعين نحونا بطريقة ذات دلالة، جعلتنا نسرع في تدحرجنا.

وقائعُ من الحياة اليومية بفاس.

ما يُقال ويُشاع في الأسواق. رجالٌ يتمتعون بحمايتنا وأناس من تلمسان، زبناء للقنصلية والمفوضية الفرنسية يأتوننا دوماً بهذه الأخبار والإشاعات. لكن ثمة أشياء تبلغُ مسامِعنا مباشرة.

مثلا، هم لا يزالون يرّددون على مسامعنا أن علينا اتخاذ الحذر والحيطة. ففي السنة الماضية، دخل أحد البدويّين المدينة، وهو مصمِم حسبما حكاه فيما بعد، على قتل أول رومي يلاقيه حول جامع مولاي إدريس. وكان القتل نصيب أحد الإنجليز كان يساوم أجواخاً في مدخل زقاق محرَّم. الرجاء عدم المغامرة هناك إلا بحراسة جيدة، أو على الأقل التجوُّل بحيطةٍ وحذرٍ كبيرين، من غير كلام، واتخاذ مظهر جادٍّ وحازمٍ، كما هو حال الناس بفاس.

كان الريسولي[1]، الذي لم ينس السيد بيرديكاريس[2] Perdicaris ضيافته قد عين مؤخراً باشا على أحواز مدينة طنجة. وهو ما يعني أن على المفوضيات الأجنبية الأساسية، الموجودة خارج المدينة، أن تطلب من قاطع الطريق هذا حرّاسها الضروريين. وقد بدأ ممارسة مهامه بتجريد تلك المفوضيات من حرَسها، وهو ما سيؤدي إلى معارك حامية في السوق الكبير الذي يقع تحت نفوذ ذلك الباشا. فمن بين القبائل والقُرى التي تقصده لتسويق منتوجاتها، نصفها يحارب رجال الريسولي. لذلك فهذا الأخير لا يبالغ في الحظوة التي يتمتَّع بها؛ فهو خبير بكل الحيل السياسية القديمة للمخزن، بحيث لا بد أنه أحسَّ بمكيدة. وأن يتجاسر على ترك معقل جباله كي يتجوَّل في نواحي السوق الكبير الذي قع في دائرة نفوذه، في الوقت الذي يبدو أن عساكر باشا مدينة طنجة لديهم أمر بالانقضاض عليه، فذاك شأنٌ محيِّرٌ. حينها

(1) أحمد الريسولي (أو الريسوني)، كان أحد أكبر قطاع الطرق في عهد مولاي الحسن في أواخر القرن 19 وبدايات القرن 20، وصار قوة مسيطرة على الشمال المغربي، فأمر السلطان باعتقاله. وظل في السجن إلى أن تولى مولاي عبد العزيز الحكم، فأطلق سراحه، ليعاود مناوشاته للقوى الأجنبية بطنجة. عينه مولاي عبد حفيظ باشا على مدينة أصيلة.

(2) بيرديكاريس مواطن أمريكي اعتقله الريسوني هو وشخص بريطاني معه، في ماي 1904، ولم يطلق سراحه إلا بفدية هائلة. وقد أثار الحدث مشكلات كبرى بين القوى الأوروبية وأمريكا.

سيودع نهائيا المساعدات التي حظي بها، وسياسة الغاب المربحة مرة إلى الأبد. فالأقباء العميقة لفاس الجديد التي تصلح لممارسة العدالة والأخذ بالثأر الشخصي للسّلطان تحفظ جيداً مساجينها. والريسولي الذي يعرف كل هذا جيداً يظل محتميا بجبله الأحمر. إنه هو يمارس سيادته من غير أن يقترب من حكومته.

لا يزال بريد طنجة يتعرَّض للنَّهب من وقت لآخر، وفي العادة على بُعد بضع ساعات من البحر، حين يدخل أراضي الريسوني.

بعض الحكايات المشؤومة تذكرنا أننا في عصر فليب الجميل[1]، وعصر السحر الأسود وأن التواريخ المحفورة على كل الجدران تبدأ كلها برقم 13. ففي زنقة «عقبة الفئران» حينًا، يقوم عساكر المخزن بالتجوُّل من باب لباب بتاجر عجوز خجول من نفسه تحت سبابِ ولعنات الناس. وهو سوف يقضي الليلة أيضاً في الحبس، وقد يغادره في الغد إذا ما هو قرَّر منح القاضي صرَّةَ المال المليئة المنتظرةِ منه. وإليكم جريمتُه. لقد فقَد هذا الرجل زوجته من بضعة أيام. هرعت الجارات، وناحت النائحات، وكثر اللغط الشعائري، والهرج والمرج طيلة اليوم كما هي العادة في هذه الحال. وفي الليل ظل الزوج وحيداً مع غسّالة الميتة قرب الجثمان الذي كان قد كُفِّن ليدفَن في الغد. وعند الفجر، وحين بدأت الغسالة تفيق من النوم، أبصرت بالرجل منكفئا على جثمان الميتة ويداه تقومان بحركات غريبة. وحتى لا يحس بها الرجل ظلت عيناها في نصف إغماضة فرأت أن الكفن قد فُسخ، وأن الرجل سحب من قفطانه أربع قطع خبز حزمها في باطن ركبتي المرأة الميتة وتحت إبطيها، ثم أعاد الكفن كما كان. لم تنبس الغسالة ببنت شفةٍ بالرغم من أنها شكَّت في عملية سحريَّةٍ، وتركت الناس يوارونها التراب. لكنها لم تستطع مع صواحبها في الثرثرة من أن تحبس لسانها، فكان أن تردَّدَ الخبر بحيث وصل إلى أذني القاضي. ونُبِش القبر وأخرج الجثمان فوجدت الخبزات الأربع كما وصفتها الغسالة، وتمت محاكمة التاجر. وخلال المحاكمة اعترف التاجر بأنه بفعلته تلك كان يرغب في ممارسة عمل مُشين يتمثل في كون تلك العملية والشعائر المصاحبة لها تمكِّن من تعفُّن

---

(1) هو فليب الرابع (1268-1314م) ملك فرنسا، الملقب بفليب الجميل. عرف عصره القلاقل واعتبر انتقالا من فرنسا الإقطاعية إلى فرنسا المنظمة إداريا من خلال الإصلاحات الاقتصادية والإدارية التي أدخلها. واتسم بالأخص بالصراع بينه وبين البابا بونيفاص الثامن

مخزون فاس كله من الحبوب والمؤَن. وهو كان ينتظر وصول أربعين جملا محملا بالحبوب الجيِّدة من العرائش، وبما أنها لم تكن قد بلغت فاس فإنها لن تعاني من أثر السحر. وهكذا كان يبتغي تموين المدينة في وقت ستكون فيه الكارثة العامة سببا في ثروته. نطق القاضي بحكم حكيم وقاسٍ في حقِّ الرجل وأمرَ بالتجوال به في المدينة على ظهر حمار عبرةً لمن يعتبرُ.

وأنا معجب بهذا الحكم الرَّحيم. ففي عهد فيليب الجميل، كان الحكم في حق رجل ساحرٍ كهذا سيكون المحرَقة. لكن العدالة في البلاد الإسلامية رحيمةٌ. ففي المغرب كما في تركيا لا يتمُّ قطع رؤوس كثيرة. والرؤوس التي تعلَّق في باب المحروق غداة الانتصار في معركة، وتقدم ليهود الملاح قصد تمليحها، تقطع من أجساد صرعى المعركة. وفي العمق، فما نسميه جريمةً ليس بالأمر الذي يثير الصَّدمة. فالاغتيال ليس في غالب الأمر سوى حادث من أحداث الحروب بين القرى، والسرقة نمط من أنماط النهب التليد، وهي مسألة أفضل من أخرى وتتمُّ بشكل مباغت. وفي الغالب فإن من تقع عليه السَّرقة يتفاوض مع السارق كي يحتفظ ببعض الغنيمة. فهل يتم اللجوء إلى القاضي؟ يسعى هذا الأخير في البداية إلى المصالحة بين المتقاضين. وإذا ما هو نطق بالحبس، فإن الجاني يكون مدينا للمجني عليه بغرامة مالية، وهي مساومةٌ تسهر عليها السلطة القضائية وتخصمُ منها نصيبها. وحين تتم الصَّفقة، يأتي السارق والمسروق معا إلى المحكمة، في المشور العتيق في قعر القوس الأعمى، حيث يكون القاضي مقرفِصاً على مقعده الحجَري، ويتلو عليهما بعض الآيات التي تنصُّ على المصالحة، فيتعانق الخصمان. وهكذا تأخذ الحياة الاجتماعية هنا خُطاطتها الكاملة، في طابعها البسيط والخرافي الذي يشكل ميزةَ القصص الشرقية.

***

لا يزال الطلبة في غمرة احتفالهم منذ أسبوعٍ. إنهم يعسكرون في المرعى على الشطِّ المزهر لوادي فاس، حيث تَتلخَّص متعتُهم في العزفِ على العود وطبخ بعض المأكولات السريعة. والعادة جرت أن السلطان الفعلي للبلاد يتظاهر بأخذهم مأخذ الجد والتعامل مع سلطان الطلبة بطريقة ملكية وذلك قصد المزاح. يتم في البداية تبادل الزيارات بين الوزراء من الطرفين، ثم بين السلطان الحق وسلطان الكرنفال. إنها أيام ترفيهية للفاسيين الذين يموتون

من القُنوط والمَلَل. ففي أوقات الانحطاط التي لم يعد فيها هذا الشعب شعباً فعلياً، يغدو سعيداً لابتداع ذرائع لحفلات شبيهة بالحفلات والأعياد الحقَّةِ في الماضي، بالرغم من أنها مخالفة لها ومجرَّدَةٌ من دلالتها العميقة، باعتبار أنها ليست فكرة حيوية تسعى لتمجيد الشعب.

لم أحسَّ بأي تعاطف وجداني، لأنني كنت أعرف أن الأمر لا يتعلق سوى بلعبة لا تتوفر على أي أساس أخلاقي أو وطني أو ديني، وأنا أرى جمهرة الفاسيين تغمُر المشور وتتجمَّع فوق كوم التراب التي تغوص فيها أساسات الأسوار الهائلة، وهي بنفسها تبدو داكنة ورصاصِية مثلها مثل تلك الأسوار المسنَّنَة الموحِشة. وفي وسط المربَّع، كان هناك جنودٌ خضرٌ وحمرٌ (بأفخاذ عارية وبزيٍّ بئيسٍ يجعلهم أشبه بالقرود الإنسانية)، خمسون فارسا أبيض من الكيش يحرسون فضاء محرَّما. وهناك كان أعيان من المدينة ينتظرون مع جوقة من الموسيقيين أمام قوس وراءهُ بابٌ عظيم، الوحيد هنا الذي يحمل تاريخا حديثا من التاريخ الهجري: 1321، غير أنه باب غريب، لأنه يقود إلى أسوار القصر الذي لا يعرف الشعب إلا أسواره اللانهائية. وفي الطرف القصيِّ من المستطيل الطويل، تتراكب أطلال شائخة وهائلة، من قلاع عظيمة نخالها مستحثاتٍ، لأن اتصالها بالأسوار الحديثة يشبه اتصال حيوان أسطوري ضخم بالفيل. كانت أحجارها العتيقة المتوحدة تسود في السماء في شكل غيوم سوداء، تعلوها خضرةُ الحَزاز، والشمسُ فيها وراء الظل وحركة الناس في السّاحة العميقة، تنير بوضوح الماضي البعيد وتعيده للحياة. ما هي قيمة الناس اليوم في سفح هذه المخلوقات التي عرفت أمجاد أسياد إسبانيا؟

زعق النفير وبدأ الموكب السلطاني في الظهور. كان يخرج من الباب العالي ذي الطابع الأندلسي الذي نُقش عليه رقم السلطان الأخير. وصار الفرسان يتوالون زرافات منبثقين من القوس المدلهم، في خطوط طافية متعرِّجة كما أوشحةٍ يتلاعب بها الريح في النور. رقصُ الخيول ولعبةُ الفروسية الرائعية، ولمعانُ السيوف؛ اختلاط أعراف الخيول المتهادية والبرانس والجلابيب من الصوف الرفيع التي تكشف عن الأحزمة من خيوط الذهب، ولون القفاطين الوردي والأصفر والكستنائي. وها هو الفضاء الخالي الذي كان يحرسه العسكر يمتلئ بفوضى عارمة وبقفزات الجياد. ظلت الجياد النافرة عند مرأى الناس تزيد من هيجانها، وصفوفها تتفكك، وقواد المجموعات يركضون من هذا الطرف لذاك صارخين بأوامرهم

الجهورية. وسارت هذه الفرقة بصُعوبة تحت أسنان السور السوداء لتغوص في الباب الشمالي في المحور الأكثر شساعة من الساحة. وأخيراً، وخلال بضع دقائق، في فاس هاته التي لم أعرف فيها إلا ما هو باردٌ ومغلقٌ وصامتٌ كما قبر من الجير، انبثق أمامي الشرق الخرافي رائعا في تلاوينه، ذلك الشرق الذي تخيَّله الفنّانون الرومنسيون لدينا، والذي يزين سقط متاعه مراسمهم. وفي هذا الهرج البهيج من الألوان والبريق، رأيت الأعلام وسروج القطيفة القرمزية، وعدة الأفراس الخضراء الباهتة، وحديدها المنقوش، والمهاميز الواسعة المسطحة المزينة بالعظام، والخناجر وقوارير البارود الإجاصية بقرنها المزوَّق وحبلها الحريري حيث تتدلّى قطعٌ من الجلد الأخضر. والعباءات الموصلية المنسَدلة والضبابية وهي تحجب أو تكشف عن كل هذا، على هوى دَوران الفرس أو قفزاته. وفي غمرة هذا المنظر الاحتفالي، كان ثمة شيء يلمع في صدر أحد القوَّاد. وحين مرَّ بجانبي، تعرفت على شارة جوقة الشَّرف الفرنسية، وهي عبارة عن صليب في حجم الكف راق له أن يرسمه على قفطانه، قد يكون رآه لدى بعض أمراء الجزائر.

وأخيراً ها هم الموسيقيون الزنوج ينفخون في النفير، فانبعث زعيقٌ نحاسي طويل تقابله ضربات الطبل العميقة. كم كان هذا اللحن الملوَّن المتناقض شجيّاً وبعيداً وغريباً، وكم كان موافقا لهذا الفضاء القُروسطي الشاسع والمظلم. كانت الجوقة تعزف مجيء السلطان. وها هو يظهر في موجة من الشخصيات أكثر شيخوخة من الأخرى، بسِمته النحيف، مرتديا أيضاً الأبيض بحيث يبدو من الممر المقوس. إنه الشريف، والولي الذي يتعرف عليه المرء للتوِّ، مختلف عن كل الآخرين، المتوحِّد وسط هذا الحشد من الناس، لأنه كان لا يبدي حراكاً، مرتديا البياض في كل شيء كما لو كان محبوسا في الثّنايا النيِّرة لكفن طويل.

كان ثلاثةٌ من العبيد راجلين محيطين به، أحدُهم يرفع فوق رأسه مظلَّةً حمراء، والآخران يحملان مروَحتين يمنعان بهما الذباب عن فرس السلطان النّافر. لكنه هو لم تكن عليه سيماء الحياة، فقد ظلَّ معتدل القِوام، كما لو كان مربوطاً إلى فرسه، وساعِداه جامدان ومخبآن تحت ثيابه بحيث نخال أنه يتجاهلهما تماماً. لم أر عينيه فتخيَّلتُهما مغمَضَتين، بحيث يبدو أنه لا يرى ولا يحسُّ بأي شيء. كان مثل مومياء مقدَّسة يظهرها الرهبان للشعب في جلال واحتفالية.

وفجأة سمعت اللَّغط الصارخ للجماهير التي علت على زغاريد النساء الحادة والهائجة. كنَّ وراء الرجال فوق كوَم التراب المتراكِمة على جنبات الأسوار، متجمعاتٍ تحت رؤوس تسنُّنات السور الطويلة، في شكل قطيعٍ له لونُ الصوف من غير أن يظهر منهن وجهٌ واحدٌ. كانت الزَّغاريد الحادة والمتماوجة للنساء تأتي من كل مكان، وقد تعرَّفت عليها لأني سمعتها من قبلُ في لبنان ومصر. إنها الأصوات التي تتعالى في المشرق بكامله منذ ليل الزمن، بمناسبة الأعياد أو الجنائز. والتَّوراة تتحدث عنها، فهي في طيبة وبيبلوس وقرطاج تستقبل المنتصرين، وتصاحب الطَّواف المقدس ومواكب موت الآلهة وانبعاثها (أدونيس، أوزيريس). تلك الزغاريد تعبر عن منتهى العاطفة، وعن الهيجان المقدس الحماسي أو اليائس، القريب من الوجد الكهنوتي، والدُّوار الذي يغيب فيه الفرد. إن هذه الحالات القصوى التي يبحث عنها الشرق من فاس إلى كلكوتا، والتي يعتبرها ذات مصدر إلهي، لا تدل عليها هذه الجلَبة الصاخبة فقط وإنما تستدعيها وتساهم في إنتاجها.

والمناسبة هنا ليست ذات قيمة، وعلينا ألا ننسى ذلك. فحفل الطلبة هذا لا معنى عميق له. لكن أهل فاس يجدونه أمراً مؤججا للعواطف، مليئا بالاعتبار والهيبة التي يتمتع بها هذا الشبح الضامر للفارس الذي لا يتحرك، والذي يغلفه البياض الساحرحتى أسفل المهماز. هذا الشكل الصارم، الجامد والكهنوتي، ما يتجسد أمامه هو فكرة الكمال، التي يسعى إلى تحقيقها عبر وضعية الصَّمت والوقار. وفكرة من قبيل هذه هي مُنتهى وغاية حضارة بكاملها، وليس مهما أن تكون تلك الحضارة في انحطاطٍ، فحين تنتج الفكرة تستمر في الوجود. ليس مهما أن يكون هذا السلطان سلطانا غير حقيقي، وألا يكون هذا الطالب زعيما حقاً، أو ألا يكون طالبا من أهل فاس. ففي هذه اللحظة، يتحقق في عيون هذه الجمهرة المسلمة حلمٌ عتيق بالجمال تبلور خلال قرون عديدة، ويرتبط بجوهر المجتمع الإسلامي. أمام هذا اللباس الزنبقي الخالص، وإزاء هذا السَّمت الصارم والسّري، وأمام هذا جمود هذا الولي الصالح الذي لا يتواصل إلا مع ربه، تهيج هذه الجماهير، كما أن مرأى جنرال على صهوة جواده، حاملا سيفه ومزينا بنياشينه، في أوروبا يجعل الشعب يحلم بالبطولة والمجد وإشارة الإمبراطورية الخالدة.

إني أفضل الأيام العادية لقطع الساحات الإقطاعية الكبرى، ومعها المنظر الخرافي في مدخل فاس. وهكذا، ففي سكينة المساء والوحدة، التي لا يعكِّر صفوها مرور قطائع الدّواب والفرسان، التي تبدو صغيرة جداً قرب الأسوار، نسمع أفضل الأصوات التي تأتينا من الماضي. وكل تلك الأشكال الرمادية، المتهالكة طوال السّاحات والممرات، لا يبدو أنها تصمت أو تنكمش على نفسها في عباءاتها إلا لتتنصَّت مليّا لما تقوله في صمت.

تلك الأصوات متعددةٌ ومختلفةٌ، تبعاً للوقت والنور، قد تبدو غامضة وبعيدة أو واضحة، وبدلالات مختلفة، مثل موضوع موسيقي يتغيَّر معناه وقيمتُه.

أحياناً، في تلك الأسابيع الأولى من أبريل/ نيسان التي تكون قريبةً من الاعتدال، بعد أيام ساخنةٍ وشفافةٍ، يبدأ نفَس المحيط الأطلسي (الذي يبعد كثيراً من هنا) في الضَّغط كما في الخريف بباريس، حين تهبُّ ريحٌ مكدرةٌ ورطبةٌ آتيةٌ من الجنوب الغربي. كل شيء يتكدَّر ويغدو مظلما. وينكشف عالم الأطلالُ وتسنُّنات السّور هذا في صورة أكثر شيخوخة ومأساوية، في الفرجات بين الغيوم. حينها وحينها فقط، ينبعث هذا الماضي ويصبح حاضرا وفي أوج حيويَّته. إنه هناك، بعد أن انهدَّت الفواصلُ بين القرون، ولم تعد ذكراه هي ما تجترُّه المآثر. ومن دون شك في تلك اللحظات أن اكفهرار السماء والضَّباب الأسود المنذِر بالعاصفة يتناغم مع قِدم الأشياء حتى لَيبدو معاصراً لها. وفجأة يبدو أن ليلةً من العصور الوسطى المظلمة قد عاد: إنها فاسُ القرن الخامس عشر هي التي تمتزج بهذه السَّماء العتيقة. هؤلاء السّاسة الذين يدفعون حميرهم نحو باب المدينة، وهؤلاء الفرسان المتلفِّعون ببرانسهم يسيرون بمحاذاة سور المدينة، هم إخوةُ عرب إسبانيا الذين يعيشون في هذا الوقت بغرناطة خلف باحة مشابهة يتوسطها باب مشابه أيضاً.

لكن السماء في الغالب تكون يافعة، وأفقها بكرا منتشيا بفرحة شهر أبريل/ نيسان بحيث نخالها نورا ينبثق للحظته، مثل جناح مرتعشٍ ومنطلقٍ ليَراقةٍ. وكم نحس أن هذه اللحظة في بريقها الحاد تكون هي الواقع كلّه! وكم يبدو الماضي ماضيا!

ندخل المدينة من «باب السّاجمة»، دائماً مع ضجيج وثُغاء قُطعان الخرفان المتزاحمة السائرة تحت الظلال الوارفة للجِمال. وفجأةً ينفتح المشور الكَبير (حيث مرَّ السلطان من أيام لملاقاة الطلبة). وخلف الفرسان الذين يشكّلون حاميتنا العسكرية، ومع المواكب الأخرى التي تعود للمدينة وبنادقها على أكتافها، عبرناه في محوره الرّئيس، من الباب الشمالي نحو الباب الذي يغوص في الأجراف المظلمة المتوازية للأبراج المرينية، على بعد مائتي متر. وحين يعود المرء من رحلة العدو على الفرس في المنبَسَط يندهش للحرارة السائدة بين هذه الأسوار. فهواء الخارج لا يتسلَّل هنا بالتأكيد إلا تدريجياً، وكل فُرشَةٍ عمودية من الآجر أو الطين التي سخَّنتها السماء طيلة اليوم تحتاج للعديد من الساعات كي تبرد.

***

غير بعيد عن «المشور» باتجاه الملاح، توجد أجمل صوامع فاس الجديد، تلك التي نراها من «باب الفتوح» تلوح في السماء في الطرف الأعلى من الوادي. ففي هذا الحي المخصَّص لخدام القصر وجنود «الجيش»، ليست الأزقة عبارة عن أخاديد عميقة كما في المدينة القديمة. ولا وجود للأقواس التي تحول دون التقاء المنازل العتيقة في أعلاها. إنه ضاحية بُنيت حديثا، المنازل فيها واطئةٌ مشيَّدة من الطين الناصع.

أصبح الوقت متأخراً حين عبرنا ساحة أبي الجنود الطويلة للنزول نحو فاس البالي. كانت السِّراجات قد أُنيرت تحت الخيام البدوية والأكواخ المتَّكئة على السّور. وفي هذه المنازل المظلمة تنهمك النساء في مشاغل الليل، ومن خلال الشقوق والمنفتحات نرى الأطفال الرُّضَّع عراةً، وأياديَ مليئة بالخواتم تحرّك القُدور.

لكن في الخارج، لا يزال موقع المخيم ضاجّاً بالحركة تحت النجوم التي بدأت تطلق بريقها. وعبر الزّحام يروح السحرة الزنوج ويجيئون بأكاليلهم المحارية ضاربين الطبل، وحين مررنا بهم واجهونا بإشاراتٍ بشوشةٍ. وثمة أولياء يلبسون عباءات غريبة يوزّعون بركاتهم على الناس ويقبّل الناس أيديهم. وفي طرفي الساحة الطويلة، يرفع الحكواتيون أيديهم فتتطاير معها برانسهم. وقَصصُهم المتعلقة بالجن والخلفاء والجمال الطائرة تَتَابع من يوم لآخر مثلها في ذلك مثل حكايات شهرزاد. وفي أمكنة أخرى يتحلَّق الناس حول البهلوانات. هل هناك

نموذجٌ مظهري لحاوي الثّعابين؟ أولئك الحُواة الذين رأيتهم في فاس رجالٌ طويلو القامة ضامرون وذوو بشرة كالحة وعيون حالمة وحركات بطيئة، بحيث يشبهون بشكل كبير إخوتهم في الهند الذين يلعبون بالكوبرا.

على المرء أن يعبُر بتؤدَةٍ كبيرة هذه الفضاءات المأهولة في الصَّباح في عزِّ الشمس عند وقت انطلاق السوق، كي يدرك التَّنوُّع الكبير في الهيئة والطِّباع. وأنا لا أعرف بلدا في الدنيا، غير الهند التي تكاد تكون قارةً، تختلف فيها الألوان وتتنوَّع إلى هذه الدرجة. إنها في المغرب تسير من لون الزُّنوجة حتى اللون الأبيض الشمالي، مرورا من كل الانتقالات اللَّونية بينهما. فهناك لون الخلاسيّين بكامل درجاته، ثم ألوان ناس أوروبا، والألوان المتوسطية الزيتونية أو السمراء، واللون الأكثر نصاعة للبلدان الجرمانية. وبعض الرؤوس تدهش لا فقط بعيونها الزرقاء وشعرها الأشقر الباهت وإنما ببنيتها وتعبيراتها الشمالية وبرباطة جأشها وطبعها البارد المتَّئد. ونحن نتساءل كما يلح على ذلك بعض الإثنوغرافيين إن كان قد تبقى في بلاد البربر هذه شيءٌ من الدم القوطي والوندالي. وهؤلاء هم في الغالب بدوٌ وريفيّون، لأن البورجوازية الحضرية أو طبقة المخزن، تشتري الزنجيات المرغوبات في الأسواق، فتنسبغ تدريجياً بالدم الأسود. ولو كان هنا حكم لوني مسبق لكان سيفضِّل الملوَّنين، لكن ليس هنا من إحساس عرقي، فكل التمايزات تصبُّ في وحدة الدّين والإيمان. الأسود والأبيض إخوانٌ في المغرب أكثر من أي بلد آخر، باعتبارهما مؤمنين معا، فبما أنهما أخوان في الصلاة، فإن المقت الاجتماعي في مجتمع ذي جوهر ديني لا ينصبُّ سوى على الأجنبي كليةً، أي المشرك. وبعض الأولياء الذين يزورهم الناس ويقدِّسونهم في هذا الميدان الشاسع لأبي الجنود هم زنوج من السّودان. لكن عند الأصيل، تنمحي تلك الاختلافات. فلا نرى سوى بشريةٍ غامضة تتهادى، توحِّد بينها العباءات الفضفاضة، وتراها تتحرَّك تحت الأسوار العظيمة التي يتحوَّل فوقها كل سنّ من تسننات السّور إلى شبحٍ أسودَ...

-11-

بدأت أعرف جيداً بعض هؤلاء الوزراء الغريبين الذين تتجسَّد فيهم روح الحضارة الأندلسية، والمدافعين عن أطلالها اليوم ضد المسيحية التي تحاصرها وتتربَّص بها الدَّوائرَ. وهم يعيشون من جديد حيوات السياسيين الدَّواهي بغرناطة الذين عرفوا كيف يحافظون لمدة أربعة قرون على المملكة العربية الصَّغيرة وسط إسبانيا الكاثوليكية. وبعضهم فقط كان آباؤهم أسيادا لبلاد البربر المتوحِّشة. بأي براعة تُراهم يؤيِّدون هذا النظام الشائخ المبني على الرَّشوة والموت، حيث هم الأمراء!

اجتمع وزير الحرب ووزير الخارجية (واسمه الحقيقي وزير البحر) كي يتّفقا على استقبالي. فقد حدَّثوهما عني كما عن فقيه، أي قَرَّاءٍ للكتب وصديق للعلم، ذلك العلم الوروبي الغريب والخطير الذي صنع قوة أوروبا. وسألا للتوّ إن كنت رجل مخزن، أي شخصيةً رسميةً تنتمي للدولة الفرنسية. فكان الردُّ بالنفي فأبانا عن غبطتهما. حصلت على موعد لدى وزير البحر في القاعة التي تصلح للاجتماعات الدّبلوماسية. وهذه المرة لن يتعلَّق الأمر لا بالاقتراض ولا بالإصلاحات، إذ سوف يمكننا من دون أفكار مسبقة أن نتبادل وجهات النظر عن الدِّراسة، التي تعتبر حظوة المرموقين. وكان بصحبتي التُّرجمان الجزائري[1] للمفوضية، وهو فقيه وأديب أيضاً، يحذوه الفضول لحضور هذه المقابلة.

***

كان الزقاق مثل باقي الأزقة، والباب شبيها بباقي الأبواب، وهناك تركنا بِغالنا لِنتبع ظلَّ ممرٍّ متعرِّج طويل. وبعده، ها هو البهاء المحبوس، فناءٌ ملكيٌّ، وأقواسٌ أقلُّ زخرفة من أقواس دار المقري، ببياض عارٍ ورفيع وبأعمدة رقيقة من تحت. وفي عتبة باب من خشب الأرز، وجدنا مُضيفينا اللذين هرعا إلى لقائنا. كانا رجلين مغربيين من عِلية القوم وكانت ثنايا حايكهما الفضفاض متراصَّة على الشكل الروماني. كان الاستقبال من اللياقة والحرارة

(1) يتعلق الأمر بابن غبريط، الذي سوف يظل ترجمانا بالمغرب حتى يتم تعيينه مديرا وإماما لمسجد باريس بعد تشييده مباشرة في أواسط عشرينيات القرن الماضي.

بمكانٍ، والتحيّات عميقةً تصاحبها حركات الثوب الموصلي والبسمات، والوجوه بشوشةً تنضحُ بالحفاوة. وبما أنهم كانوا يستقبلون «فقيها» من أوروبا العالمة فقد كانوا مسرورين لذلك لأن رغبتهم قد لُبِّيَت.

كان وزير البحر، الذي عبَّر أكثر عن حفاوته، أصغر المستقبلين جميعا، وهو شبيه بمحمد المقري الصَّدر الأعظم (ووزير القصر والملذات السُّلطانية)، الذي كنت قد التقيته بضعة أيام قبل ذلك. لكنه أكثر انفتاحا منه وأكثر حفاوة، ومثله يميل لونه شيئاً ما إلى السواد، وبياض عينه مشوب بالصفرة كما عيون الزّنوج، وإن لم يكن في هيئته شيء من الروح الزنجية. على العكس من ذلك كانت شفتاه رقيقتين، والفم حادا على الهيئة العربية، ونحافته ورِعةً، وهيئتُه تنم عن الإرادة والاهتمام الخفي، وعينان بلون الجمر. يخاله المرء نمرا من نمور الغاب تنكشف حماستُه الممكنة، وجموح رغبته وشهواته، وطاقته الوثابة في الإيقاع المتماوج لفطنةِ المشيةِ الخفيفةِ.

أما وزير الحرب فكان يبدو أشبه بأوروبي، فهو رجل بدين ذو لحية بيضاء قصيرة مقصوصة على الطريقة الإنجليزية، ولونٍ ناصعٍ بشكل غريب، وعينين ذواتي زرقة شاحبة نندهش أن نلاقيهما تحت شمس إفريقيا. وصوته الحاد، وحركاته الحيوية تجعل منه في الأخير واحداً من أولئك العجزة ذوي المزاج المرح، الذين يرتاح لهم المرء ويثقُ فيهم.

كان يتبعهما كاتب شاب ذو حركات حذرة قدَّماه إلي. كأن هذا «الخواجة» لا يشبه لا الأوروبي ولا الإفريقي الأسود. إنه مغربي قحٌّ، من النماذج التي نلاقيها عادة في أسواق فاس، بوجه خشنٍ وممتلئٍ محاطٍ بسواد اللحية الإسلامية، وشاربٍ مقصوصٍ على حدِّ الشفة العليا بحيث يبدو قوسا تاما. إنها هيئة إسلامية كاملة مكونة من التّواضع والوقار وهي التي نجدها في المنمنات الفارسية. ومن بداية زيارتي إلى نهايتها ظل يرسُم على محياه ابتسامة مؤدبة. وظل جامدا لا يتحرك في عباءته ذات الثنايا الدقيقة، بحيث لا يتحدث إلا بالنظرة، تلك اللغة الإسلامية الحقيقية، مشعّاً أدبا وحذرا. كان هذا الشاب يحضر منذ عدة شهور المفاوضات بين الدبلوماسيين المغاربة والفرنسيين. وبينما كانت المناقشات والخُطب تتوالى، كان في زاوية من الغرفة الفسيحة، ومن غير أن ينتبه أحد لوجوده، يقوم بتحرير تقارير تجعلها الحذاقة العربية

ذات أهمية خاصة في أنظار دبلوماسيي برلين. وأنا أنظر إليه، تذكرت أن كل كاتب هو كاتب السِّرِّ وحافظُه.

كنا نحن الخمسة جالسين حول زربية خضراء على الطريقة الأوروبية، في تلك القاعة الواسعة التي تصلح للمؤتمرات السياسية مع الأوروبيين. اتخذَت الشخصيتان الرئيسيتان مكانهما في مقابلي، فامتلأ ذهني بذكرى سيئة عشتها عند اجتيازي الباكلوريا. لكن ممتحنايَ هذان كانا يتميزان بالرفق وحسن الالتفات، والكاتب بجانبهما يداعبني بنظراته. كنا قد دخلنا صلب الموضوع. فهؤلاء الأشراف المغاربة يملكون من الخبرة العتيقة بحيث لا يحسون بالحرج أمام أي شيء.

وما أن امتدحوا في شخصي العلمَ الأوروبيَّ، حتى رددت عليهم بذكر أسلافهم، عربِ إسبانيا الذين أتوا بالعلم إلى أوربا العصور الوسطى. كان ذلك الجواب قد وقع منهم موقعا حسنا، فتحرك رأساهما بما يعبرُ عن الرضا. وهكذا جاءا على ذكر هذا الماضي الجليل الذي يعرفانه حقَّ المعرفة، ومعركة «بواتيي»، وهارون الرشيد (الذي حُكي لي في دمشق عن مَكارمه بالدقة نفسها) والساعات المائية الخمس التي أهداها للإمبراطور شارلمان، ثم ممالك العرب في إسبانيا، وأمراء الأندلس عشاق الموسيقى وأغاني الحب، والجامعات الكبرى بقرطبة وفاس حيث كان يمارَس علم الفلَك. فسألتهما: «لكن فاس ما تزال تملك جامعة القرويين. فهل حقا لم يعُد يوجد بها علماء فلك من بين العلماء؟». فأجابوا بالنَّفي. فاستطردت: «والعلوم العربية الأخرى كالرياضيات والجغرافيا والكيمياء، هل حقا أنها اندثرت كما سمعنا؟» فكان الجواب: «كانت هذه العلوم كلها تدرَّس قبل خمسين سنة. لكن اليوم، لا. لقد انتهى الأمر». إنهما بالبساطة والهمة نفسَها التي تحدَّثا بها عن علماء الماضي يكرِّران لي أن الأمر انتهى، وأن العلم الذي لا يزالون يسمونه «الجبر» قد أُهمِل إهمالاً. ولا ندمَ أو تردُّدَ في ذلك، بحيث لا يبدو عليهما الإحساس بأي نقص أو انحطاط في ذلك. إنهما سيتحدثان باللهجة نفسها عن نبتة كانت توجد في بادية فاس وانقرضت اليوم. بيد أني أبديت لهم ارتياباً مؤدَّباً، مذكِّراً إيّاهم ببعض المشكلات الخالدة التي لا يمكن للإنسان أن يعرض عنها كل الإعراض. فصرَّحا لي أن الناس العقلاء والمسنين يتناقشون فعلاً أحياناً في مسألة النفس وعلاقتها بالبدن، وفي الاختلاف بين الإنسان والحيوان وغيرها من الموضوعات المماثلة، وذلك في مجال الفقه، بينهم

وبين الناس المتفقهين في أمور القرآن والدين، خاصة في المسامرات بعد العشاء (بعد غسل الأيدي والجلوس القرفصاء على الزرابي بين فيض الأثواب الموصلية).

ثم جرى بنا الحديث للحياة الأندلسية القديمة (فالأندلس في منطوقِهم نعتٌ يعود دائماً على أسلافهم في إسبانيا). وقد بدَياً في هذا الأمر على علم كبير تبعاً لتقليد لا يزال حيّا. فقال بنسليمان إن غرناطة كانت شبيهة كل الشَّبه بفاس. ففي القرون الماضية كان ثمة اضطهاد، فتأورَب المسلمون بعض الشيء، وتخلَّت نساؤهم عن الحجاب، وفقد البرنس عُبَّه، وفي ذلك أصل المعطف الإسباني. وفي فاس لا يزال الناس يتذكَّرون كل ذلك كما لو كان البارحة (فما هي ثلاثة قرون في بلاد الإسلام؟). وظلت العائلات من أصول أندلسية متميزة أو بعضها تحتفظ بمفاتيح الدور التي تركها آباؤهم في غرناطة. ويتعرف عليهم المرء بأسمائهم الإسبانية، وبالبلغات (الأحذية) السوداء لدى الرجال، وبزيِّ نسائهم. لكن أجمل شيء جاء به الهاربون من غرناطة هو الموسيقى. فالبدو والرعاة يغنون ألحانا غير معروفة، لكن الموسيقى العالمة، التي يتمتَّع بها القصر والمدينة هي الموسيقى الأندلسية. ولسماع الموسيقى الأندلسية، على المرء أن يقصد مدينة فاس. هنا، ثلاثة أو أربع فرق موسيقية جيدة فقط تعرف عزفها وإنشادها تبعاً للتقاليد.

كان من يتحدث في مواضيع الفن والتاريخ هذه هو سيدي عبد الرحمن بنسليمان، وهو الأصغر من بين الوزيرين، والذي كانت نظرته الحارقة والمغناطيسية، والحركة الإيقاعية، والطابع الارستقراطي يفصحان عن حساسيته تجاه الجمال. وهو قد زار إسبانيا، وها هو قد انطلق في وصف أحد قصور مدريد (هل هو الإسكوريال؟)، بشكل حماسي ومن خلال فورة الذِّكريات بحيث نسي وجود الغريب ليتوجه بالحديث إلى محمد الجبّاص الذي يبدي عن دهشته وإعجابه. كان الأمرُ يتعلَّق بالقبب والسقوف التي يقارنها بأروع خيام السلطان، قاصدا أن يفهَم كلامُه. وبما أني لا أملك مخّا عربيا، فإن تلك المقارنة لم تُثر دَهشتي.

وبعد أن هدأت حماستُه، أضاف بنبرة الفيلسوف المتبصِّر أن ما يستحق الملاحظة في أوروبا ليس هذا الشيء أو ذاك، وإنما كل شيء، فالشيء يقود إلى الكلِّ. «وهكذا، ففي بستان في فصل الربيع، لا يمكن أن تفصل بين شجرة وأخرى مزهرةٍ لتتأمَّلَها، فالروعة التي تتأملُها وأنت

تحمد الله هو عملية الإزهار بكاملها». بادرتهُ بالسؤال: «لكن باريس؟» (فنحن نعرف أن بنسليمان قد كان فيها من بضع سنوات في زيارة دبلوماسية، وأن أحد مرافقيه قد فَقَد عقله عند زيارة مدهشة لقصر الإليزيه». فأجاب: «آه، باريس. إنها جنة الأحياء. وكل طيبات الحياة توجد بها واجتمعت فيها بمعجزة. تريد أن تغير المكان وها أنت محمولٌ. الأمرُ مثل ما يحدث في الخرافات حيث الجن يهرعون لخدمة الإنس». وبينما كان السي قدور يقوم بالترجمة، كان السي عبد الرحمن باسما يغلِّفنا بنظرته البراقة ويتابع في عيوننا تأثير مديحه.

رددنا تلك المدائح بتواضع. هل يعرفون ضجيج باريس ونشاطها وأن كل الناس يحلمون فيها بسَكينة الشرق؟ إنها في نظرنا جنة نرغب في الخروج منها كما يشهد على ذلك وجودنا في مدينة مولاي إدريس. وكان الوزير ذو اللحية البيضاء مهتما لسماع هذه الكلمات. وافق عليها ثم حكى لنا خرافة حكمية: «كان فيما مرَّ من الأزمان في بلاد الرافدين مدينة لم يكن لها من مثيل. كان فيها كل ما يرغب فيه الناس ويشتهون، قصورٌ من المرمر، ومياهٌ جارية، وحدائق معلقةٌ، وكل الزهور والفواكه والعطور. وإذن من سيصدق ذلك؟ أصاب الملل الناس من ذلك. وفي أحد الأيام، رحلوا كلهم وظلت المدينة خاليةً. وقد حكى مسافرون أنهم صادفوا أطلالها...».

وبما أن مضيفيَّ امتدحا باريس، فمن اللياقة أن أتابع مديح فاس. «إنها مدينة الحكماء. والحياة فيها بسيطة ودينية. ولا تغيير يعيق سكينتها (وهو ما يعرفانه جيداً، وبحركة من الرأس يؤكدان لي أنَّني على حق). وكم تحوي من الجمال، بصوامعها ذات الزَّليج الأزرق، والأطلال في بساتين الزّيتون، والحدائق المزهرة، والأودية الزُّلالة (وهما ظلا يؤكدان كلامي بالحركات نفسها). وكل هذا الكمال يعرفه أهل فاس، ويعرفون كيف يتذوَّقونه تذوُّق العارف (نعم، نعم، الأمر كذلك). وقد رأيتهم في المساء يسعَون إلى أجمل الأماكن للعبادة (أنت ملاحظٌ مُتَبصِّر)». أصبحت عينا العجوز أمامي ذواتي حياةٍ وبريقٍ، مفصحتين عن النشوة والدَّهشة والرِّضى. وفي النهاية قاطعني وصرح أن الحياة في البلدان الإسلامية أطول لأنها أقلُّ قلقا. نعم إنه يعرف تعب الذهن الذي يشتغل. وهو قد تعرَّف على كُتّاب غربِيّين، وكانت عيونهم لا تنمُّ عن الطمأنينة كما عيون الناس الآخرين. وبادرتُ بالسؤال: «هل هناك كُتّابٌ بفاس؟» فأجابني: «طبعاً، كما في كل مكان. فهم يكتبون هنا في الفقه والقرآن. ألم ترَ زاوية من سوق

العطارين تباع فيها الكتب المسفَّرَة بشكل رفيع؟».

دخل خدمٌ وبأيديهم أواني المائدة. كان السّاموفار يصفر على المائدة. وبحركةٍ أميريةٍ قدم لنا السي عبد الرحمن بنسليمان حلويات بالأنيسون. وجميعا بدأنا نرشف المشروب الذي كان ذا نكهة الليمونة. كانت الشفاه ترشف فيما كانت العيون من فوق الأقداح تبتسم بمرح وبفصاحة مشعَّة. وهذه اللحظة من الصمت مكَّنت أذهاننا من الاستراحة والتوجُّه نحو موضوعات جديدة للتفكير.

وحين رُفعت الأواني، طلبت الإذن من أناس الفكر هؤلاء أن أطرح عليهم سؤالا ذا طابع جغرافي (أي فكرة لهم عن العالم المرئي؟ وعن علاقتهم بذلك العالم؟ الأمر يتعلق بالنظرة الجوهرية لكل حضارة). جاءتني ابتسامةٌ وحركةٌ منهما لتشجعني على ذلك. «أوَّلاً ما رأيهم في شكل الأرض؟ ما الذي يقوله الناس الوَقورون والذين يتناقشون في أمور الفقه في ذلك؟ هل يعتقدون أنها كروية الشكل»؟ «كُروية»، ثم تبادلا النَّظرات فيما بينهما ليُتابع أحَدهما: «صحيح أن هذا الرأي لا يتجاهله علماؤنا. والكتب القديمة تؤكد ذلك، غير أن الأمر أصبح اليوم محطَّ نقاش. والأساتذة لا يقولون بكروية الأرض، ذلك أن الأرض إذا كانت كروية فإنها ستكون كذلك لكي تدور. والحال، هل هي تدور؟ ما الذي يقوله في هذا الأمر الدارسون في أوروبا؟»

وها نحن أصبحنا في قلب علم الفلك، وفي قلب السَّماء المليئة بالنجوم. وقد فرحنا لكوننا كنا متَّفقين على طبيعة الأفلاك. إنها عوالمُ ونيرانٌ متعدِّدةٌ يكون مرآها مصدرا للأفكار التديُّنيَّة، عوالمُ مثل عالمنا تفصلها عنا فضاءات مختلفة. لكن، وليسمح السيدان لأنفسهما بالتفكير، إذا كانت الكواكب هي التي تدور في السماء وليس الأرض، وإذا كانت مسافاتها ليست متطابقة، فكيف نتصور أنها في كل ليلة تأتي لتشكل في السماء الأشكال نفسها التي لا تتبدَّل؟ ليس من السهل تفسير مفهوم السرعة الزاوية، لكن السي محمد الجبّاص، الرجل العسكري «والعالِم»، سوف لن يلبث أن يدرك ذلك. إنها رعشة الاستنارة المفاجئة للذِّهن بحيث إن حقيقة جديدة ستستولي على جوارحه ويرغب في أن يبلِّغها لنا. وكان بين الوزيرين حديثٌ ساخنٌ، فصارا يتأملاني ويعودان للنقاش. وأخيراً انقشعت الظلمة، وطلع نور كوبِّرنيكي وذلك بفضل

مقارنة ذكية جاء بها الجباص. فقد افترض دوائر موحَّدة المركز تدور كلها حول ذلك المركز. والواضح أن ثوراتها لا يمكن أن تنتهي في الوقت نفسه. وفكرة الدوائر المتداخلة هذه تَمْشي بعلم الفلك. إننا نعثر فيها على النظرية القديمة للكواكب المتوالِية. لكن تَبّاً. على الأقل فهذه الغيمة لن تبسط علينا ظُلمتها، وليس لنا الوقت للتوقُّف عندها. وبما أن الثِّقة سَرَت بيننا وثار فضولُنا للمعرفة، فإن عشرات الأسئلة صارت تلحُّ علينا. وسأل وزير الحرب: «الشمس، هذا الكوكب العظيم، هل يرى الأوروبيون أنه أعظم من القمر؟»، وأضاف: «وهذا يقودنا إلى اختلاف زوايا النظر إلى الكواكب، ومن ذلك إلى المدفعية، فبأي طريقة يعرف من يرمي بكرة المدفع بعيداً المسافةَ التي تفصلُه عن الهدف؟». وها نحن نعود مرة أخرى لعلم الفلك العجيب. وسأل السّي عبد الرحمن: «كم من الفراسخ تفصل بين الأرض والشَّمس، والأرض والقمر؟ وعلماء القمر يقولون بأن لا شيء، وأن حلية الليل هذه أكثر لعنة من الصحراء، لأن الإنسان لن يجد فيه لا ماءً يرتوي به ولا نسمةَ هواء». وكرَّرَ وراءه الجبّاص بتؤدةٍ وبنبرة الإنسان الذي يدفعه ذلك الكلام إلى الإغراق في التفكير: «لا ماء ولا هواء». وجاء دوري للاستخبار: «وما رأي الفقهاء في ذلك بمدينة مولاي إدريس؟ هل يعتقدون أن الله قد أعمر الكواكب والنجوم بالمخلوقات؟». فأجاب أحدهم: «إنها مسألة لم يتطرَّق لها علماء فاس».

ولم يكن من الممكن تقديم جوابٍ أقل لاأَدريةً ويتَّسم بهذه التواضع الحَكيم.

مرَّت ساعة ونحن نتناقش في هذه الموضوعات العلمية التي يحبِّذها الناس النبهاء، لكن المتعبة أيضاً. وقفنا للانصراف معتذرين عن الأخذ من وقت وزراء ينتظرهم بأمور الاهتمام بأمور الدولة. وشكرتهما على تفضُّلهما بالإجابة على الأسئلة النزقة لغريب عن البلد. غير أنهما هما اللذان شكراني: «لقد تعلمنا درسا، فنحن لم نكن نعتقد أن ثمة فقهاء كبار لدى الرّوميين، ولم نكن نتوقع عمقاً كبيراً في النقاش». وحتى أضاهيم في لياقتهم وأدبهم ذكَّرتهم بأن أولويات عُلومنا قد تعلَّمناها من أجدادهم. فقال السي عبد الرحمن بنسليمان: «وللأسف أننا لم نعد نملك تلك العلوم...».

ثم عادا إلى طبعهما الرسمي. نزلا معنا درجات السُّلم بخطوات واثقة تجعلها عباءاتهما أكثر ثقلا، ولم يتوقفا إلا عند قوس البهو. ثم من جديدٍ التحياتُ العربيةُ والسلام الأوروبي

والرغبةُ في اللقاء من جديد.

وفي الرواق المظلم قام الكاتب الصامت والباسم دوما بمرافقتنا حتى الزُّقاق حيث كانت بغالنا في انتظارنا مربوطةً في حلقاتِ الحائط القديمة.

-12-

فاتح مايو/ أيار. هنا، كما في سوريا يكون الانتقال من فصل الشتاء إلى فصل الصيف قصيرا. ومن يوم لآخر، نحسُّ بالدَّفَق المتصاعد للحَرارة، فتكون نهاية الربيع المفاجئ والإلهي، والضباب المخضَرُّ المترجرِج لأشجار السوحر والصَّفصاف. ولم يعد ثمة ولا تويجة وردِيَّة واحدة لشجر اللَّوز في الوضاحة النّاصعة للسّماء. ومن مُسَلسل إزهار الأشجار لم يعد ثمة غير زهر البرتقال ورائحتها التي تعبقُ في الهواء المغبرِّ الثقيل. بيد أن تغير العالم هذا من حولنا ليس متحدِّداً كلية. فمن السماء والأرض تنبعث تأثيراتٌ غير مرئيةٍ. لقد هجرتها روحها الفتيَّة؛ وفي هذا النور الأكثر لمعانا واستقرارا، تبدو الجدران المتآكلة التي تختزن الحرارة أكثر شيخوخةً وأكثر تفكُّكا وأقرب إلى التفتُّت. تنبعث منها حرارة حارقة منذ التاسعة صباحاً، والحجر الأصفر يلتهِب ويجرح النظر في الأراضي الخالية البئيسة، التي تتناثر فيها القبور والقببُ وركامُ الأتربة...

وحولنا، في الأزقة الوضيئة في حيِّنا، أصبح الفراغ يعمُّ كلَّ شيء. وجيراننا الفاسيون لم يعودوا يجلسون هناك. لقد بدأ الفصل الذي يحلو لهم فيه الظلُّ الأبيض الوثير لغرفهم المزوَّقة بالمرمَرِ والجصِّ. وهم لمدة ستة أشهر لن يقوموا سوى بممارسة القيلولة والجنس تحت الأقواس وموسيقى العود ونفور الماء في الحنفيّات.

أما نحن، فإننا نهرب من هذه الأسواق في الظُّلمة الغامقة للأزقة القديمة. ونحن نقضي فيها سحابة يومنا. والرطوبة التي تعمُّ هذه الأمكنة هي نفسُها لا تتغيَّر. ولا شيء يصلُها من الصيف حتى في عزّ الحرِّ حين يحرق بيادر السهل، ويطلق لهيبه على المدينة الكامدة. إنها رطوبة مزدوجة: رطوبة الأعماق حيث تنساب الأودية تحت الأرض في قعر الحافة التي تحتضن مدينة فاس، ورطوبةُ الظلِّ والأروقة المختنقة والعَميقة التي لا يبلغها أبداً شعاعُ الشَّمس والتي تنغلق في الغالب من فوق.

استدار السائس نحوي وناداني بنظرة من عينيه. بيَد أني كنت أعرف، ولم أكن بحاجة لأن أقرأ على شفتيه الحروف التي حرص على ألا ينطق بها بصوت عال: «مَولاي إدريس». ها

نحن إذن في المركز الغامض والمقدَّس للمتاهة. وفي اليسار، حيث أشار لي أن أوجِّه نظري، ثمة عارِضة تحبس المرور إلى هذا الزقاق «الحرم»، الذي هو عبارة عن سوق مزدحِم مثلُه مثل الأسواق الأخرى، وحيث لن ندخل إلا مخاطَرَةً بحياتنا. وفي الطرف الآخر، في قلب العتمة، تنبثق وَضاحة النهار. وها هو موطن الأسرار. ومن غير أن أتوقَّف أو أدير الرأس، أبصرتُ به وتعرَّفت عليه بين دفَّتي بابه البرونزي الهائل، بباحاته الداخلية، وأجنحته ذات المائة عماد، والأقواس النَّفَلية. إنه معمارٌ شبيه بمعمار ساحة الأسود بجامع قرطبة يحيط بحنفية وضريح أخضر. ثم فجأة، ومن الزُّقاق الظَّليل، والعمق المحبوس حيث تضجُّ حياة صاخبةٌ، أبصرتُ بتلك النَّصاعة العظيمة الحرة البيضاء، والرَّوعة الصوفية التي ترفرف هناك. إنه تجلّي سكينةٍ عدنيةٍ.. مررنا بسرعة، فقد كان ثمة عيون رقيبة، محمَّلةٌ بالحقد المحلّي، تطرد كل مسيحي يقترب من هناك ليرى أكثر مما يجب أن يراه.

لكن، على بُعد خطواتٍ من هناك، توجد الحيطان العتِمة للقرويين، الجامعُ المقدَّسُ الآخر للمدينة، مغمورا بنور النهار الأزرق، هو أيضاً مثل عنكبوت في وسط شَبكته، محبوسا في شرنَقَة الأسواق العتيقة. والقيسارية[1] كلها تتعلَّق به وتحجُبه، بحيث لكي يكتشف المرء الجامع العظيم، عليه أن يصل إلى الزُّقاق، الواسع شيئاً ما الذي تلتصقُ به حوانيتُه، أو على العكس من ذلك، أن يخرج كليةً من فاس، ويعتلي تلَّةً ليبحث في المدى الرمادي عن مستطيل الجامع الشّاسع.

هنا كما في مولاي إدريس لا يستطيع الواحد منا أن يرى شيئاً إلا خِلسة. لكن ليس هنا من زقاق محرَّم يفصلنا عن الجامع. كنّا نلامس حيطانه، ومن زقاق لآخر نتركه كي نلاقيه أبعد من ذلك، بحيث يمكننا أن ندور به تقريباً. إنه يشبه الجامع الذي لا يزال قائماً بقرطبة، والتي محت المسيحية منه كل الحوانيت التي كانت مُلتَصقة به كما هنا.

واليوم فإن جامع القرويين هذا، الذي كان فيما قبل شقيق جامع قرطبة، يظل هو ثالث مسجد في العالم الإسلامي بعد مسجد مكة ومسجد عمر الرائع بالقدس. والعديد من الطلبة والعلماء يملؤون مدارسه، أولئك الذين يسيرون جماعاتٍ في الأصيل ليقرؤوا السُّوَر الخالدة في المقابر. إنها جامعة وريثة للجامعات الكبرى العربية في العصور الوسطى، والقلب النابض

(1) هي سوق الأثواب.

لإفريقية القديمة، حيث الحماسة الإسلامية لا تزال حية، لتشِعَّ بواسطة الطلبة الرحَّل حتى مصر، وعبر الصحراء حتى السودان.

والصلاة في القرويين دائماً مستمرة. وحين تكون كل المساجد نائمة، تظل القرويين سهرانة حتى يظل اسم الله يذكر فيها بكرةً وأصيلاً. وفي كل وقت ينهض مؤذنوها ليكبّروا الله في صومعتها. وقبل الفجر يأتيني صوت التَّهاليل البعيدة مؤثرةً التي تشكل الإيقاع المرفرف على شَعب بكامل بحيث يصنع حياته من قرن لآخر...

***

وخلف القَروِيّين، خرجنا للأسواق عبر الأزقَّة المزدحمة المليئة بالحوانيت، لكن التي لا تشبه القيساريةَ بأجوائها الخانقة وسقوفها وتجارها الصّارمين، المنتظمين صفّا في دواليبهم، حافيي الأقدام، ببشرتهم البيضاء التي تشبه الأثواب الموصلية التي يرتدونها. وبعد الحوانيت الصامتة لهؤلاء البورجوازيين التجار، ها هي حوانيت العامة المليئة باللغط والألوان والنفايات... إنه الحي القذر والمزدحم حيث تتوارَد حشود بدويَّةٌ لا تزال وفيَّة لأسمائها وملابسها القبَلية، والتي لم يمسَّها بعد تأثير فاس وإكراهات الحضارة الأندلسيَّة، ولا تزال من ثم تحتفظُ ببعض الدَّم الفظِّ الأحمر البدائي في عروقها.

سرنا تحت تلك الأفاريز المتهالكة، في الزُّحمة العربية، عبر الحمامات الشمسية المتناوبة التي تطل علينا من تشابكُ أغصان الكروم. وأحياناً في ممرٍّ ظليلٍ، حين يغطي أسفل بيت ما عاليةَ الزقاق ليوقف زحف السوق، تنزل غمغَمَةٌ من الأعمدة القديمة، أشبه بزقزقة الطُّيور الغامضة. إنه كتّاب قرآني معلَّقٌ كما حظيرة طيورٍ فوق الناس وروائح السّوق. وما أن تجاوزنا الممرَّ، حتى رفعنا رأسنا فأبصرنا من فتحة نافذة جمهرةً من الصِّبيان تعوم في عتمةٍ ساخنةٍ، جالسين كلهم أرضاً يتمايلون في حركة جماعية غريبة مستمرَّة (تشبه الرقصة المدوخة التي كان يقوم بها الشيوخ اليهود في معبد الملاّح). كانت التلاوة والترديد بإيقاعهما السريع الحاد يخرجان من عشرات الأفواه التي ترتِّل جمعا في ذلك الصباح الآيات القرآنية نفسَها. هكذا منذ الأزمنة القديمة يتمُّ تكوين أجيال المسلمين.

وبعض الأحيان نرى الفقيه المعلم، وهو عجوزٌ بنظاراتٍ ضخمةٍ وبعُبٍّ مُطبِقٍ على رأسه،

جالساً على مصطبَّة أمام الصبيان، وبيده عصا طويلة كما عصا مدير الجوقة، غير أنه يستعملها كسوط يخبط بها الرؤوس يميناً وشمالاً، طابِعاً مدى الحياة على الرؤوس الحليقة للصبيان الكلماتِ التي هي كلمات الدّين.

***

وفي مكان آخر من ذلك الحي البئيس الصّاخب، وفي ساحة تُربَط فيها البغال، توجد سقاية قديمة رائعة يبدو أنها معاصرة لجوامع فاس الجديد. ويغلفها ما يشبه معطفَ مدفأة تحت سقف مُنحنٍ من القرميد. وفي القعر على الحائط، في إطار قوس صغير أندلسي، يلمع الزَّليج بزخارفه ذات الطابع المريني. وهي عبارة عن عيونٍ ذات زرقة فاقعةٍ وزرقة فيروزية (وهي ألوان جاذبة)، وشموس مشعة تدور الواحدة منها حول الأخرى، مشابِكةً بين هالاتها وأهدابها، على خلفيةٍ صوفيةٍ من النَّجيمّات.

وقرب إحدى هذه السقايات، وفي المكان نفسه الذي يشغله السوق، ينفتح فندق عتيق يمكن اعتبار بابه من تحف الفن الإسلامي. وإذا كانت المآثر في طليطلة أو غرناطة مخصوصة لزيارة أولئك الآتين من بعيد، فإن هذه الأطلال الجميلة هنا ليست جامدة. إنها ترتبط بالحياة المحيطة بها وتتناسق معها، تلك الحياة التي ما تزال أنماطها هي نفسها أنماط اليوم. فهذا الباب الذي لا يقدّر بثمن في فندق النجارين لا يزال مأهولا بالنجارين. وهم يضعون عليه ألواحهم الخشبية. ويبدو أن تلك عادتهم منذ زمن لأن برنقه قد زال بالضبط في مستوى تلك الألواح المتكئة عليه. ويمر تحت الباب، ذي الزخارف المغربية الأندلسية، العديد من الناس ذوي البرانس المرقعة بألف رقعة. وحوله الأحجار العتيقة للحيطان، التي فقدت غلافها، والساق المحدودب لتينة برية خضراء، وجحوش تغفو، والمدخل المعتِم والبئيس لزقاق مقوَّس...

-13-

دُعينا لعشاء وداعٍ لدى أحد أصدقائنا المسلمين في حيّ الأندلس. وكان من الصعب علينا التعرُّف على طريقنا إلى داره في الليل، عبر شبكة الأزقة التي تكاد تكون محفورة في الأرض، والتي يتيه فيه ساستُنا في وَضَحِ النهار. كنا نسير على ضوء الفوانيس التي يحملها رجالنا في هذه المنعرجات من الأقبية التي تغدو مدهشة أكثر في هذا الوقت. ظلوا يسيرون بانحناءٍ كي ينيروا أفضل أمام أقدام الخيولِ الأرضيةَ الخشنةَ التي ظهرت في الدائرة النّورية الصّفراء المتحرّكة. وكان علينا أن نرمي بأجسامنا إلى الوراء نحو مؤخِّرة الحصان اتقاءً للمنحدرات الوعرة التي بدأت فجأة والتي لا نتصوَّر منتهاها. كنا ننحَدر فيها بانزلاقاتٍ مدوِّيَّةٍ. ومن لحظة لأخرى كان الحارس الذي يسير أمامنا يطلق صرخةً، فنعلم معها أن علينا الانحناء حتى لا تصطدم رؤوسنا بعواميد أفقيّة. وظللنا نغوص أكثر فأكثر في السّر المزدوج لليل والمدينة، تارةً في الغسَق البهيم لنفقٍ، وتارةً في عمق أُخدودٍ تحت منعرجاتٍ ضيِّقة ومشعَّةٍ للسماء الليلية. وسرنا طويلاً في تلك المنعرجات بحيث فقدنا كل فكرة عن الشمال والجنوب ولم نعد نعرف في أي جهة من فاس كنا نوجد. وهكذا حضرتني ذكرى ساذجة مما درسناه في المرحلة الثانوية. ففي القرن الخامس عشر، كان دوق أورليانز Orléans يسير على صهوة جواده في باريس ليلا، محاطا بحرسه وبحاملي الفوانيس. لكن، في الليل الذي تكثر فيه الكمائن، لم تكن أزقة باريس ميِّتَةً. كانت بعض النوافذ تفتح وعيونٌ فضولية تراقبهُ وهو يمرُّ...

عبرنا العديد من أبواب الأحياء، التي ستظل مفتوحة لنا بأمر خاص، حتى عودتنا في العاشرة والنصف ليلا. صادفنا أحياناً شبحا إنسانيا متكئا على حائط، يستنير بضوء باهت عند القدمين. وأحياناً دائرةً واسعةً من الضوء تنبعث من باب مسجد، وأشكالا إنسانيةً في وضعية الصلاة راكعة أو ساجدة تحت المصابيح والأقواس. وفجأة، وبعد أكثر من نصف ساعة من المسير، يقطع الوحدةَ انبثاقُ سوقٍ غريبٍ لا يزال الناس يتحركون فيه، في مخرج هذه الأزقة التي تشبه القبور. ولم أكن أتصوَّر في هذا الليل الساخن الحركَةَ المتأخِّرة بين أنوار الحوانيت لهذه العباءات الباهتة.

وفي الوقت نفسه، سمعنا انهمار مياهٍ قويةٍ علمنا معها أننا في السّوق المحاذي لجامع الأندلس، غير بعيدين عن وادي فاس، الذي يجري عارياً هناك بين الأسوار لينغمسَ صاخبا تحت إحدى المطاحن. كنا قريبين جداً من وِجهتنا. غطسنا من جديد في الظلام والسكون، حتى ظهر لنا النور تحت سَقيفة. وحولها كان الجنود والخدم يحملون الفوانيس الضَّخمة. حينها جاءني صوت مضيفنا مرحِّبا: «السلام عليكم، أهلا ومرحبا بكم...».

***

ومع أني كنت متعوِّدا على الانتقال السريع من زُقاق يبدو آهلا فقط بالفئران إلى الروائع الخفية لباحةٍ مغربيةٍ، فإني أحسست هذه المرة أن التباين أكبر من أن يُتَصوَّر. الزقاق الضيق البئيس في ظلام الليل، ثم هاهي تظهر أمامنا فرشةٌ منيرةٌ من الرخام بين جدران مغطاة بالزليج. وعلى البلاطات شموع طويلة تحترق وشمعداناتٌ متوازيةٌ. وهناك في الأعلى شمعدانات أخرى تزيِّن الأقواس الصغيرة البيزنطية التي تحيط بالطابق العلوي وكل هذا اللعبِ المتراقصِ، تحت مربع الفِناء حيث تظهر السماء السوداء، يدخل البهجة بروعة لا تضاهيها سمفونية الكتابات العربية والنجيمات المزخرفة والتَّواريق المشعَّة.

وقبالة المدخل، في وسط الرّواق، سقيفة يتدلى منها ستار من الدنتيلا البيضاء. وما أن رفعنا الستارة حتى وجدنا أنفسنا في قاعة الأكل. إنها قاعة ضيقة، كل شيء فيها أبيض مع صفّ من الشمعدانات على البساط أمام الأرائك الواطئة الطويلة. وفيها كما في البهو رائحة البخور تنبعث من المبخرات. في هذا المكان لا يمكن للمرء إلا أن يخفض الصوت. وفي طرفي القاعة على الأرض كان ثمة صينية نحاسية كبيرة مهيأة للضيوف الذين سيتعشون في مجموعتين مختلفتين.

كان العديد منهم قد وصلوا، رجالٌ كبار السن وذوو رِفعة ومقام، جالسين على الأرائك ثانين أرجلهم. رجال مرتدون الحايك، أكثر الملابس المغربية كِبرا، ذلك الذي يُثنى ويُرمى على الكتف في شكل عباءة رومانية؛ فيما كان آخرون لا يزالون يتوافدون في صفّ صامت، غريبين في لباسهم المتشابه، أيديهم على القلب ومنحنون للمرور من عتبة هذا المكان الأبيض المنير. تركوا أحذيتهم في الباب، وتقدموا بتؤدة ليحيوا المُضيف وهم يقبِّلون باسمين أطراف

أصابعهم. نكاد لا نسمع سلامهم المغمغم بصوت خفيض. ثم سار كل واحد منهم ليغمر يديه ووجهه البخار المتصاعد للُّبان، بل لِيتشبع به تماماً بحيث يفرد رجليه حول المجمر ويغطيه بأثوابه ويقوم بحركات تعبر عن الرضى.

ثم دخل الخدم حاملين الأباريق والصينيات النحاسية اللامعة. إنها الإشارة إلى من سيتعشون في الطرف الآخر من الغرفة، والذين سوف يقودهم صاحب الدار ليجلسوا حول الصينيات اللامعة فوق الزربية. ثم قام أحد الخدم، ذو الزيِّ المتراخي والرجلين العاريتين، بالإطلال علينا من فوق كي يقدم لنا الإبريق. والواحد بعد الآخر مددنا راحاتنا فوق الحوض وغسلنا أيدينا في الماء البارد.

حينها بدأ تتابع الأطباق المتعدِّدة والشهية التي تشكل مفخرة صاحب الدار. وكل واحد يرفع وكأن لم تمَسه يدٌ. ومع ذلك فإن السهرة لم تكن ناجحة تماماً. فقد دعا مُضيفُنا شيخة[1]، من أشهر المغنيات في فاس لنستمتع بغنائها بعد العشاء. ورفعت السُّفرة وجلس الناس على الأرائك في انتظار المغنية. ولما تأخرت أرسل للسؤال عنها فعلمنا أنها أودعت السجنَ منذ الصباح، وهو أمر يحدث عادة، فهي تكسب الكثير من المال والسلطات التي تعوزها الموارد لا تتورع عن ابتزازها. وما أن تفرِغ كيس نقودها لدى المحتسِب حتى يُطلقَ سراحها في انتظار اعتقالها من جديد حين تغتني مرة أخرى.

هذه الأمور حكاها لي (دائماً بصوت خفيض) جاري الجالس جانبي، وهو جزائري بسمت أكثر رقَّة وحيوية من هؤلاء المغاربة، بلحية كثَّة مجعّدة تبدو طويلة وآشورية الشكل كما يبدو في عباءته الرفيعة. كان يتحدث بسخرية في النبرة عن المخزن وأهل فاس والخمول الفاسي، مردِّدا على مسامعي الآية القرآنية التي تحث على العمل. وظل يهمس لي ببعض التفاصيل التي لن أتجرأ على ذكرها. وحسبَه، فإن تلك «الشيخة» شهيرة شهرة كبرى. وهي بصحبة أخيها وصديق أخيها تقدم فرجات ليست دائماً ذات طابع فني (دائماً على نور الشموع، في أمكنة يغلبها بخور اللبان الذي يذكِّر بأجواء الخشوع)...

(1) ما يقابل العالمة لدى المصريين.

2 مايو/ أيار. وسهرة أخرى لدى السي عبد الرحمن بن سليمان. وبما أن البعثة الفرنسية كانت مدعوة فإننا جلسنا هذه المرة على كراسي، وأكلنا بالملاعق والشوكات التي استعارها صاحب الدار من المفوَّضية الفرنسية. كان كل أوروبي يجلس بين شخصيتين متلفّعتين بالأثواب الموصلية الطويلة، وخلنا نفسنا حينها أننا في حفل عشاء أوروبي فاخر. فثمَّة تناوبٌ بين الثياب السوداء والثلجية والضبابية وحلية النساء الرائعة.

كانت القاعة المخصَّصة للاستقبالات فسيحة، وهي التي تسمّى في دمشق «السلاملك» وتحتل جانبا كاملا من مربَّع فِناء الدار. كانت دفَّتا الباب مفتوحتين على مصراعيهما خلف الأقواس التي تزين الباحة المعمَّدة، بحيث نرى الفناء الرائع الأبيض تماماً تتوسَّطه حنفية تطلق زخّات الماء. لا وجود للزليج على الحيطان، ثمة فقط لون البياض المرمري.

كان بعض الضيوف يتجولون في هذا الفضاء الليلي الجميل. هنالك توافقٌ رائعٌ بين الشخوص الإنسانية ذات العباءات والأعمدة الخالصة، والأروقة الفسيحة وتوازي الأدراج. إنها تبدو صغيرة في هذا المعمار، لكن ليس بشكل مبالغ فيه بحيث تظل محافظة فيه على كرامتها ونخوتها. وحولهم يعم السكون المتناغم والتجريدي، الذي نظَمَته الإرادة الإنسانية بجلالٍ.

كانت الأطباق التي يحملها الخدم ملء أذرعهم حول المائدة، من قطع اللحم المتبَّلة والخرفان المشوية الموضوعة كاملة في صحون من النُّحاس. كان مدى المأدبة يليق بشخصية مغربية مرموقة. وهو كان ببساطته وبياضه الزنبقي وفمه الدقيق وحركاته النادرة المحسوبة يُداعبنا كلَّ واحدٍ بدوره بنظرته المغناطيسية من غير أن يدير الرأس، وحدقتاه تدوران في عينيه الخلاسيتين.

كف الضيوف كلُّهم عن الأكل، ومع ذلك ظلت الأطباق تتوالى. وكنا نستمع لموسيقى أندلسية طويلة ورتيبة وفاتنة. إنها الموسيقى الوطنية للمغاربة، تلك التي حملوها معهم من ممالك اشبيلية وقرطبة وغرناطة، والتي حافظ على تقاليدها الأصيلة في فاس موسيقيو

البلاط. كانوا تسعة موسيقيين جالسين القرفصاء أمام باب كبير مفتوح على جانب صحن الدارِ واللَّيلِ، الليلِ الذي كان يبدو فيه انبثاق الماء في النافورة مبهما، وحيث ينعكس شبح شجرة برتقال غريبة بين الأنوار على الرخام والنجوم الحياة في مربَّع السماء.

ظلوا يعزفون منذ انطلاق الحفل، بحيث فعلت الموسيقى الآن فيهم فعلها. كنا نحسبهم منهمكين مأخوذين وثملين بحيث صاروا كيانا جماعيا واحداً تخترقهم روحٌ واحدةٌ تحرك فيهم السواعد والأيادي والأصابع على الدُّفوف والكَمانات وآلات العود. كانوا يعزفون ويغنُّون ووجوههم مشبَعةٌ بالموسيقى، ويتمايلون كما في الحلم، والأصوات كلها مهتاجة، والعيون تنغلق كلها في حالة من الوجد.

كانوا يغنون أناشيدهم الأندلسية وموشّحاتهم التي تتحدث عن المياه والحدائق الغنّاء وهموم الحزن وسعادة العاشقين. إنه غناء جماعي ثَرٌّ تولد الجُمل فيه وتتمازج ثم تنفصل وتخبو كما الذَّبذبات التي تموت.

كان الجالس جنبي على اليسار رجلاً تونسيا قصير القامة، ذا مظهر حذر وناعس وملامح متهالكة وعينين نصف مغمضتين. كان متشبِّعا بالموسيقى بحيث إن وجهه الكئيب ما لبث أن استنار بالغبطة. وبالكاد استطعت، في بداية الحفل، أن أنتزع منه بعض الكلمات. أما الآن فإنه أحس أني مثله منغمس في جذوة الموسيقى، فشرح لي صدره بحماس وبصوت خافت مليء بالوجد: إنها أجمل موسيقى سمعتها أذناي، بحيث لا يمكن معها أن يحتاج الإنسان لموسيقى أخرى... لا أظن أن هناك موسيقى أجود... والكلمات والمجازات، هنا يكمن الجمال الأسمى. يا لهم من فطاحل هؤلاء الشعراء الأندلسيون، إذ على المرء أن يكون قد قضى سنوات طوال في الدراسة ليتمكَّن من إدراك جميع المعاني، ويستكنه المعنى الباطن لأبياتهم. اسمع، إنهم يغنون الآن عن الغلام باعتباره المحبوب (وذلك بصيغة المذكر لأن ذلك أجمل). ففي السهرة في بلاط الأمير، يقدم الغلام قدح خمر. وتمنحنا القصيدة اسم هذا الخمر. والعارف يعلم أن اسم هذا الخمر يعني أيضاً ريق المحبوبة. يا له من عمق. وهاك اسما آخر يعني في الآن نفسه النبيذ الأحمر، وشفة المحبوبة ووجنتها الحمراوين...».

ثم صمتَ بحركة العاجز عن التّعبير عما يحسّه، لكن عينيه الخابيتين من لحظة صارتا

متّقدتين وتتحدثان إلي أكثر فأكثر. احتدَّت الموسيقى أيضاً تتخلَّلها وقفات مُؤثِّرة مُفاجئة. وتعالت بغتة جملة يغنيها صوتٌ انفصل عن الأصوات الأخرى، بصيغةٍ شجيَّةٍ مترجرجة ممتدَّة تشنَّجت لها حركات وجهه.

في تلك اللحظة، مال نحوي التونسي القصير، وعيناه على المغني، وهمس لي في الأذن: «لقد التقى العاشق بمحبوبته في بستان، والموسيقى تقول: يا قلب، يا قلب تمتع بالوصال».

استمرت الموسيقى الأندلسية حتى بعد انتهاء الحفل. وتفرَّق الضيوف في صحن الدّار الرُّخامي، شخصيات بيضاء كما ذلك الرخام، متناثرة هنا وهناك في عباءاتها الصوفية، متناظمة مع الأقواس والأعمدة. كان الوزير صاحب الحفل ينتقل من هذا الشخص لذاك، وقورا وبشوشا وبهيّاً. وفجأة جاء إلي لنتابع معا النقاش الذي بدأناه أياما قبل ذلك عن الأفلاك. ومعا رفعنا رأسنا إلى النجوم المتقدة في السماء.

وعدانا نحن بثيابنا السوداء، كان الباقي أشبه بمنظر من إسبانيا العربية القديمة، في أحد بلاطات أمراء الأندلس حيث نُظمت تلك الموسيقى الأندلسية، وتلك التراتيل العاشقة التي لا تنتهي إلا لكي تعاود إنشادها. وبين أغنية وأخرى لم يكن الفاصل سكونا. كان صوت الماء في النافورة يصدر شهقاته في الليل الدافئ.

-15-

7 مايو/ أيار. سنشدُّ الرِّحال غدا، وقد بدأنا الاستعداد لذلك. واليوم نستطيع بالكاد التسلُّل في «زقاق الفئران» الذي امتلأ بالحقائب والقفَف والخيام الملفوفة، والبغال وسائسيهم الذين جاؤوا لحملها، ومعهم عسكر المخزن هؤلاء. كان التَّباين واضحاً مع الدواب والناس الذين استأجرناهم في طنجة.

نعم، غدا صباحاً سوف نمتطي جيادنا ونسير خلف الفرسان، وسنعبُر الممرّات الطينية الباهتة بين البساتين لنصل سوق السرّاجين والحدّادين الظليل المزدحم، بين فاس الجديد وفاس البالي. وسنخرج من باب المحروق، لنتبع دربا أعرفه جيداً ونصعد بين الأطلال والقبور وأشجار الألوة ثم أشجار الزيتون، لنعبر حافة سنُدير رأسنا عندها وسنرى فاس تختفي إلى الأبد من أمام عيوننا، بأسوارها المذهَّبة وامتداد سطوحها، وبصوامعها المزيَّنة بالفيسفاء الفيروزي؛ فاس المدينة الدينية الشَّرسة حيث عشنا فيها بعيداً عن زمننا، والتي ستظل حيةً في عزلتها.

وفي انتظار الرحيل، قمنا بزيارة الوداع لكل الذين استضافونا. بل إننا سرنا أيضاً لتقديم التحيَّة للسلطان. إنه هو الذي بعث في طلبنا من غير أن يترك لنا الوقت للاستعداد لوقع هذه المقابلة. وبالكاد وجد الخبير المسلم الذي سيرافقنا لدى السلطان الوقت لكي يلبس قفطانا كستنائيا وجلبابه الرفيع، ويحمل بين يديه بلغَة (خُفّا) باذخا من القطيفة لانتعاله عند استقبال جلالته لنا، فامتطينا دوابنا وسرنا نحو القصر تحت شمس حارقة. وفي منتصف الطريق من القصر، بين باب الحديد وباب سيدي بونافع، وفي منعرجِ دربٍ يسير بجوار غدير مرعيّ، صادفنا عجوزا قصيرا على بغلته أشار إلينا بالوقوف. كانَ هو صديقنا السي محمد الجباص وزير الحربية الغائص في عباءته بحيث لم نميّز منه غير لحيته الفضية. كان قد انتهى من مقابلة السلطان ليعود إلى داره بهذا الشكل البسيط. وقد أوقفنا ليطرح علينا أسئلة مباشرة عن الموضوع الحارق لهذا اليوم: «السفير الألماني يتأهب لزيارة فاس. فما رأي الفرنسيين في ذلك؟ هل لهم علم بموضوع بعثته؟ كم من وقت سيمكُث هنا؟». ولجهلنا بالأمر عمدنا إلى

استعمال الصيغ الدينية والحكَم التي يستعملها المغاربة. ففي مجال السياسة كما في الأمور كلها الله أعلم.

سوف يبقى في ذهني من هذه الزيارة للسلطان شيءٌ واحدٌ بالأخص هو شساعة المكان الذي استقبلنا فيه، وصغر ومودَّة شخصية الحاجب الذي كان ينتظرنا في زاوية من الباحة. قام حاجب السلطان بقيادتنا حتى منعطف السور واختفى. وجدنا السلطان هناك في انتظارنا وعلى محيّاه ابتسامة تنم عن رعايته الملكية. كان جالساً على الطريقة الأوروبية على كرسي من خشب في عتبة باب صغير قد يكون باب حدائقه السرية، بحيث كان عليه أن يدفع فقط الباب كي يأتي لمقابلتنا في هذه الباحة.

سألني السلطان عن الاختراعات الآلية الكبرى في أوروبا ولا أدري أي كلمة عربية عبَّر بها عن الكهرباء. فضوله يكشف عن حدَّته في هدوء الكلام وسكون الحركة. كان بالتأكيد يعرف سرّ قوّة الروميين وما يجعلهم منذ قرن خطرا على الإسلام. كان يحس بجاذبية تلك القوة وفي الآن نفسه يعرف أنها العدوُّ لكل ما عليه الدفاع عنه.

وبما أنني كنتُ في حضرة السلطان فقد أبحتُ لنفسي النظر إلى هذا الشاب ذي النساء الكثيرات. بدا لي هذا القائد الديني والعسكري محبوسا وراء هذه الأسوار، هو الذي يملك قوى خارقة، وسليل أسرة من الملوك يتجسَّد فيها مبدأ مجتمع عتيق. بدا لي غريباً، ومثله مثل كل أبناء الحريم ناجما عن مزيج من الدماء، غير أن العنصر الأسود طاغٍ فيه. يمكننا تخمين قِوامه القويّ تحت العباءة ذات العُبّ التي تغلِّفه من الرأس إلى القدمين ولا تُظهِر منه إلا الوجه. كانت ملامحه عريضة وواضحة تنمُّ عن قوّة الشباب، وعيناه حيويتان وذكيَّتان ومُداعبتان، خاصة حين تشدُّ اهتمامه المحادثة، بحيث ينبع منهما بريق جميل. ومع السواد الدافئ لتلك النظرة يتناغم سوادُ خصلة شعر تنسدل على وجهه، علامةً على النَّسب الشريف المنحدر من واحات تافيلالت.

إحدى عباراته كانت جميلة وجديرة بقائد يُطلق عليه لقب «أمير المؤمنين»، لكن ربما كانت تلك العبارة في نظر من صدمت اختياراته الصّرامة الفاسية مجرّد عبارةٍ مسكوكة ومتداولةٍ. وعن سؤاله الأخير: «ما هو الشيء الذي يصدم أكثر الأوروبيين في فاس؟»، أجبت بتحوير

انطباعاتي شيئاً ما: عزَّة النفس التي لا تُضاهى لدى السكان، وصرامة الوجوه والنخوة العارمة. وأشار برأسه علامة الموافقة التامة. فترجم لي صاحبي جوابه: «سيدنا قال بأن الأمر كذلك وهو يعرفه؛ والسبب في ذلك أن الدين لا يتملَّك مشاعر الناس في بلاد الإسلام أكثر من مدينة فاس».

في هذا المساء الأخير، كنا عائدين من هضبة باب الفُتوح حيث رحنا لوداع المقابر القديمة وأطلال القرون الأولى من حياة فاس، وكذا لوداع المسجد الأزرق الصغير ذي الوداعة الدينية في هذا المنظر المحروق بالصخور والمدافن، والذي منه تبدو المدينة عبارة عن مدى عظمي أبيض.

كنت أتبع العسكري العجوز وسط منطقة الغبار المتراكم التي تحاذي، في الخارج، السورَ المتهالك الذي شيده السلاطين الموحدون بأبراجه المتوالية المخرومة. ثمة صخور قريبة وبقايا قبور. وعلى إحدى هذه الصخور وقف راعيان. يبدو أنهما يتأملان السور الشائخ الوقور، ومن ورائه الحافة التي تسقط فيها تسنُّناته ليعاود الصعود بانعطاف مفاجئ متابعا قطعة غير متحدِّدة من المدينة. كانت قطعانهما من الماعز تتزاحم عند أقدامهما.

تمدَّدا على الصخرة في عباءتهما بلون جلد الدواب التي يرتديها كل الرعاة، ولم يقطعا تأملهما ليستديرا نحونا. لكن ما أن تجاوزناهما حتى كسر أحدهما الصمت وبدأ في الغناء، بذلك النبر الحاد الصائت الذي يميز رفعة الترتيل الشرقي.

توقفتُ للإصغاء إليه. فهذا الارتجال الغنائي لراع متمدِّد على الصخر، أمام مناظر جميلية وحزينة، كانت في نظري جوهرَ الفن في تجلّيه الأسمى، والموسيقى في مصدرها الأولي حين تكون عفويةً، وانطلاقَ النفس الإنسانية في قلب الطبيعة في لحظة أصيلٍ وأمام منظر شجيٍّ.

وفكرتُ في نفسي أن في أوروبا، المقتنعة اقتناعا بثقافتها و«تقدمها»، ربما بفعل تلك الثقافة وذلك التقدم، لم تعد تلك الانبثاقات اليوم تتَّصل سوى ببعض الكائنات الفريدة. لقد انتهى الأمر، ففلاحنا لم يعد يتعاطى الغناء. إنه الثمن الذي دفعه ليقرأ الصحافة. والمساء في بوادينا لم يعد يبعث في القلب ذلك الانفعال المتوالي والبسيط بالأصوات.

غير بعيد من هناك، تأكد لي الدرسُ نفسه. فقد بلغنا في مسيرنا مجال المياه والبساتين. وتابعنا الوادي الرطيب الذي تظهر أحجار مجراه بكاملها. وحين انعطفنا على الجسر المقوَّس

رأينا، وراء حاجزه والمياه المنسابة، الطريق الذي نزلنا منه المنحدر. كان منظرا مكتملا مليئا بالمعنى بعظمةٍ وبساطةٍ يصعب التعبير عنها، وليس له من مركزٍ وموضوعٍ غير أطلال تكاد لا تظهر في طرف الدَّرب القديم بين أشجار الزَّيتون الفضية.

كان يوجد على الجسر ومنحدر القصب ما يقرب من العشرين متنَزِّها جالسين أو متَّكئين حالمين. لم يكونوا رعاةً بدواً وإنما فاسيين أقحاحا بوجوههم البيضاء مثل ملابسهم. كانوا ينظرون ويحلمون لا غير. ولا أحد من بينهم يدخِّن. لقد جاؤوا إلى هنا، ماسكين بالزهور بين أيديهم، أو بقفص عصفورهم المغرِّد. وفي نظر الرسام سيكون ذلك هو ما يمكن أن يمنحه تناظما ودلالة من كل الأشياء التي يحويها المكان.

ذلك هو ما يتبقّى لهم وما نغبطُهم نحن عليه. لقد راقبتُ ولاحظتُ خلال أسبوعين أهل فاس الغريبين وأصدرتُ عليهم جُزافا بعض الأحكام. وقد بدوا لنا نصف أمواتٍ، وأكثر تلاشيا من المدينة القديمة ومن الأسوار ومن فضاء المقابر. لكن، في هذه المدينة التي يذكِّرنا ظاهرُها الباهت الصامت وباطنُها الأسود المتآكل بالحجر وبباطن القبر، وبجذور الأسوار التي غزتها الأحراش والألَوة وأشجار التين والسوسن المبارك، في هذه البادية التي تكون فيها الباقات التي وضعها الربيع هنا وهناك أشبه بزهور موضوعة على قبر شاسع، وفي هذه الأشياء التي يتركها الإنسان لقوى الزمن القاهرة، من غير أن يجهد في تنظيمها أو إصلاحها، في هذا المجال الشاسع للهُجران، لم نعثر سوى على الجمال الباهر، ذلك الجمال الذي يسمو على كل ما ابتكرته فنوننا الأكثر اقدما لتزيين مُدننا الأوروبية. ففي ذلك الجمال لا تغدو الإراة شيئاً ذا بال. إن فاس نفسها، وباديتها، وبقايا ماضيها ومآثرها، كلها تنتمي إلى الطبيعة وتحمل سمات قوانينها وإيقاعاتها الطويلة المدى التي تؤثر في الحياة المديدة لمدينة شعب ما.

لقد عيبَ على الإسلام تجاهله لكرامة العمل، وأفراح وواجبات الحياة الشخصية، وبريقها الأصيل وأفعالها، وجذوة إشعاع الروح والعقل. وكان التفكير سائرا إليالمثال الذي حققته بعض النفوس السامية. لكنّ ما تنوسي هو أن الحقيقة ليست كذلك لدى عامة شعوبنا. فحياتهم لا شيء ينيرها، وعملهم أشبه بعمل الآلات التي يخدمونها، وحياتهم عبارة عن عبودية وتمرُّد العبيد. كما أننا ننسى ما يعيشه الموسرون من سأم وملل، ومن متع صاخبة

وهموم عابرة، والحركات القلقة وتقطيب الوجه. إنهم أشخاص من غير عظمة وكبرياء لأن لا إيمان لهم، ولا فكرة ضرورية وبسيطة، ولا تقاليد سلطوية ولا سلوك منظما يمنحهم قوة الشكيمة. والحضارة الإسلامية الكئيبة لا تجيب على عتابنا إلا بالصمت، كاشفة لنا عن وجهها العجوز، ذلك الوجه الذي لا يتغير، ذو الجلالة الرائعة والبئيسة التي لا تكف عن إدهاشنا. ثم إن عينيه الخابيتين تغوصان في رؤى لم نعد نعرف كيف نراها...

أفكر أني بعد ستة أيام سأكون بجبل طارق. إنها مسافة لا تحسب بالفراسخ. فالصخرة الهائلة القائمة، والمدافع التي تنتصب بها، والمدرعات الضخمة، والبواخر المنهكة التي ترسو بها لعدة ساعات، والأنوار الكهربائية، ودخان الآلات وجلجلة الحديد في الترسانة، والعمال الذين اسودت وجوههم من الفحم، والجنود الحمر بكبريائهم الساطع، وأيضاً المسارح الكبرى، والحانات، والجرائد المليئة ببرقيات أخبار جانبي الكرة الأرضية: يا له من مختصر للإنسانية بكاملها خارج طبيعة أوروبا!ويا لها من عودة للحلم الشيطاني الذي صنعناه لأنفسنا، والذي يثير هلوستنا، ويمسك بنا من العنق، ويحركنا بشكل جنوني، هذا الحلم بحضارة مغايرة، غير أنها من الطبيعة نفسها التي يصدر عنها جمود حضارة الإسلام وصمتها!

وحينها، وغالباً فيما بعد، في حمأة مدننا وصخبها، تعودني ذكرى الراعي المتكئ على الصخرة، ينطلق بالغناء من جراء جمال الأطلال والأصيل.

المحتويات

في الطريق إلى مدينة فاس.. 5
الدخول إلى فاس 55
في ظل مدينة فاس 69